

مادلين أولبرايت

مُذكّرة إلى الرئيس المُنْتَخَب

كيف يمكننا استعادة سمعة أميركا ودورها القيادي

MADELEINE K. ALBRIGHT



تصوير
أحمد ياسين
@Ahmedyassin90
@Ahmedyassin90

مذكرة إلى الرئيس المنتخب

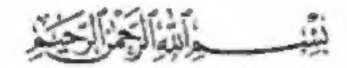


تأليف
مادلين أولبرايت

ترجمة
عمر الأيوبي

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة





يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Memo to the President Elect
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
HARPER - An Imprint of HarperCollinsPublishers
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى
1429 هـ 2008 م

ISBN: 978-614-421-927-0



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص. ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

المحتويات

مقدّمة

يحدث موت الرئيس صدمة عند الأميركيين. فيحزنون معاً على وفاة رجل وجزء من تاريخهم، وتغيب الصيحات الحزبية في كل قاعات الاجتماعات في البلاد. فالموت يليّن آراءنا تجاه بعضنا بعضاً. ونتقاطر إلى النعش شخصياً أو نوفد من يمثّلنا.

كان الدافع إلى هذا الكتاب هو وفاة أحد الرؤساء، فقد طرأت لي فكرته في 2 كانون الثاني/يناير 2007 في جنازة جيرالد فورد. وكان المكان الكاتدرائية الوطنية المهيبة في واشنطن، حيث اجتمع خمسة رؤساء، بمن فيهم فورد؛ وهم أعضاء في نادٍ حصري. وكان من ضمن الحاضرين أيضاً ست سيدات أوائل، عضوات في نادٍ آخر، ضمّ لأول مرة إحدى الطامحات في عضوية الناديين.

فورد هو الرئيس الوحيد الذي أقسم اليمين دون أن يخوض انتخابات وطنية. كان قائد السلطة التنفيذية غير المحظوظ، والمعروف بطبعه اللطيف أكثر مما هو معروف بإنجازاته، وهو من السياسيين الذين يمكن أن يحضروا مأدبة عشاء دون أن يشعروا أنّهم يجب أن يكونوا محور الاهتمام، وهو الأميركي المتوسّط المثالي الذي أصبح شخصاً غير عادي بفضل المنصب الذي شغله.

في صبيحة ذلك اليوم الكئيب في منتصف الشتاء، لم يكن بوسع فورد أن يتجنّب الأضواء: أوردت الصحف قصصاً عن حياته، وأعادت المحطات التلفزيونية بثّ أفلام وثائقية عنه، وبحث الأصدقاء السابقون عن النعوت الصحيحة التي يصفونه بها. في الكاتدرائية، جلس الرؤساء - كارتر وبوش وكلينتون وبوش - على المقاعد الأمامية. وتساءلت إذا كانوا يفكّرون في اليوم الذي تضع فيه الأمة كل شيء جانباً لتتذكّرهم، فهكذا تعمل عقولنا وهكذا تفكّر في الجنازات، سواء أكنا رؤساء أم غير ذلك.

كنت أعي الاحتياطات الأمنية لذا وصلت باكراً. وفي أثناء انتظار ابتداء القدّاس، تذكّرت تجربتي مع نادي رؤساء المستقبل. فعندما كنت طالبة، أجريت مقابلة مع جون كنيدي - كان لا يزال سيناتوراً في ذلك الوقت - لصحيفة المدرسة. كان السؤال الوحيد

الذي لا أزال أذكره هو: هل سيمنحني توقيعه؟ وكان سعيداً بتلبية ذلك. وقد أتيح لي وأنا بالغة امتياز تقديم النصح إلى عدد من المرشّحين الديمقراطيين لمنصب قومي؛ بمن فيهم جيرالدين فيرارو، وهي أول امرأة تخوض حملة الترشّح عن أحد الحزبين الرئيسيّين. كان كل المرشّحين الذين قدّمت المشورة إليهم أشخاصاً يثيرون إعجابي، ومع ذلك خسروا جميعاً إلا واحداً؛ ألا وهو بيل كلينتون الذي دعاني إلى العمل معه كوزيرة للخارجية؛ أفضل منصب يمكنني أن أحلم به.

كان تأبين الرئيس فورد تقليدياً بكل معنى الكلمة: ترانيم بروتستانتية، وأعلام مرفرفة، وإعلانات عن الفخر بأميركا، وثقة في الوعد بأنّ "من مات وآمن بي فسيحيا". فبمثل هذه الكلمات نتقبّل نهايتنا ونتطلّع إلى ما بعدها، مقرّين بالفناء ومؤيّدين ما سيأتي. والأميركيون على وجه الخصوص معتادون على التطلّع إلى الأمام. كان ذلك ردّ فعلي بالتأكيد، ولذلك راودتني فكرة كتابة مذكّرة إلى رئيس جديد فيما كنت أودّع رئيساً سابقاً.

يقول لنا المتحدّثون المحفّزون إنّ علينا أنّ نتعلّم كيف نُطلع المسؤول على أمر ما في الوقت الذي يستغرقه ركوب المصعد من الدور العاشر إلى الأول. تلك مهارة مفيدة، لكن عندما يكون المسؤول على وشك أن يتولّى الرئاسة الأميركية فإنّنا بحاجة إلى حيّز أكبر. ربما يستطيع المرشّح أن يشنّ حملة تقوم على شعار، لكن يتوجّب على الرئيس أن يحكم. ولا يمكن أن تتعلّم ذلك في المصعد.

لا يسعنا في أثناء وضع هذا الكتاب سوى التكهّن فيمن سيربح من المرشّحين في انتخابات سنة 2008. وأكتب الآن لأنّ علينا النظر الآن، قبل أن نقترع، في أحاجي الأمن القومي التي يجب أن يحلّها الرئيس القادم. كما أكتب لأنّني لا أستطيع احتواء خوفي من الاتجاه الذي اتخذه قادتنا الحاليون. يقال إنّ مارك توين، في سنواته الأخيرة، كتب بقلم استمدّ حرارته من الجحيم؛ وقد لاحظت البخار يتصاعد من حاسوبي الشخصي. لكن نظراً لأنّني متمرّسة في الدبلوماسية، فإنّني أتحفّظ في التعبير، ونظراً لأنّني صريحة بطبعي، فإنّ غضبي من سوء قراءة إدارة بوش لأميركا والعالم سيجد طريقه بين الحين والآخر إلى السطح. لكنّني أشعر بالأسى أكثر من شعوري بالغضب -

وكذلك الأمر بالنسبة للعديد من الأميركيين بصرف النظر عن انتماءاتهم السياسية - لأنّنا ضللنا حتى الآن عن جادّات الصواب الواسعة. ولا يقتصر هذا الحزن علينا، فقد قال أحد الأصدقاء الأوروبيين (لا يزال هناك بعضهم)، "إنّنا بحاجة إلى عودة أميركا؛ أميركا الحقيقية". وسيقرّر الرئيس القادم ما إذا كان ذلك سيحدث، وإذا كان كذلك، فماذا يعني.

ليس هدفي الأساسي في هذه المذكّرة النظر إلى الوراء، بل استعراض التحدّيات المخيفة التي تقع تحت عنوان "ما الذي يجب عمله"؟ فمن ناحية، سيستفيد الرئيس المنتخب من رغبة شبه شاملة في رؤية شخص جديد في البيت الأبيض. ومن ناحية أخرى، سيواجه مهمة هرقلية في محاولة إصلاح الضرر الذي لحق برفاه أميركا وسمعتها.

قبل الولوج، يجدر بي التطرّق إلى الجنوسة. عندما كنت في الجامعة، كانت الكتب التي تحلّل السلطة التنفيذية تفترض أنّ الرئيس - وتالياً، وزير الخارجية - سيكون ذكراً؛ وهي افتراضات عفا عليها الزمن. وبصرف النظر عن نتيجة هذه الانتخابات، فإنّه سيكون لنا رئيسة في المستقبل. في الكتابة عن المستقبل، كان علي أن أختار الضمير المؤنّث أو المذكّر في الإشارة إلى الرئيس المقبل، أو بإمكاني بدلاً من ذلك استخدام الاثنين معاً كما في "على الرئيس المقبل ألا يرفع كلبه البيغل من أذنيه أمام عدسات المصوّرين"* . لكنّني رأيت أنّ من الأفضل الإشارة إلى المناصب العليا بجنس شاغليها؛ وبالتالي أشير إلى الرئيس بالمذكّر وإلى وزيرة الخارجية بالمؤنّث. وهو حل غير مثالي، لكن أرجو أن يكون مقبولاً.

من أشهر أنواع المذكّرات - في واشنطن على الأقل - المذكّرة الداخلية أو الإدارية؛ وهي تجمل مثلاً سياسة جديدة لهيئة فيدرالية بشأن أولويات الخطوط المستعملة أو الاحتفاظ بالرسائل الإلكترونية. لكنّني أهتمّ بالمذكّرات العميقة المضمون، مثل تلك التي تسعى إلى التفسير أو الإقناع، وتتعامل مع القضايا ذات الوزن الكبير: الحرب، والسلم، والازدهار، والعدل. وعندما كنت سفيرة في الأمم المتحدة، كنت أكتب مذكّرات إلى الرئيس

كلينتون عندما كنت أعتقد أنّ آلية اتخاذ القرار بحاجة إلى خضّة. وكانت الأوراق تعاد إليّ مع ملاحظات كلينتون المدوّنة على جوانب الصفحات؛ وفي بعض الأحيان شعرت كما لو أنّني عدت إلى المدرسة عندما كنت أنظر لأرى ما الذي لدى الرئيس. وفي الغالب، لم أكن أفهم الكثير لأنّه من الصعب فك شفرة كتابة كلينتون. لم يكن على الأقل يصحّح أخطاء التهجئة، كما كان يحرص كارتر.

عندما أصبحت وزيرة للخارجية كنت أرسل بين الحين والآخر "ملاحظات ليلية" عالية السرية، وقد أسميت كذلك لأنّها ترسل إلى البيت الأبيض في نهاية النهار، ويحتفظ بها خارج نظام حفظ السجلات المعتاد. أريدك أن تعتبر هذا الكتاب نوعاً مطوّلاً من تلك المذكّرات، على الرغم أنّ من البديهي أنّه ليس ما يزعمه بالضبط. فالمذكّرة الفعلية إلى الرئيس المنتخب تفترض أن يكون لدى المتلقّي معرفة أوثق بالحكومة والتاريخ مما يفترض الكتاب؛ كما أنّها في الواقع تتسم بالسرية. المتعة تكمن في تصوّر ما الذي ستكون عليه هذه المذكّرة، إذا كتبت بتحرّر من خوف أنّها قد تصبح عامّة. لذا إذا شعرت بالمهانة من التحليل الذي تقدّمه الصفحات التالية، أرجو أن تسايرني وتدعي أنّه لم يسمح لك بقراءته في المقام الأول.

الأسلوب الذي اتبعته، كما سترى، هو التعامل مع موضوع الرئاسة التالية في قسمين: يحلّل الأول أدوات الأمن القومي المختلفة المتاحة أمام رئيسنا الرابع والأربعين؛ وهو نوع من دليل المستخدم إلى البيت الأبيض؛ بينما يبحث الثاني في كيفيّة استخدام هذه الأدوات لمواجهة مشاكل القرن الحادي والعشرين.

لقد شدّدت في جلّ الكتاب على السياسات الدولية، لا الداخلية؛ فهذا هو المجال الذي أعرفه في النهاية. ولا أقدّم اعتذاراً لاعتقادي بأنّ الناحية الدولية من عمل الرئيس هي الأكثر إثارة للاهتمام. هنا تسنح الفرصة للقائد الأعلى لتغيير مسار التاريخ والقفز من منزلة القائد الوطني إلى القائد العالمي، ومن رجل السياسة إلى رجل الدولة. إنّ المسؤوليات الدولية للرئيس هي التي تجعل الناس في كل أنحاء العالم يتابعون الانتخابات الأميركية باهتمام أكبر مما يظهره بعض مواطنينا للأسف.

نظراً للفترة الفاصلة بين تاريخ كتابتي وتسلّم الرئيس التالي منصبه، فإنّ عليّ أن أتوقّع ما سيحدث بين خريف 2007 ونهاية سنة 2007. وذلك أمر مرهق إذ لا يمكن استبعاد إلا القليل؛ بما في ذلك التغيّرات المفاجئة في قيادات البلدان الرئيسية، والاضطرابات الاقتصادية، وأوبئة الإنفلونزا، والكوارث الطبيعية، وما إلى هنالك. إنّني متفائلة بطبعي، لذا فأنا راغبة في توقّع بقاء الديمقراطية الأميركية وتجاوز أسخف مناحي الحملة، كما أنني غير راغبة في افتراض حدوث 11/9 آخر أو كارثة ذات حجم مماثل. وأتوقّع استمرار الجدل بشأن السياسة الأميركية في العراق بحدّة، وأن يعلن الرئيس عن خفض القوات وإدخال تعديلات على المهمة، لكن دون موعد نهائي لنهاية انتشارنا هناك أو في أفغانستان. وأعتقد أنّ الاضطراب (أسلم التعابير) سيبقى في الشرق الأوسط، وأن القاعدة ستوسّع عملياتها في إفريقيا وآسيا. وسيسيطر الجدل (على الأرجح) بشأن الطاقة والأمن على مناقشات التحديات العالمية، فيما لن يقود برنامج إيران النووي إلى نشوب حرب رغم ما يثيره من قلق. وفي الولايات المتحدة، عندما تضلّ السياسات الأميركية، يلقي كل من الكونغرس والبيت الأبيض باللائمة على الآخر، وكذلك المدنيون والعسكريون، ومسؤولو الإدارة ومسؤولوها السابقون. وسيتواصل النقاش إلى أن يتفق الجميع في النهاية على لوم وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي إيه).

في الشهر الذي تلا جنازة الرئيس فورد، سألت الأصدقاء والزملاء والطلاب، بل حتى مجموعة من وزراء الخارجية السابقين (تعرف باسم "مادلين ووزراء الخارجية السابقون") عن النصيحة التي يسدونها إلى الرئيس المقبل. وقد فعلت ذلك للتسلية وعلى أمل أن أسمع أفكاراً جيدة تدفعني إلى سرقتها. وكما وجدت عندما كنت في الحكومة، فإنّ مشكلة النصح هي أنّه يكون أفضل في جانب "ماذا" من جانب "كيف". فبإمكاننا أن نلقي نظرة على محرّك السيارة المعطّل ونأمل بأن نصلحه. لكنّنا لا نعرف كيف نفكّك مكوّناته ونعيد جمعها دون أن نحدث عطلاً أكبر. الرؤساء يقدّرون أن يقال لهم ما يجب أن يفعلوه، لكنّهم بحاجة إلى أناس من حولهم يستطيعون أن يبيّنوا لهم كيف يفعلون ذلك.

من المشكلات الأخرى لتوسّل النصح أنّه يمكن أن يؤدي إلى لائحة طويلة من

الأولويات. في بداية كل فصل أطلب من طلابي في جامعة جورجتاون أن يضعوا لائحة بما يعتقدون أنّها أهم القضايا. وسرعان ما يمتلئ اللوح بالمحن؛ من الإرهاب البيولوجي وتخريب الفضاء الإلكتروني، إلى الوفيات عند الأطفال، والنكهات الإقليمية العديدة للنزاع بين الأديان. وأطلب من الطلاب رسم مخططاتهم بأقلام الرصاص ومتابعة الأحداث الحقيقية عن قرب. وفي نهاية الفصل، إما أن تنخفض أولوياتهم وإما أن تنعكس. يواجه الرؤساء العملية نفسها. في البداية، يكون من الصعب استبعاد أي مبادرة لحل المشاكل؛ فالرؤساء يريدون الكثير. وفي النهاية، يأملون أن يبقوا في الذاكرة لإنجازهم القليل من المشاريع التي تدفع الأحداث في الاتجاه الصحيح.

عندما وصلت إلى أميركا، وأنا في الحادية عشرة، كان الرئيس هو هاري ترومان. وعندما يقسم شاغل المنصب التالي اليمين، أكون قد بلغت الحادية والسبعين. عندما كنت فتاة صغيرة، لم يكن بوسعي أن أشكّك في ما قاله الرئيس. الرئيس يتحدّث باسم الولايات المتحدة، والولايات المتحدة تقف إلى جانب الحقّ. لقد تعلّمت أن أكون أكثر نقداً، مثل الأميركيين على العموم، وبعضهم ينتقد إلى حدّ الإسفاف. ومع أنّني لا أداهن، فإنّني أعتقد أنّ علينا أن ندرك الصعوبة البالغة لعمل الرئيس، والتاريخ غير الواقعي للمنصب نفسه. علينا أن ندرك ما ننساه في الغالب: الرؤساء ليسوا أناساً خارقين، لكنّهم مماثلون لنا؛ فهم قادرون على رفع الإيماءات العظيمة والطموحات النبيلة، لكنّهم ميّالون للانغماس في التفاهات والانشغال بالذات. ومع أنّني لا أنتظر اجتراح المعجزات، إلاّ أنّني آمل أن يكون رأس السلطة التنفيذية الجديد الشخص الذي انتخبته وأستطيع الوثوق به. وسيسمح لي بالفرح ليلة الانتخاب والتلويح بالرايات والهتاف كما لو أنّني ما زلت في الحادية عشرة من عمري. لن يضير هذه المذكّرة سواء كنت مسرورة بالنتيجة أم خائبة الأمل، لعلمي على أي حال أنّني سأصلي لكي يكون الرئيس القادم على قدر عالٍ من الكفاءة لمنصبه. وسأتمنّى أن يتخذ الرئيس قرارات حكيمة؛ من أجلي وأجل أبنائي وأحفادي، ومن أجل بلدنا والعالم.

القسم الأول

الفصل الأول
تفويض بالقيادة
مذكّرة (شخصية وسرية)

إلى: الرئيس المنتخب

من: مادلين ك. أولبرايت

التاريخ: ليلة الانتخابات، 2008

أهنّئك على نجاحك. أحسنت صنيعاً! لقد حقّقت فوزاً عظيماً. لكن ذلك النصر يستتبع مسؤولية قيادة أمة منقسمة في عالم يمزّقه النزاع وانعدام المساواة، وتجرّحه الكراهية، ويحيّره التغيير، ويقلقه تجدّد مشهد المعركة النووية الفاصلة. في الأيام التالية، سيطمئنك قادة لم تسمع بهم قطّ، من بلدان لا تكاد تعرف موقعها، إلى صداقتهم وسيعرضون المساعدة. نصيحتي لك أن تقبلها لأنّك بحاجة إليها. إنّنا معشر الأميركيين نحبّ أن نعتبر أنفسنا نموذجاً للكرم والفضيلة، لكنّ العديد من الشعوب في كثير من الأماكن يعتبرون أنّنا أنانيون ومتأمّرون وعنيفون. والناخبون يريدونك أن تغيّر هذا المفهوم وتحمينا في الوقت نفسه، أن تهزم أعداءنا وتؤمّن لنا المستقبل الاقتصادي. بعبارة أخرى، أن تفعل ما وعدت به في حملتك الانتخابية.

لقد جرت مقارنة الرئيس الأميركي بحاكم الكون، ومدير الدفّة في سفينة شراعية عظيمة، وبو - با العظيم في الأوبرا الكوميدية "ميكادو"، والشخصية المنفردة الغارقة في "البؤس الرائع" (وصف جفرسون)، و"التجسيد الشخصي... لكرامة الشعب الأميركي وعظمته" (وصف ويليام هوارد تافت). وحدّد دارسو المنصب مجموعة من الأدوار الرئاسية: القائد الأعلى، والدبلوماسي المعلّم، والمتحدّث الوطني، وكبير المديرين، والمشرّع الأول، وقائد الحزب، وراعي الفنون، ومقدّم التهاني للفرق الرياضية، والوالد البديل. ويريدك مستشاروك أن تركّز على الأنشطة التي تحافظ على أرقام مرتفعة من التأييد في

استطلاعات الرأي وتعيد انتخابك. وأحثّك على التركيز على الواجبات التي تعيد سمعة بلدنا وتحفظ سلامتنا.

في 20 كانون الثاني/يناير 2009، ستضع يدك على الكتاب المقدّس ويحلّفك رئيس المحكمة العليا روبرتس، أمام ثلاثمئة مليون أميركي، وستة مليارات نسمة في كل أنحاء العالم، على "الحفاظ على دستور الولايات المتحدة وصيانته وحمايته". وستحذو حذو جورج واشنطن وتضيف الدعاء النابع من القلب، "ليكن الرب في عوني". وبعد إتمام اليمين، ستصبح أقوى شخص في العالم. ولن يعود من قبيل المصادفة أن تعزف لك الفرقة الموسيقية "هلا بالرئيس" عندما تدخل قاعة ما. فقد وصلت إلى أعلى منصب في بلدنا؛ والسؤال الذي تجب الإجابة عنه، هل لديك ما يلزم لتؤدّي عملك بامتياز؟

قبل ثماني سنوات، فيما كانت الألفية الثانية تقترب، بدا مستقبل أميركا مشرقاً جداً. كان العالم ينعم بالسلام، والاقتصاد العالمي يرفل بالعافية، والولايات المتحدة تتمتّع بموقع لا نظير له. كان البرنامج الذي ترشّح بموجبه جورج دبليو بوش في سنة 2000 يشير إلى الحقبة بأنّها "زمن رائع في حياة أمتنا". وقد أبلغ كولن باول، وزير الخارجية القادم في ذلك الوقت، الكونغرس "علينا العمل جيداً معاً لأنّنا نواجه تحدياً كبيراً أمامنا. لكنّه ليس تحدياً للبقاء، بل إنّه تحدٍّ للقيادة. فنحن لا نواجه عدواً إيديولوجياً مظلماً وخطيراً، بل القوة الكاسحة لملايين البشر الذين ذاقوا طعم الحرية. إنّنا نواجه نجاحنا المدهش".

على غرار كل ميراث، يمكن أن يستثمر النجاح الرائع بشكل منتج أو غير منتج. لكنّ رأس المال السياسي الأميركي بُدّد للأسف. وعندما قارنت السجلات مع أعضاء الحكومات السابقة - الديمقراطية والجمهورية على السواء - شاهدت أناساً يهزّون رؤوسهم وهم لا يصدّقون الطريقة التي أسيء فيها استخدام السلطة الرئاسية. والسؤال الذي يجمع عليه: بماذا كانوا يفكّرون؟ منذ اليوم الأول حصل الأشخاص غير المناسبين على المناصب العليا. وتمّ تشويه عملية اتخاذ القرار أو تجاوزها. وقدّم الامتثال للإيديولوجيا على المهنية، وسُمح للأكاذيب بالتنكّر بلبوس الحقيقة. وأعلن أنّ المبادئ المركزية في الهوية الأميركية عفا عليها الزمن. ونحّيت أدوات الأمن المهمة، بما فيها

الدبلوماسية جانباً. كنت آمل أن ينقذ الرئيس بوش إدارته في سنواته الأخيرة، لكنّ المكاسب التي تحقّقت جاءت متأخّرة وكانت هامشية. ومن المؤسف القول إنّك ستتولّى منصبك واحترام القيادة الأميركية أدنى مما كان عليه في ذاكرة أي شخص على قيد الحياة.

عندما كنت طفلة في أوروبا، كنت أختبئ في الملاجئ عندما تحلّق الطائرات النازية فوقنا. وعندما كنت أستمع إلى الإذاعة، كنت أُسَرُّ بصوت تشرشل والأخبار الرائعة بأنّ القوات الأميركية تعبر الأطلسي. كنت في السابعة عندما نزلت قوات الحلفاء على شاطئ النورماندي وصدّت لاحقاً جيش هتلر في معركة بلج (Bulge). وعندما أحرز النصر في الحرب، بلغت الثامنة، وأنا متلهّفة لاكتشاف ما هو طعم السلام، وكنت معجبة بالعسكريين الأميركيين بالفعل.

كانت الولايات المتحدة بالنسبة إلى أبراهام لنكولن "آخر أفضل رجاء على الأرض". وستبقى بالنسبة إليّ أرض الفرص على الدوام. ولا يسعني تصوّر الرغبة في العيش في مكان آخر، ولا تصوّر ما كان سيبدو عليه القرن العشرون دون البلد الذي تبنّيته. ولذلك، من المقلق معرفة أنّ الناس في معظم البلدان يعتقدون الآن أنّ أميركا "تثير نزاعات أكثر مما تجلب حلولاً" وأنّ لدينا "تأثيراً رئيسياً" سلبياً في العالم.

تبرز الغلطة المأساوية في العراق بجلاء، لكن ثمة أخطاء أخرى: إهمال الحلفاء، وفرط الاعتماد على القوة العسكرية، والسماح لأمثال ديك تشيني ودونالد رامسفيلد أن يكونوا وجه أميركا. نعم لدينا عذر: العالم مختلف الآن، لكن ذلك سبب يدفعنا أكثر إلى التنبّه لمواطن القوة المثبتة. لقد أحدثت هجمات 11/9 الإرهابية صدمة لنا، لكنّنا عشنا طوال عقود من الزمن ونحن نعرف أنّ الموت يمكن أن يصلنا عبر البحر. كانت الهجمات سبباً للحزن والغضب، ولإعادة التأكيد على مؤسساتنا واستراتيجياتنا، ولم تكن سبباً وجيهاً للذعر أو التخلّي عن مبادئنا عندما كنّا في أشدّ الحاجة إليها.

في أعقاب 11/9، بدأت إدارة بوش بشكل جيد لكنها سرعان ما نسيت من هم أشدّ أعداء بلدنا خطراً علينا. لقد كان كثير من الأميركيين مقتنعين بأنّنا غزونا العراق لأنّ

صدام حسين مسؤول عن 11/9. وبالتالي شعرت الغالبية بأنّ مواجهة صدام ستوجّه ضربة إلى القاعدة. ووافق الكثيرون مع الرئيس على أنّه يمكن تقسيم العالم إلى من هم منحازون إلى الولايات المتحدة وأولئك الذين يهلّلون للإرهابيين. وأعجب الكثيرون بيقين الرئيس؛ حتى عندما ساورتنا الشكوك حيال ما هو أكثر الأمور يقيناً لديه.

إنّني من المتفائلين الذين يقلقون كثيراً. فالأسباب التي تدعو إلى القلق تحيط بنا، بعضها مستتر، وبعضها الآخر يشاهد يومياً على السي أن أن وفوكس نيوز والجزيرة. ربما يبدو الاضطراب والنقد اللاذع غامريْن. فالسم منتشر في الهواء. مع ذلك فإنّ رسالتي الرئيسية إليك فيما تهيّئ نفسك لتسلّم الرئاسة أن تثق بمن نحن وما الذي نؤمن به، فقد واجهنا حتى في حياتي أخطاراً أشدّ، وحافظنا على رباطة جأشنا، وتغلّبنا عليها.

يمكن أن نفترض أنّه لو كتبت مذكّرة كهذه قبل نصف قرن، لكان بوسعنا أن نرسم صورة لأميركا آمنة وقوية. فقد كان أسامة بن لادن طفلاً في ذلك الوقت، ولم تكن القاعدة موجودة، ولم يكن الإرهاب الدولي مصدر قلق كبير. كانت الولايات المتحدة قائدة العالم الحرّ دون منازع. وكان العالم نفسه أقل تعقيداً وأبطأ حركة. مع ذلك كتب جورج كينان في الخمسينيات، "إنّ الإحساس بعدم الأمن يسيطر على وعينا القومي". وكان والتر ليبمان يخشى من أنّنا "نعيش في عصر الاضطراب والفوضى. ومع أنّ الولايات المتحدة أصبحت غنية وقوية، فإنّنا نعرف في قرارة أنفسنا أنّنا أصبحنا... غير آمنين وقلقين... إذ إنّنا غير واثقين مما إذا كانت مسؤولياتنا أكبر من حكمتنا". بل إنّ نصي المفضل في الكلية خلص إلى نتيجة كئيبة بأنّ "الأشدّ عناداً وبلادة فحسب هو الذي يغامر بالتوقّعات المتفائلة عن المستقبل... فالخوف يستحوذ على البشر في كل مكان... وقد تجاوزت معرفة الإنسان وقدرته التقنية قدرته الأخلاقية".

لا يرجع هذا التشاؤم إلى إخفاقات البشر، وإنّما إلى إبداعاتهم. فقد كان التقدّم من القنبلة التقليدية إلى النووية ذا حجم أكبر من أي شيء منذ أن تناول أول رجل سريع الغضب قطعة من الخشب وحوّلها إلى هراوة. فبعد هيروشيما أصبح احتمال الفناء

الجماعي الفوري جزءاً من حياتنا. إنّنا نخشى أن تنتشر معرفة صنع الأسلحة النووية بسرعة، ويشعر بعضهم أنّ ذلك علامة من الله على أنّ نهاية العالم أصبحت وشيكة.

كنّا قلقين أيضاً من أنّ الحلم الأميركي لا يفي بما يروّجه. ففي حين يقاتل سوبرمان في مجلات الرسوم من أجل "الحقيقة والعدالة والطريقة الأميركية"، فإنّ مناوئينا الدوليين يصفوننا بالجشع والعنصرية. ولم نرفض نحن ذلك تماماً. فقد كتب المنظّر السياسي هانس مورغنثاو قبل خمسين سنة، "لم يعد تفوّق طريقة حياتنا واضحاً بالنسبة إلينا أو إلى بقية العالم كما كان من قبل. وتبدو طريقة الحياة الشيوعية بالنسبة إلى مئات الملايين من الناس أكثر جاذبية من طريقة حياتنا".

في الوطن، تنافست لجان الكونغرس على استئصال المتعاطفين مع الشيوعية في وزارة الخارجية والجيش، وتقاتلت بشأن من المسؤول عن وضع الحمر في الصين الشيوعية. وتفاخر الزعماء السوفياتيون بقوّتهم الاقتصادية والصناعية، وتوقّعوا أن يدفنونا، وأطلقوا إلى الفضاء باعتزاز أول قمر اصطناعي (سبوتنيك)، وأول كلبة (لايكا) وأول رجل (يوري غاغارين). وعلى بعد تسعين ميلاً عن فلوريدا، أقام دكتاتور شيوعي رأس جسر ثوري وهدّد بإنشاء المزيد في كل أنحاء نصف الكرة الغربي. وتسابقت القوتان العظميان على بناء رؤوس حربية أشدّ تدميراً واختبارها. وتمرّن أطفال المدارس على الاختباء تحت المقاعد؛ وخزّن المخطّطون الاجتماعيون في الملاجئ تحت الأرض اللحوم المعلّبة وحساء الشعيرية بالدجاج. كانت أميركا في ذلك الوقت، كما هي الآن، تتوق إلى قيادة جديدة.

في سنة 1960، انتخبت أميركا رئيساً جديداً. جلب جون كنيدي معه مقوياً اسماه "فيغا" وطريقة دينامية للنظر إلى العالم. ويذكر حفل تنصيبه جيداً لتعهّده الجسور "بدفع أي ثمن، وتحمّل كل الأعباء... لضمان بقاء الحرية ونجاحها". وتحدّث أيضاً عن "الكفاح الطويل الأفل... ضدّ الأعداء المشتركين للبشر: الاستبداد، والفقر، والمرض، والحرب نفسها". وقد عكس هذا الاهتمام الواسع إيمان كنيدي بأنّ الغرب لا يمكنه منافسة الشيوعية بالجبروت العسكري فحسب. فعلينا كسب ولاء الشعوب المهمّشة، إذ إنّ

أميركا تزعم امتلاك رؤية فريدة وشاملة، وكذلك الشيوعيين. ولكسب المؤيدين، كان علينا أن نشرح أفكارنا إلى الشعوب التي ليس لديها خبرة بالحرية ولم تشهد سوى لقاءات عدائية مع الغرب. كان علينا أن نقنع أوسع جمهور بأنّنا إلى جانبه.

استجاب حفل تنصيب كنيدي إلى هذا التحدي بالتحدّث "إلى الحلفاء القدامى الذين يشاركوننا الثقافة والأصول الروحانية"، ثم إلى "الدول الجديدة التي نرحّب بها في صفوف الأحرار"، وإلى "الشعوب في الأكواخ والقرى في كل أنحاء العالم التي تسعى إلى كسر قيود البؤس الجماعي"، وإلى "الجمهوريات الشقيقة في الجنوب"، وإلى "الأمم المتحدة"، و"أخيراً إلى تلك الأمم التي ستعادينا".

في الأشهر التي تلت، صقل كنيدي صورة أميركا بإنشاء تحالف التقدّم، وفيالق السلام، والوكالة الدولية للتنمية؛ وأعلن عن تجميد التجارب النووية في الجو؛ ونقل رغبته في "السلام الحقيقي، السلام الذي يجعل الحياة على الأرض تستحقّ الحياة... لا السلام للأميركيين فقط، وإنما السلام لكل الرجال والنساء؛ لا السلام في زمننا بل السلام في كل الأزمان".

أدرك جون كنيدي أنّ على الأميركيين ممارسة الدبلوماسية الفعالة في كل قارة. وكان من المؤيّدين المبكّرين لاستقلال المستعمرات في إفريقيا وآسيا، فاعتبر بطلاً في أماكن مثل الجزائر وكينيا وإندونيسيا. وعلّقت صورة أول رئيس كاثوليكي لنا على جدران الأكواخ والعزب في أميركا اللاتينية. وكسب جون ف. كنيدي ودّ الخطباء الفرنسيين بالإشارة إلى نفسه بثقة بأنّه "الرجل الذي رافق جاكلين كنيدي إلى باريس". وعندما أقيم جدار برلين، طلب من سكّان برلين الغربية "التحديق بأبصاركم خلف مخاطر اليوم، نحو آمال الغد، وخلف حرية مدينة برلين... نحو تقدّم الحرية في كل مكان، وخلف الجدار نحو يوم تحقّق السلام والعدل، وخلف أنفسكم وأنفسنا نحو البشرية جمعاء". بدت فصاحة كنيدي وكأنّها تجسّد أميركا الواثقة من اتجاهها، والماهرة في فنّ استمالة الآخرين.

انتهت رئاسة جون ف. كنيدي نهاية مفاجئة برصاصة غادرة، لكنّها لم تنهِ الحاجة إلى الدبلوماسية العالمية التي برع فيها. وعزّز ليندون جونسون موقف أميركا الدولي -

على الرغم من عبء فيتنام - من خلال قتاله ضد الفقر ودعم الحقوق المدنية. وهدّأ ريتشارد نيكسون المخاوف باتباع سياسة الانفراج مع الاتحاد السوفياتي والانفتاح على الصين الشيوعية. وهندس جيرالد فورد إقرار وسائل مراقبة وضع الحرية خلف الستار الحديدي والإفادة عنها؛ قانون هلسنكي النهائي. ورفع جيمي كارتر حقوق الإنسان لتشغل مركز السياسة الخارجية الأميركية، وأعلن معارضة أميركا الفصل العنصري، ولعب دور الوسيط في السلام التاريخي بين إسرائيل ومصر. وشدّد رونالد ريغان على الدعم الأميركي للديمقراطية، وضغط على الأسس المهتزّة للإمبراطورية السوفياتية. ودعم بوش الأب وحدة ألمانيا وشكّل ائتلافاً واسعاً لدحر الغزو العراقي للكويت.

توالت العقود، وصاغ الرؤساء من الحزبين دوراً واضحاً لأميركا كزعيمة للنظام الدولي؛ كمدافعة عن القانون، وبانية للمؤسسات العالمية، وبلد تشعر بنفوذه كل الأقاليم وتحترم آراءه على نطاق واسع. وعلى الرغم من أنّهم لم يكونوا من غير نقائص، فقد كان سجلّهم مليئاً بالإنجازات. فالأسلحة النووية التي طالما خشيناها لم تستخدم ثانية، وتوقّف عدد القوى النووية المعلنة عند خمسة. وانتهى انقسام أوروبا. وأصبح الأعداء القدامى أصدقاء. وبدت الحضارة نفسها كأنّها ترتقي السلّم درجتين درجتين.

مع ذلك، في السنوات التي تلت الحرب الباردة على الفور، فاجأت طلابي بأنّني أعتقد أنّ العالم سيصبح أكثر خطورة. لقد أصبحنا معتادين على مخاطر عداوة القوة الكبرى، وطوّرنا بدأب وسائل احتوائها. وستثبت الحقبة الجديدة أيضاً أنّها أقل قابلية لتوقّعها على الرغم من أنّها أكثر حرية. لقد أعادت الأمم والناس تعريف مصالحهم؛ وعادت المظالم القديمة إلى الظهور. وعلينا أن نبذل جهداً كبيراً للحؤول دون الانزلاق إلى الماضي.

وهكذا أحضر بيل كلينتون في التسعينيات، على غرار كنيدي، الحماسة معه إلى مهمة الحكم في زمن التغيّر؛ فوسّع حلف شمال الأطلسي وأصلحه، ودعم التقليل من ديون البلدان الأشدّ فقراً، وعزّز الديمقراطية دون محاولة فرضها، وسعى وراء السلام، وفعل ما لم يفعله أي قائد آخر لحشد العالم ضدّ الإرهاب الدولي.

عشية تدخّل حلف شمال الأطلسي لمنع القتل الجماعي في كوسوفو، اتصل بي كلينتون في الوقت الذي اعتاد عليه، منتصف الليل، فهو نادراً ما ينام ولا يعتقد أنّ الآخرين بحاجة إليه. راجعنا معاً الخطوات التي اتخذناها لإيجاد حل دبلوماسي للأزمة. وقبل القتال، ضغط علينا كلينتون للحصول على كل جزء من المعلومات. كان يجلس خلف مكتبه محاولاً التخلص من الصداع بضغط علبة كولا لايت على جبينه، متسائلاً عن كل شيء: التاريخ، والشخصيات، والعوامل الاجتماعية والثقافية، والمخاطر على قواتنا، والتكلفة التي يحتمل أن يتكبّدها المدنيون، وإذا ما كانت خططنا بعد الصراع واقعية. كان مصمّماً على إنجاز المهمة بطريقة صحيحة لأنّه يعرف أنّه قد يخطئ. كان دقيقاً، وذلك شأنه في كوسوفو وفي كل مسألة مهمة.

كان نهج كلينتون بالنسبة إلى وزيرة خارجيته ميزة ثمينة. لم يكن من الصعب عليّ إقناع الناس في الخارج أنّ الولايات المتحدة تدرك وتهتمّ. فهم يعرفون ذلك بالفعل، لأنّهم يستمعون منذ سنوات إلى الرئيس الذي أخذ وقته ليتعلّم عنهم، وأظهر أنّه مهتمّ بمستقبلهم، ويريد المساعدة إذا كان بوسعه ذلك.

في خطاب تنصيبه الثاني، أشار بيل كلينتون إلى بلدنا بأنّه "البلد الذي لا يستغنى عنه". أعجبتني العبارة جداً فاستعرتها إلى أن ارتبطت بي. اعتقد بعضهم أنّ المصطلح متعجرف، لكن ليس هذا ما قصدته. بل شعرت أنّه يعبّر عن الواقع بأنّ معظم المبادرات الواسعة النطاق تحتاج إلى بعض المدخلات على الأقل من أميركا. وكنت أرجو أيضاً ينشئ هذا المصطلح إحساساً بالفخر بين الأميركيين، بحيث نكون أكثر استعداداً للاستثمار في المشاريع الخارجية، وأقل تردّداً في قبول المهام الصعبة.

على الرغم من أنّ بلدنا يشترك في الكثير مع البلدان الأخرى، فإنّه لا يوجد حالياً أي منافس له في القوة وطول الباع. وذلك يوجِد الفرص وكذلك الإغراءات. والأفعال الأميركية مثال يحتذى في خيرها وشرّها. فإذا حاولنا تنحية القانون جانباً، فإنّنا ندعو الآخرين إلى فعل الشيء نفسه. أي عندما تضلّ اتجاهاتنا الأخلاقية ويصبح أساس قيادتنا مشبوهاً. لطالما اعتقدت أنّ أميركا بلد استثنائي، لكن ذلك يرجع إلى أنّنا روّاد في وضع

المعايير التي تنطبق على الجميع، لا أنّنا استثناء للقاعدة.

اليوم، فيما تستعدّ لتولي الرئاسة، لا يزال بروز القوة الأميركية بين الحقائق الكبرى للحياة في القرن الحادي والعشرين، لكن قدرتنا على استخدام تلك القوة تراجعت. وتلك أيضاً من الوقائع الكبرى للحياة في القرن الحادي والعشرين.

الأسباب معروفة جداً. لقد أحدثنا فوضى في محاربة الإرهاب؛ افتقارنا إلى استراتيجية متسقة، وفشلنا في إقامة ارتباط واضح بين الخطوات التي نتخذها والنتائج المرجوة. لقد سبّب تعزيزنا الديمقراطية القلق حتى بين من يدعون إلى الإصلاحات الديمقراطية في بلدانهم. لأنّنا حين نتحدّث عن الديمقراطية، يفكّر الكثيرون في العراق؛ النموذج الذي لا يرغب أحد فيه. وقد ركّزنا اهتمامنا على الخليج، فافتقرنا إلى السياسات الفعّالة تجاه التحديات الفائقة مثل الطاقة والبيئة. واستجبنا ببطء وتردّد للمشاكل الناشئة في آسيا وأميركا اللاتينية وإفريقيا. كنّا ذات يوم أسياداً في ممارسة الدبلوماسية العالمية، فأصبحنا هواة.

بل يبدو أنّ اللبنات الأساسية للقوة الأميركية تشظّت وبليت. فقد اتسع انتشار عسكريينا حتى بلغ انتشارهم نقطة الإعياء، بما في ذلك الحرس الوطني والقوات الاحتياطية. وتضرّرت قيادتنا الاقتصادية الدولية بالنهج غير المتسق تجاه التجارة وسياسات الموازنات التي حوّلت ذهب الفوائض إلى سجل قياسي في العجز. ووهنت تحالفاتنا في أوروبا والمحيط الهادئ الآسيوي. ويعتقد أنّنا ننافق في ما يتعلّق بالأسلحة النووية وحقوق الإنسان وحكم القانون.

يجب أن تعمل كرئيس على استعادة ما فقد والمضي قدماً من هناك. ويجب أن تبدأ بإدراك أنّ حقّنا في القيادة لم يعد مقبولاً. لقد فقدنا شرعيتنا الأخلاقية. وإذا لم نفهم ذلك، فلن نعرف كيف نصيغ استراتيجية ناجحة. سنكون مثل محامٍ يفترض أنّ هيئة المحلّفين في جيبه بسبب انتصاراته السابقة، في حين أنّها ليست كذلك لأنّ هيئة المحلّفين ترفض أن تعتبر أمراً مسلّما به.

في زمن كنيدي، كانت ذكرى الحرب العالمية الثانية جزءاً من وعي كل بالغ، وكذلك

دور أميركا في إعادة بناء أوروبا الغربية ومساعدة اليابان في أن تصبح ديمقراطية. ونظر إلى إعادة تأهيل قوى المحور على أنها إنجاز لامع. كان لا يزال هناك من ينازع في القيادة الأميركية، لكن كان هناك اعتراف بمؤهّلاتها. فالبلد الذي وقف في وجه هتلر وموسوليني وتوجو اكتسب - على الأقل - سمعة طيّبة من الشعوب في أماكن أخرى.

لم يعد بوسعنا الافتراض أنّ هناك من يقاسمنا فهمنا تاريخنا على نطاق واسع. فالقليلون نسبياً يسمعون كلمة "أميركا" ويفكّرون أولاً في معركة لكزنغتون أو النزول على شاطئ أوماها. بالنسبة إلى من هم دون العشرين - وهم الغالبية في العديد من البلدان - لا تعني المواجهة في الحرب الباردة بين الحرية والشيوعية سوى القليل. وبالنسبة إلى العديد منهم، استُبدل تمثال الحرية في نظرهم بشخصية على رأسها قبعة ذات أقطاب. ومن ناحية التسويق، صار اسم أميركا التجاري بحاجة إلى تجميل.

وسط دوّامة الأحداث في الخمس عشرة سنة الماضية، تشكّل أربعة اتجاهات خطراً واضحاً وراهناً على المصالح الأميركية. أولاً، الإرهاب وتصاعد معاداة أميركا في العالمين العربي والإسلامي؛ ثانياً، تراجع الإجماع الدولي بشأن الانتشار النووي؛ ثالثاً، تنامي الشكوك بشأن قيمة الديمقراطية؛ رابعاً، تجمّع ردّ الفعل المعادي ضدّ العولمة بسبب اتساع الهوّة بين الأغنياء والفقراء.

ثمة خطر محتمل خامس يمكن أن يفاقم المخاطر الأربعة الأخرى. كانت أميركا تردّ تاريخياً على فترات التدخّل الشديد في الخارج بمحاولة الانعزال. وقد حدث ذلك في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وبعد فيتنام، وبعد الحرب الباردة أيضاً. وقد خصّصت كوزيرة للخارجية الكثير من الوقت والجهد في محاولة إقناع الأميركيين بأنّ التاريخ لم ينتهِ عندما انهار جدار برلين. وخلافاً للمفاهيم السائدة حالياً في الخارج، فإنّ الشعب الأميركي يفضّل التركيز على المشكلات في الداخل أكثر من الإلقاء بثقلنا في الشؤون الدولية. وبعد العراق، سيكون الأميركيون متردّدين في ركوب المخاطر. ويجب علينا ذلك، لكن لا ينبغي أن نكون متردّدين جداً فنسمح بنموّ التهديدات الجديدة.

إنّنا في مزاج سيئ. وقد ذكّرنا إعصار كاترينا أنّ مكافحة الفقر والظلم في مجتمعنا

لا تزال غير مكتملة. ونشعر بالقلق من تصدير أعمالنا وتجاوز حدودنا. وهناك أمور كثيرة تجري في العالم لا نفهمها، ويتزايد شعورنا بعدم الميل إلى محاولة فهمها. فقد وجد استطلاع حديث للآراء أنّ 42 بالمئة من الأميركيين يقولون إنّ على الولايات المتحدة "أن تهتمّ بشؤونها في العالم وتدع للآخرين المضي قدماً بأفضل ما يستطيعون". الاهتمام بالشؤون الشخصية فضيلة في أميركا، ولا ينتظر الكثير من الغرباء على أي حال. فلماذا لا نفضّ الاشتباك؟ لماذا لا ندع الآخرين يتولّون القيادة؟

ستكون مسؤوليّتك كرئيس الإجابة عن هذين السؤالين. ومن الضروري أن تعيد صياغة الحجة التي تدعو إلى القيادة الأميركية وتعيد تحديد مضمونها. لسنا في سنة 1808 أو 1908. إذا سمح بأن تصدأ أدوات القوة الأميركية، فستملأ قوى أخرى الفراغ. بعضها سيلحق الضرر، وبعضها الآخر لن يكون أداؤه جيداً. وسيأتي الوقت الذي يتعيّن علينا فيه الاستيقاظ ثانية، وثمة خطر أن يأتي بعد فوات الأوان. ومن الأفضل بكثير أن نبقى يقظين. فلدينا قدرات فريدة، وعلينا استخدامها للأغراض الصحيحة.

يجب أن نطمئن لأنّ النظرة إلى الشعب الأميركي مواتية في الواقع أكثر من النظرة إلى سياساتنا، ولأنّ العديد من الأشخاص الغاضبين من بعض ما نفعله يريدوننا مع ذلك أن ننجح على العموم. واستطلاعات الآراء نفسها التي تظهر تراجعاً في شعبيّتنا توحي أيضاً بأنّ العالم غير متلهّف إلى بروز قوة عظمى مناوئة؛ إذ ينظر إلى الطموحات العسكرية الصينية بارتياب؛ ولا يوثق بالقادة الروس؛ والرئيس الإيراني مكروه. ترتفع خيبة الأمل فينا عندما يعتقد أنّنا نتصرّف دون مراعاة لمصالح الآخرين ومخاوفهم: عندما نرفض مثلاً الاستماع إلى نصيحة العرب والأتراك قبل غزو بلد إلى جوارهم؛ أو عندما نعارض معاهدة بشأن تغيّر المناخ أو محكمة جنائية دولية، بدلاً من العمل مع الآخرين على تحسين تلك الترتيبات؛ أو عندما نجعل من سياسة الهجرة كرة قدم سياسية في حين نطلب في الوقت نفسه من المكسيك أن تعطي الأولوية لمكافحة المخدّرات غير المشروعة.

أنت تنصّب للمرّة الأولى مرّة واحدة فقط، فحاول تحقيق أقصى ما يمكن فيها. وعندما تبدأ الخطاب، سيتغيّر صوت أميركا. فالآذان التي صُمّت في كل أنحاء العالم

ستفتح لحظة واحدة على الأقل، وكذلك العقول أيضاً. تأكّد من العبارة المميّزة التي تريدها. فقد كانت تلك العبارة "كل ما تخافونه هو الخوف نفسه" مع فرانكلين د. روزفلت. وكانت مع جون ف. كنيدي "لا تسأل". وكانت مع جورج هـ. دبليو بوش شيئاً مثل "النسيم العليل". وتحدّث كلينتون عن التغيير ("نحن نفرض الربيع") وتعهّد رئيسنا الثالث والأربعون - أتذكر؟ - أن "تُظهر أميركا هدفها دون تكبّر".

كن طموحاً، لكن تواضع في كلماتك ما استطعت. فمن عادة المرشّحين الرئاسيين أن يرسموا صورة وردية لما سيكون عليه العالم إذا ما انتخبوا، كما لو أنّ السماء ستفتح بحيث يتدفّق العدل الحقّ. لا تنتظر مثل هذه الهدية. فأنت توشك أن ترث الكثير من المشاكل دون أن تكون لديك سلطة في السماء، فيما لديك القليل منها على الأرض.

الفصل الثاني

أي نوع من الرؤساء؟

كتب تيد سورنسون، "الرئيس يعرف أنّ اسمه سيسم حقبة بأكملها. فسوف تحمّله الكتب الدراسية التي لم تكتب بعد، وأطفال المدارس الذين لم يولدوا بعد، المسؤولية عن كل ما حدث".

ربما يصفك كاتب سيرتك ذات يوم بأنّك تقيّ ووطني وعادل ومعتدل ومنصف ومتواضع وحكيم مثل جورج واشنطن، و"غير هيّاب مثل هنيبعل"، و"تحترم القوانين مثل سقراط". إنّها فكرة تثير البهجة؛ إلى أن يتذكّر المرء أنّ الرومان سحقوا هنيبعل، وأنّ سقراط أجبر على تجرّع سمّ الشوكران.

الرؤساء يتولّون منصبهم وهم يتوقّعون النجاح؛ وكثير منهم لا ينجح بالطريقة المتوقّعة على الأقل. لقد كان هدف أبراهام لنكولن إنقاذ الاتحاد لا إنهاء العبودية. وكان وودرو ويلسون يريد إحياء اقتصاد داخليّ متأخّر، لا صياغة دور دولي جديد للولايات المتحدة. وخاض فرانكلين د. روزفلت حملته ضدّ الكساد وبقي ليهزم الفاشية. الرؤساء يحكم عليهم بالاختبارات التي يفاجئهم بها التاريخ. وعندئذ تبرز شخصياتهم على حقيقتها، في السراء أو الضراء؛ ويتحدّد مكانك في الطيف الممتد بين فرانكلين بيرس وجبل رشمور.

الانتقال الرئاسي يجسّد التغيير بأكثر من معنى. نعم ستبدّل نبرة السياسة الأميركية ومضمونها، لكنك ستشهد أيضاً تغيّراً شخصياً. ففي الحملة الانتخابية كنت تتحدّث باسم حزبك، وتدير جيشاً من المتطوّعين، وتخبر الحشود بما يجعلها تهلّل. أما كرئيس فإنّ عليك أن تتحدّث باسم أمّتنا، وتأمر أقوى جيش في العالم، وتخبرنا بما يجب أن نعرفه.

لا تشكّنّ بأنّ المنصب الذي ضحّيت بالكثير من أجله سيكون صعباً بما يفوق التصوّر. وستبدو قواك أكثر إثارة للإعجاب بالنسبة إلى الآخرين مما تبدو بالنسبة إليك.

وكثير ممن يمتدحونك للحصول على حظوة لديك سيشكون عندما تدير ظهرك من أنّهم لم يحصلوا على المزيد. ونادراً ما ستشعر بأنّك تسيطر على حياتك. سيكون التمحيص شديداً ومتواصلاً؛ ولن يكون أي حوار شخصياً تماماً. ستهرم بسرعة، وتذكّر باستمرار أنّ الهالة لن تمكث طويلاً قبل أن تبدأ بالشعور أنّها أشبه بالأنشوطة.

أما وأنّ الحملة الانتخابية انتهت منذ فترة وجيزة، فستكون متلهّفاً للوفاء بكثير من الوعود التي وعدت بها. لكن العديد من الأفكار التي بدت ذكية أمام الجمهور في أطلنطا أو كليفلند ستبدو أقل ذكاء عندما تعيد التفكير فيها من البيت الأبيض. فالخطاب الجيد لا يترجم إلى سياسة سليمة دائماً.

في أثناء خطب ودّ المقترعين في سنة 1992، تعهّد بيل كلينتون بإنهاء ممارسة إعادة المهاجرين الهايتيين الذين ينتشلون من البحر إلى بلدهم بالقوة. ولقي الوعد شهرة لدى الليبراليين والمدافعين عن اللاجئين، لكنّه كان غير حكيم أيضاً. فعلى الرغم من أنّ إرسال المهاجرين إلى بلدهم يبدو غير إنساني، فإنّه أقلّ إنسانية منح الهايتيين الحافز لمقايضة مدّخرات أعمارهم الزهيدة مقابل مقاعد في مراكب شراعية مزدحمة وغالباً ما تنقلب. أدرك كلينتون عندما أصبح رئيساً منتخباً أنّ احترام تعهّده قد يحفز على خروج ما يصل إلى مئة ألف نسمة من هايتي. فتراجع بحكمة.

عليك أن تفي بوعودك إذا استطعت. وإذا تبيّن أنّها غير عملية، فستلقى صحبة جيدة. عندما خاض وودرو ويلسون في سنة 1916 حملة إعادة ترشيحه، فعل ذلك على أساس شعار "أبقانا خارج الحرب". وفي سنة 1940 وعد فرانكلين روزفلت ألا "يرسل أبناؤكم إلى أي حروب خارجية". وفي سنة 1964، أعلن ليندون جونسون "أنّنا لسنا على وشك إرسال الشبان الأميركيين مسافة 10,000 ميل... ليقوموا بما يجب أن يقوم به الآسيويون بأنفسهم". ثلاث حملات رابحة، وثلاثة التزامات منتهكة؛ قد يبدو قول ذلك استخفافاً، لكنّ المرشّحين الخاسرين لا يمكنهم المحافظة على التزاماتهم البتة.

لقد أدى الرجال الذين كتبوا الدستور عملاً رائعاً، بالنظر إلى غياب توجيه للإناث. فقد كان إنشاء منصب الرئاسة واحداً من إنجازاتهم البعيدة النظر؛ والمثيرة للخلاف. كان

على مؤيدي الزعيم التنفيذي الوحيد الردّ على اعتراضات من رأوا أنّ الرئيس سيكون شديد الشبه بالملك. ربما كانت النتيجة ستتغيّر لو ترأّس المداولات شخص أقل تحفّظاً من جورج واشنطن. فقد كان المؤسّسون واثقين من أنّ الرئيس الأول على الأقل سيكون جديراً بالثقة.

عندما تولّى واشنطن منصبه، أصرّ على أن يعامل رسمياً لكن ليس بطريقة ملكية. استأجر بيوتاً منيفة، واستضاف موائد عشاء فاخرة، وكان يركب عربة فاخرة ذات خدم يرتدون البدلات. غير أنّه لم يكن هناك ركوع أو تقبيل للخاتم في حضوره، أو مطالبة باستخدام لقب "جلالتك" في التحية، أو تاج (أو حتى شعر مستعار مذرور بمسحوق) يعلو الرأس. وبعد فترتين أرسى سابقة بتقاعده في مزرعته، وهو الشخصية السياسية الأبرز الذي يتخلى عن السلطة طوعاً منذ أن عاد سنسيناتوس إلى الحراثة بعد هزيمة أعداء روما القديمة.

لم يترجم اعتدال واشنطن في ما يتعلّق بالنواحي الاحتفالية في منصبه إلى تكتّم بشأن ممارسة السلطة. فقد تولّى بنفسه حقّ الاعتراف بالحكومات الأجنبية، واستقبال السفراء وصرفهم، والتفاوض على المعاهدات، فأسس سيادة الرئيس في إدارة الشؤون الخارجية. وقد رفض طلباً من الكونغرس بأن يطلع على نسخ من المراسلات التي يتلقّاها من الحكومات الأجنبية، وأوضح بجلاء أنّ الرئيس وحده لديه سلطة إلزام الأمة بعمل معيّن. وأعلن النائب الأميركي جون مارشال - الذي أصبح لاحقاً رئيس المحكمة العليا - أنّ الرئيس هو "الأداة الوحيدة للأمة في علاقاتها الخارجية، وممثّلها الوحيد لدى الأمم الأجنبية".

إنّ مثال واشنطن لا يدع أي مجال للشك أنّك ستكون المسؤول كرئيس. والسؤال هو: أي نوع من الرؤساء تريد أن تكون؟

الرئيس المنتخب في القرن الحادي والعشرين لا ينتظر منه أن يحاكي رئيس السلطة التنفيذية عندما كان بلدنا فتياً. فقد كان لدى توماس جفرسون مكتبة تضمّ ستة آلاف كتاب، وكتب أكثر من عشرين ألف رسالة، وكان يعزف على الكمان، وصمّم المونتيتشيلو،

وأسّس جامعة فرجينيا، وجمع نسخته الشخصية من العهد الجديد، وأدخل الكرسي الدوّار إلى أميركا، وزرع تسعة عشر نوعاً من البازيلاء الإنكليزية. وعلى غرار جفرسون، كان جون تايلور يعزف الكمان؛ أما بالنسبة إلى الأنشطة الأخرى، قد كان لديه خمسة عشر ولداً. وكان جيمس غارفليد يكتب اليونانية بيد واللاتينية باليد الأخرى في وقت واحد. من المدهش كيف وجد بعض هؤلاء الرجال الوقت والفرصة ليفعلوا ما فعلوه. فهم خلافاً لنا لم يقضوا بطبيعة الحال أوقات استيقاظهم في استخدام أجهزة توفير الوقت.

ربما من الأفضل البحث عن نموذج بين الرؤساء الحديثين. من المرجّح أن تفكّر أولاً في الرئيسين الأكثر شهرة حالياً: هاري ترومان ورونالد ريغان.

فعندما تقلّد ترومان الرئاسة، عانى في زمنه من مقارنته بفرانكلين روزفلت، سلفه المحبوب. فخلافاً لروزفلت الأرستوقراطي، كان ترومان يفتقر إلى الرشاقة. فقد ارتقى السلم السياسي بمساعدة من المكنة الديمقراطية في ميسوري، وكان يُعتقد أنّه رجل ضئيل غير كفوء لأعباء البيت الأبيض. أذكر أنّ والدي كان مندهشاً من أنّ أميركا بلد حر جداً بحيث إنّ ناقداً موسيقياً يمكنه السخرية من تلاوة ألقتها ابنة ترومان، وعندما هدّد الرئيس بكسر أنف الناقد، ضحك الناس؛ على الرئيس.

يعدّ ترومان بطلاً الآن بالنسبة إلى الديمقراطيين والجمهوريين على السواء، لأنّه يرتبط، عند استرجاع الماضي، بالعصر الذهبي للقيادة الأميركية بعد الحرب. فشخصيته وأسلوبه يحظيان بالإعجاب لإنشائه حلف شمال الأطلسي وإنجازاته الأخرى. كان صريحاً وحاسماً ويتحمّل المسؤولية كاملة. وقد كتب دين أتشيسون عن رئيسه: "إنّ 'لمسة هاري الصغير' التي كانت تحفّزنا على الاستمرار تنبع من معين لا ينضب من الحيوية والروح المعنوية العالية. كان بوسعه أن يبزّنا جميعاً في العمل، وقد فعل، دون حاجة إلى اختصار الأوراق في ورقة واحدة. كان يتحمّل المسؤولية عندما تفشل الأمور... ويعطي الفضل إلى مساعديه عندما تنجح... هذه هي صفات القائد الذي يبني ولاء المجموعة. كان يتوقّع الولاء الذي يقدّمه؛ ويحصل عليه".

كان ترومان متفائلاً جداً بما يمكن أن تحقّقه أميركا، ومع ذلك لم يكن غير واقعي

بشأن الشخصية الإنسانية. فبعد مرور بضعة أسابيع على استسلام هتلر، حذّر أنّ "إزاحة الطغاة ومعسكرات الاعتقال أسهل من قتل الأفكار التي ولّدتها". ومن المثير للاهتمام تصوّر كيف كان الرجل المعروف باسم "أذقهم الجحيم يا هاري" سيتعامل مع القاعدة.

نمت مكانة ترومان مع الوقت، وأصبح رونالد ريغان رمزاً وهو لا يزال رئيساً. وكان من الصعب بالنسبة لبعضهم (وأنا منهم) فهم ذلك. وقد اعترف كاتب سيرة ريغان المفوّض، أدموند موريس، بأنّه لم يستطع تصوّر موضوعه. وكتب هنري كيسنجر:

> كان أداء ريغان مدهشاً، وغير قابل للفهم بالنسبة إلى المراقب الأكاديمي. لم يكن ريغان يعرف التاريخ كثيراً، واستخدم القليل الذي يعرفه لدعم آرائه المسبقة. وقد تعامل مع الإشارات التوراتية إلى المعركة الفاصلة كأنها توقعات عملانية. ولم يكن لكثير من الطرف التاريخية التي كان مولعاً بها أساس من الحقيقة... كانت تفاصيل السياسة الخارجية تُضجر ريغان. لقد استوعب قليلاً من الأفكار الأساسية عن مخاطر الاسترضاء، وشرور الشيوعية، وعظمة بلاده، لكن تحليل القضايا الموضوعية لم يكن من نقاط قوّته.

كان نهج ريغان المبسّط وافتقاره إلى المعرفة يقودان إلى الالتباس باعتباره مديراً للسياسة الخارجية. وفي ثماني سنوات شهد ستة مستشارين للأمن القومي، ووفقاً لوزير خارجيته، "كانت وكالة الاستخبارات المركزية و[مديرها] بيل كايسي مستقلّين مثل خنزير على الثلج، ويمكن أن يكونا واثقين بقدر ما كانا مخطئين". وقاد ريغان أيضاً تدخّلاً عسكرياً كارثياً في لبنان، وفضيحة إيران الكونترا.

مع ذلك كله، أفيد عن أنّ جورج دبليو بوش أبلغ جون ماكين، "لا أريد أن أكون مثل والدي. أريد أن أكون مثل رونالد ريغان". وقد اختار مسح أجرته قناة ديسكوفري ريغان كأعظم شخصية في التاريخ الأميركي، متقدّماً على لنكولن وواشنطن ومارتن لوثر كنغ جونيور.

ربما لم يعرف ريغان كل الحقائق التي يجب أن يستوعبها الرئيس، لكنّه كان يعرف كيف يخاطب الشعب الأميركي. وعندما يواجه بأسئلة الصحفيين المعادية، كان يكرّر

بمودّة موضوعات يعرف أنّها تضرب على الوتر في شارع ماين. كان ريغان يعرف تماماً متى يهزّ كتفيه لا مبالياً، ويضحك ضحكة مكبونة، أو يرفع حاجبه. بعد أن شاهد الأميركيون ليندون جونسون يقاسي بسبب فيتنام، ونيكسون يستقيل بسبب ووترغيت، وكارتر يندب "أزمة الروح" لدى الأمة، فإنّهم استجابوا بشكل جيد لرئيس يتحدّث عن الشمس الساطعة والمدينة المشرقة على الجبل، والبلد "الكبير جداً على الأحلام الصغيرة".

ليس هذا مكان مناقشة ما إذا كان ريغان قد كسب الحرب الباردة أم أنّه مثل الديك الذي زعم بأن الفضل يعود إليه في شروق الشمس، فقد اتفق أنّه كان موجوداً عندما خسرها الاتحاد السوفياتي. وقد كان الممثّل السابق يقارن بشكل مواتٍ بالقادة السوفيات الهرمين، حيث مرض ثلاثة منهم وماتوا وسط عهد ريغان. مع ذلك يستحقّ رئيسنا الأربعون الفضل لتمييزه الأخلاقي الواضح بين الغرب والشرق في وقت كان الآخرون يشوّشون ذلك التميّز، أو يتصالحون مع انقسام أوروبا الدائم. قدّم ريغان دعمه الكامل لحركة التضامن في بولندا، وأنشأ الوقف القومي للديمقراطية؛ وهو أداة لتعزيز المؤسسات الديمقراطية التي تسبّب الصداع للحكام الدكتاتوريين. وكان يعرف أيضاً قوة الكلمات: "سيّد غورباتشيف، دمّر الجدار" كانت جملة صريحة جداً ما كان ليفكّر رئيس آخر في التفوّه بها. إذ يفترض بالقادة الوطنيين أن يكونوا محنّكين؛ وقد عرض ريغان في أحسن أحواله عبقرية الحس السليم.

على الرغم من أنّ المحافظين يجلّونه لإخلاصه لمبدئه، فإنّ ريغان كان سياسياً مرناً أكثر مما يشيع ذكره. كمحازب، عمل جيداً مع أعضاء الكونغرس الديمقراطيين؛ وكمعارض للمساعدة الخارجية، زاد المعونات؛ وكمناوئ عنيد للشيوعية، سعى بعزم لعقد اتفاقات للحدّ من الأسلحة مع السوفيات؛ وكداعم لإسرائيل، تقدّم باقتراح للسلام أدانته الحكومة الإسرائيلية. وعلى غرار معظم الرؤساء، أراد أن ينظر إليه كرجل سلام، بل إنّه كان يبلغ أصدقاءه بأنّه يعتقد أنّ الله سلّمه من رصاصة من حاول اغتياله لهذه الغاية. كان مستشاروه العسكريون يعتقدون أنّ اقتراحه بإنشاء درع صاروخية فوق أميركا -

وهو المعروف بحرب النجوم - ضرباً من الخيال؛ مع ذلك فإنّه يعكس رغبة ريغان في حماية البشر من الإبادة النووية.

مهّد ترومان لنجاح الغرب في الحرب الباردة؛ وكان ريغان حاضراً عندما بلغت ذروتها. والنتائج الحسنة تترجم إلى سمعة طيبة. لقد نصح إمرسون، "تحلَّ بالإصرار ولا تكن مقلّداً". لا بأس في ذلك، لكنّ معرفة الخصائص التي تحلّى بها الرؤساء السابقون أمر قيّم. وقد حدّد الخبير الأميركي الأول في الرئاسة، ريتشارد نوستاد، أنّ البيت الأبيض الحديث يتطلب "سياسيين متمرّسين ذوي خُلُق استثنائي". وذكر من عناصر الخلق السليم استمتاع فرانكلين روزفلت الواضح بالعمل، و"الوعي للذات والثبات" لدى ترومان، وقلّة الادعاء لدى أيزنهاور، وحسّ الفكاهة عند كنيدي. وكان كلينتون يحب الرئاسة أيضاً، ودعا نوستاد إلى العشاء للتحدّث عنها. واستضاف أيضاً نيوت غنغريتش، وهو مثل كلينتون يعرف قصة كل قطعة خشب في أثاث البيت الأبيض. ليس لي أن أحكم ما إذا كان خلقك استثنائياً، لكنّك لن تكون لائقاً للمنصب إذا لم تقدّر التباين بين صغر المبنى وضخامة التاريخ الذي صنع بين جدرانه.

قال جيرالد فورد في مقابلة قبل سنتين من وفاته، "يمكنني أن أفهم نظرية الرغبة في تحرير الشعب". لكنّني "لا أريد أن أفكّر أنّ علينا أن نجوب العالم لنحرّر الشعوب بالقوة ما لم يكن ذلك مرتبطاً بأمننا القومي بشكل مباشر". توضح ملاحظة فورد نقطة أساسية: إنّ نوع الرئيس الذي تسعى لأن تكونه يعكس نوع البلد الذي يجب أن تكون عليه أميركا. هذا هو السؤال الذي فكّر فيه الرؤساء الأميركيون ملياً منذ أكثر من مئتي سنة: ما هو دور جمهوريتنا المحقّ؟ هل على الولايات المتحدة الاكتفاء بأن تكون نموذجاً للآخرين، أم السعي لنشر الحرية؟ هل على رؤسائنا الاسترشاد بالاعتبارات الضيّقة للمصلحة الذاتية القومية أم بحماستنا لتحسين الحياة وحل المشاكل العالمية؟

استخدم المؤرّخون تقليدياً في بحثهم عن وضوح الموضوعات هذه الأسئلة لتصنيف القادة إلى واقعيين ومثاليين، حيث شكّل تيودور روزفلت النموذج للأولين وودرو ويلسون المثال للأخيرين. ترأس روزفلت أميركا فيما كانت تبرز كقوة عالمية، وأرسل الأسطول

الأميركي ليجوب العالم، وابتهج عندما فتحنا الفلبين، وواجه المعارضة المحلية في فتح قناة بنما. كان روزفلت طموحاً من أجل أميركا، ولم يخجل من نسبة الفضل إليه. غير أنّ ويلسون كان لديه طموحات من نوع أرقى. ففي أعقاب انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، أدهش السياسيين الأوروبيين الصلبين بطرح هذه المسألة: "لماذا لم ينجح المسيح حتى الآن في إقناع العالم باتباع تعاليمه في هذه المسائل؟ لأنّه علّم المثال دون استنباط أي وسائل عملية لتحقيقه. ولذلك فإنّني أقترح وسيلة عملية لتنفيذ أهدافه".

كان ويلسون يشير إلى عصبة الأمم، لكنّه كان ذا عقلية مماثلة في كل دبلوماسيته. كان يؤمن بأنّه يجب على أميركا أن تسمو فوق المكائد الأوروبية، وأنّ على كل الحكومات أن تكون شفّافة في تعاملاتها، وأنّ على كل بلد أن يكون ديمقراطياً، وأنّ على العالم الاتفاق على بضع قواعد شاملة لتحقيق السلام الدائم. وقد أعلن ويلسون، "سيأتي يوم، ما لم أكن مخطئاً جداً، تتفق فيه الأمم على أنّ حقوق الإنسانية أعظم من الحقوق السيادية".

إنّ مثل هذه المشاعر، والسياسات التي نشأت عنها، دفعت هنري كيسنجر إلى التذمّر من أنّه "ما من أمة أخرى بنت ادعاءها بالقيادة الدولية على الإيثار". وعلى غرار الآخرين الذين يعتبرون أنفسهم واقعيين، يؤمن كيسنجر بأنّ البلدان تستجيب للمصالح الاستراتيجية أكثر بكثير مما تستجيب للمناشدات السامية. ولن تكون - بالنسبة إليها - الأعمال التي تقدم عليها أميركا باسم الأخلاق أخلاقية البتة ما لم ترتبط بالوقائع السياسية، لأنّها لن تعطي نتائج أخلاقية بخلاف ذلك. ويشير الواقعيون إلى أنّ العالم مكان أقل إمتاعاً مما يدرك الأميركيون؛ الذين نشؤوا في حرية وثراء نسبي. وذلك يجعلنا متردّدين في قبول أنّ القسوة والظلم والمعاناة منتشرة، أو الإقرار بحدود ما يمكن فعله لتصحيح هذه المساوئ. ويخشى الواقعيون من أن نخصّص الكثير من الطاقة في محاولة إنشاء عالم مثالي نهمل فيه تقوية أساس العالم الأفضل الذي نرجوه؛ وذلك الأساس هو المحافظة على قيادة أميركا وقوّتها.

في استشهاد يتكرّر ذكره، قدّم جورج كينان الحجة المؤيّدة لسياسة خارجية واقعية

حتى إلى حدّ البرود:

> لدينا نحو 50 بالمئة من ثروة العالم، ولكن 6.3 بالمئة فقط من سكانه... وفي هذا الوضع لا يمكن إلا أن نكون موضع حسد واستياء. إن مهمتنا الحقيقية في الفترة القادمة هي استنباط نمط من العلاقات التي تسمح لنا بالمحافظة على هذا الموقع غير المتكافئ دون الإضرار بأمننا القومي. ولتحقيق ذلك علينا التخلي عن كل العواطف وأحلام اليقظة، وتركيز انتباهنا على أهدافنا القومية المباشرة في كل مكان.

في العقود الأخيرة من عمر كينان الممتد طيلة قرن، اشتكى بشدة من التدخّلات الأميركية في الخارج. فهو يؤمن بأنّه من الخطأ أن تسعى أميركا إلى نشر قيمها في مجتمعات غير مهيّأة لقبولها. ولعله يتفق مع جيرالد فورد بأنّ على أميركا ألا تحاول "تحرير الشعوب في العالم بالقوة".

وعندما توفي كينان في سنة 2005، عادت الواقعية إلى الرواج. لقد قاد الرئيس بوش بلدنا إلى مستنقع الشرق الأوسط، ورأى العديد من منتقديه أنّ الأخلاقية الويلسونية هي السبب. وفي حين أنّ بوش الأب انتهج سياسة خارجية شديدة البراغماتية، فإنّ ابنه حاجّ بأنّ أميركا تلقت "نداء من وراء النجوم" لتخليص العالم من الشرّ. وفي حين امتنع بوش الكبير عن إرسال جيوشه إلى بغداد في نهاية حرب الخليج الأولى، فإنّ بوش الابن لم يتردّد في فعل ذلك في الثانية. وبالنظر إلى النتائج، استنتج العديدون أنّ أميركا ستكون أفضل حالاً إذا ما استرشد رئيسنا الجديد بالواقعية بدلاً من المثالية.

التاريخ بسيط جداً، والوقائع كما يشيع فهمها، ليست بذلك الوضوح.

كان الرئيس بوش الأب، الواقعي المفترض، هو الذي تصوّر "النظام العالمي الجديد" وفجر "حقبة تستطيع فيها أمم العالم في الشرق والغرب والشمال والجنوب الازدهار والعيش بانسجام". وكان هو أيضاً - خلافاً لنصيحة كينان - من أرسل القوات الأميركية إلى الصومال المبتلى بالمجاعة لأنّه قال، "إنّ عدم الاستجابة من الناحية الأخلاقية للكوارث الإنسانية الجماعية... ستجرح روح أمتنا".

تذكّر أيضاً أن قرار بوش الابن بغزو العراق - مع أنّه ألبس لاحقاً لبوس الديمقراطية

المزركش - اعتبر أنّه استخدام للقوة الأميركية العملية من أجل حماية المصالح الأميركية. وكان لدى دعاة الغزو فكرة كلبية عن كيفية استجابة الشعوب، والعرب على وجه الخصوص، لاستخدام القوة. أخبروا أنفسهم أنّ العرب يحترمون القوة، وبأن إظهار "الصدمة والرهبة" سيقنع الجميع في المنطقة بأنّ أميركا مصمّمة على فرض إرادتها. وتوقّعوا أن يتقبّل المتطرّفون العراقيون الهزيمة أو يتواروا، خوفاً من جبروتنا وعزيمتنا، ما يفسح الطريق أمام البنتاغون لإسناد السلطة إلى المنفيين المؤيدين لأميركا. لقد تجاوز بوش في الواقع الإشارات التي يشيع ارتباطها بالمثالية؛ أي احترام القانون الدولي، واحترام الأمم المتحدة، والتعاون مع الحلفاء، وإيلاء الاهتمام لمبادئ الحرب العادلة.

لم يستقرّ فريق بوش على التحوّل الديمقراطي كسبب رئيسي للغزو إلا بعد أن ظهر حمق منطقهم الأصلي. فبما أنّه لم تكن هناك أسلحة دمار شامل ولا ارتباط ذو مغزى بين صدام حسين والقاعدة، صار لا بد من طرح نظرية جديدة لتبرير الحرب. لم يكشف بوش إلا في تشرين الثاني/نوفمبر 2003، أي بعد مرور ثمانية أشهر على الغزو، عن "استراتيجيته المتقدّمة للحرية في الشرق الأوسط". وأتبع هذا الإعلان بسلسلة من المزاعم المتكلّفة عن الديمقراطية باعتبارها ترياقاً للإرهاب. وعلى الرغم من استحضار المثالية الديمقراطية لتفسير سبب وجودنا في العراق، فإنّها لم تقدنا إلى هناك في المقام الأول. فلم تكن القوة المحرّكة السائدة المثالية ولا الواقعية، بل انعدام الكفاءة.

لم أعجب شخصياً بمثال الواقعي مقابل المثالي لأنّني لم أعرف إلى أي فئة أنتمي. ولذلك أنصح طلابي بالتفكير في الأمن القومي كمنطاد يعمل بالهواء الساخن. بدون هيليوم المبادئ، لا يتمّ الرفع؛ وبدون ثقل المصلحة القومية الموازن، لن يعود المنطاد إلى الأرض. وقد مزج أفضل الرؤساء المفهوم الرشيد عن العالم كما هو بالتصوّر الطموح للعالم كما يمكن أن يكون؛ لا طوباوية، وإنّما مكان أكثر معافاة من ناحية الأمن والحرية والعدالة.

كانت والدتي تحرجني بقراءة الطالع في الآثار التي يخلّفها البن في قعر الفنجان. وكانت تقرأ الكفّ أيضاً؛ فتقرّر بنظرة واحدة إلى راحتي بأنّني أفتقر إلى خط العقل

وأنّني سأحمل أبناء (لدي ثلاث بنات). إذا كنت سأحاول تمييز الأكاذيب التي تقع أمامك، فسأبدأ بحفنة الأوراق التي ورثتها من السيد بوش، مع علمي بأنّها الأوراق التي عليك انتقاؤها واللعب بها. وفيما تنظر في خطواتك الأولى، قد أساعدك بطرح سؤال، "ما الذي يمكن أن يفعله ترومان في موقف مماثل؟" أو "ما الذي يمكن أن يفعله ريغان؟". غير أنّ قيمة النماذج من الماضي مثل تفل القهوة؛ أي تتوقف على ما تقرؤه فيها. وسيعود إليك أمر إيجاد الائتلاف الصحيح بين الواقعية والمثالية لتسترشد به سياساتك، والبحث في داخلك عن المواد الخام لقيادتك. قد يكون عملاً موحشاً، إذ إنّ عليك وحدك أن تتخذ الأحكام النهائية. غير أنّ عزاءك هو أن تعرف أنّك فيما تقلّب الرأي وتبحث عن الإجابات، ستحظى بمساعدة فريق واسع وموهوب.

الفصل الثالث
موظفوك يقدّمون العزاء لك

أشار ماكيافيلي "بأنّ اختيار وزراء الأمير ليس أمراً قليل الأهمية... فالانطباع الأول الذي يأخذه المرء عن الحاكم وعقله يتكوّن عند رؤية الرجال الذين يحيطون به".

لكن نظراً للتحيّز والعادة، كان مستشارو الأمير الإيطالي محدودين بجنس واحد على العموم، أما أنت فلا. غير أنّ الاختيار بعناية لا يزال صحيحاً. ربما لا يضمن الأشخاص الذين تختارهم للعمل في إدارتك رئاسة خالية من المشاكل، لكنّهم يمكن أن ينتجوا رئاسة متنافرة ومخيّبة للآمال.

تعدّ كل حملة رئاسية خطة انتقالية في حال نجحت. الوثيقة التي أعدّت للرئيس المنتخب دوكاكيس، على سبيل المثال، تحثّ على "إيلاء الأولوية فور الانتخابات إلى تعيين كبار الموظفين في الحملة". ويجب النظر في النصيحة التي ستتلقّاها حتماً من العاملين في حملتك بارتياب، وخاصة في مجال الأمن القومي. فمهارات الحكم مختلفة عن المهارات الانتخابية، والولاء على ضرورته لا يضمن الموهبة، والأصدقاء الجيدون لا يصلحون بالضرورة كوزراء جيّدين.

ليس من المفاجئ أن يكون النهج الصحيح ذلك الذي اتبعه لنكولن. فعندما أصبح رئيساً منتخباً، حُذّر من تعيين سالمون تشيس في حكومته لأنّه "يعتقد أنّه أكبر منك بكثير". فردّ لنكولن، "هل تعرفون رجالاً آخرين يعتقدون أنّهم أكبر مني؟... أريد أن أعيّنهم جميعاً في الحكومة".

لا حاجة بك إلى اتخاذ لنكولن أسوة في جمع "فريق من المتنافسين"، وذلك المصطلح الذي استخدمته دوريس غوودين لوصف حكومة تضمّ كبار منافسي الرئيس في الحزب. ربما تؤدي مجموعة من النجوم السياسيين إلى كثير من الإثارة دون بذل ما يكفي من الجهد، لكنّك بحاجة إلى أشخاص "كبار"؛ إلى أشخاص آمنين شخصياً وأذكياء وقادرين على التفاهم معاً. المفكّر اللامع الذي يرفض أي فكرة لا تصدر عنه قد يسبّب

الفوضى أكثر مما يكون مسعفاً؛ ولن يكون الشخص الجذاب الذي ليس لديه أفكار مبتكرة. أنت بحاجة إلى أعضاء في الفريق وقادة فرق في الوقت نفسه؛ أشخاص لديهم الثقة الكافية لكي يتوقّعوا أنّهم سيكونون مصيبين في معظم القضايا، ومتواضعون ليدركوا أنّهم جانبوا الصواب في الوقت المناسب. إنّ إيجاد المزيج المثالي من الشخصيات يتطلّب تخميناً ذكياً يُستكمل بالحظّ. ويمكن مقارنة العملية بتجميع أحجية صور مقطّعة تضمّ قطعاً أكثر مما تحتاج إليه، وبدون صورة على العلبة لإرشادك، فيما يحدّق نصف العالم من فوق كتفك ويهمسون باقتراحاتهم.

اعلم أنّك عندما تتولّى المنصب فإنّك ستحتاج إلى مشورة ثاقبة الرأي ومتنوّعة في آن واحد. فصنع السياسة سيكون عقيماً إذا كان من تعيّنهم لديهم كثير من الأمور المشتركة، أو إذا كان أحد المستشارين شديد السيطرة بحيث لا يمكن سماع الأصوات المخالفة. الخطر المقابل هو أنّك ستتبع التنوّع الإيديولوجي بشره، ما يدعو إلى نزاعات لا داعي لها بين الهيئات. وهذه الاختلافات ليست المشكلة المحتملة الوحيدة بأي حال من الأحوال. ففي واشنطن على الخصوص - وثق بي في هذا الأمر - يمكن أن يتفق شخصان على كل قضية جوهرية، ومع ذلك يتقاتلان مثل العقارب لأنّهما مصمّمان جداً على شغل الحيّز نفسه.

إنّ انتقاء الحكومة مبهج لكنّه مثير للغضب أيضاً. فمن المستحيل أن تتجنّب جرح المشاعر عندما تختار ذاتاً كبيرة دون الأخرى. وكما أوضح الرئيس تافت، "كلما عيّنت أحداً، أوجِد تسعة أعداء ومتودّداً واحداً". في البداية، يجب أن تعهد إلى شخص تثق به تماماً بوظيفة استنطاق المرشّحين المحتملين عن أموالهم، وعاداتهم في الشرب، وأقاربهم المصابين باختلال وظيفي، وسجلاتهم الطبية، وأنشطتهم في غرف الدردشة، ومآثرهم الاجتماعية الجامعية، والوضعية القانونية والضريبية لمربيات أطفالهم. وسينتظر المرشّحون الذين ينجون من هذه المحنة في صفوف لإجراء مقابلات في أي وقت. ربما لا تحتاج إلى طرح أسئلة فاحصة عن كيفية استجابتهم في ظروف معيّنة، تبعاً لمقدار معرفتك بهم. وهدفك هو النظر خلف القناع الذي يرتديه الشخص الموجود أمامك لتعرف

كيف سيكون أداؤه تحت الضغط.

ستتوصّل حتماً إلى بعض الاختيارات غير الناجحة، لأسباب تتعلّق بالكيمياء أو المقدرة. أصلحها بسرعة. لقد كان لس أسبن، وزير دفاع بيل كلينتون الأول، شخصاً ذا ذكاء فريد لكنه يفتقر إلى المهارات التنظيمية المطلوبة لإدارة بيروقراطية البنتاغون؛ ولم يعدّه عمله في الكونغرس للتعامل مع الصراعات الكثيرة التي تشمل أشخاصاً وبرامج. فطُلب منه التنحّي بعد سنة، وحلّ محله ويليام بيري، وهو مفكّر خطي متواضع جداً أدى عمله على أفضل ما يستطيع. ووفقاً للشائعات التي سرت في وقت مبكّر من فترة جورج دبليو بوش الأولى، كان يعتقد أنّ دونالد رامسفيلد سيترك الوزارة أو يُطرد منها؛ وتبخّر التأمّل في ذلك بعد 11/9. وللمرء أن يتساءل عن اختلاف العالم لو استبدل رامسفيلد باكراً في سنة 2002 بدلاً من أواخر 2006.

العضو الكبير في الحكومة - وزيرة الخارجية - تمثّل أميركا أمام العالم. ووزارتها هي السير الذي ينقل الرسائل الحكومية الدولية إلى الولايات المتحدة ومنها. وهذا المفهوم غير مألوف نظراً لظهور العديد من القنوات البديلة للاتصالات. غير أنّ التقادم المزعوم ليس السبب الوحيد الذي جعل الوزارة كيساً للملاكمة. فقد نما الاعتقاد بأنّ دبلوماسيينا مفرطو الحذر، وغير متشدّدين جداً، وميّالون إلى مرض - أو وفقاً لرأي بعضهم إلى جريمة - محاولة التفكير في بعض القضايا من وجهة نظر أجنبية.

كان شعور فرانكلين روزفلت، وفقاً لأحد كتّاب السير أنّ "كثيراً من العاملين الكبار في وزارة الخارجية قضوا أوقاتاً طويلة في الخارج... بحيث فقدوا إحساسهم ببلدهم، ولم يكونوا ممثّلين حقيقيين للشعب الأميركي ولا لأهداف إدارته". وقد سمّى جيمي كارتر وزارة الخارجية "ببيروقراطية واشنطن والعالم المنتشرة" التي "نادراً ما يتلقّى أفكاراً مبتكرة منها". واستبعدها هنري كيسنجر كمكان معزول عن التغيير والأفكار الجديدة، فموظّفوها غير قادرين على التفكير المفهومي، وعملهم الأساسي هو "الردّ على البرقيات". وأشار إليها نيوت غنغريتس بانتقاد شديد بأنّها "مؤسسة مكسورة تسترضي الطغاة وتحاول أن تلاطف الأنظمة الفاسدة".

لقد سمعت مثل هذا الانتقاد كثيراً من قبل بحيث صرت أفكّر في "تدنّي المعنويات في وزارة الخارجية" كما لو أنّها كلمة طويلة متصلة بشرطات. غير أنّ المبالغة اللفظية غير مبرّرة. القادة السياسيون يكبرون بالتصفيق المحلي ويتطلّعون دائماً إلى إحداث المزيد. وعلى وزارة الخارجية أن تعمل بمثابة كورديليا الملك لير الرئيس، وتقول الحقيقة عندما يداهن الآخرون. فعليها أن تبلغ رئيس السلطة التنفيذية بنزاهة ودقة كيف سيستجيب العالم إلى ما يقترح عمله. وفي بعض الحالات قد يكون ذلك الرد موضع ترحاب، لكن ثمة احتمالات أقل إثارة للسرور، بما في ذلك سوء الفهم والمفاجأة والغضب والانتقام الدبلوماسي وحتى الهجمات العنيفة على سفاراتنا. إنّ تقديم تقييم صريح للمواقف الأجنبية، لا سيما عندما تكون مخيّبة للآمال على الأرجح، يمكن أن يحول دون الإحراج ويدرأ الكارثة؛ شريطة أن يستمع الرئيس.

في سنة 1961، حذّر نائب وزير الخارجية جورج بول من أنّنا في فيتنام "متجهون إلى جحيم مائل إلى الفوضى... إما أن يكون الجميع مجنوناً وإما أنا". وفي أثناء أزمة الصواريخ الكوبية، تمسّك بول بالحل الدبلوماسي، في حين أراد رؤساء الأركان المشتركة الغزو. وفي سنة 1980، وقف وزير الخارجية سايروس فانس وحده بين كبار المسؤولين معارضاً محاولة إنقاذ الرهائن المشؤومة في إيران. وفي قضايا تتفاوت بين الحدّ من الأسلحة إلى أميركا اللاتينية قدّم جورج شولتز الثقل الموازن الضروري للإيديولوجيين في البيت الأبيض في عهد ريغان. وفي أثناء تسلّمي وزارة الخارجية، قادت الوزارة القتال داخل البيروقراطية لمواجهة سلوبودان ميلوسوفيتش ووقف التطهير العرقي في البلقان. وحديثاً صاغت الوزارة خطة ما بعد غزو العراق التي توقّعت كل المشاكل التي نشأت منذ ذلك الوقت؛ ليرفضها البيت الأبيض ووزارة الدفاع.

على وزيرة الخارجية أن تقوم بأكثر من فهم السياسة الخارجية. عليها أن تعرف كيف تتلاءم القضايا الداخلية والخارجية معاً، وكيف تجتذب الحلفاء، وتخفّف من حدة الخصوم في الكونغرس، وكيف تتصل بالرأي العام، وكيف تدافع عن نفوذها ضمن البيروقراطية. ربما تشعر في بعض الأحيان أنّه ما من عدو خارجي يشكّل عقبة أمام أدائها عملها

أكبر من مكتب الإدارة والموازنة في البيت الأبيض نفسه. لقد صار الرئيس كلينتون يتوقّع مكالمتي السنوية ليلة الميلاد أو نحو ذلك، ملتمسة مزيداً من المال في موازنة السنة التالية. وكما أبلغت الرئيس، فإنّ وزارة الخارجية مسؤولة عن مبادرات تحدّد 50 بالمئة من التاريخ الذي سيكتب عن حقبتنا، لكن ليس في متناول يدنا سوى أقل من 1 بالمئة من الموازنة الفيدرالية.

قال ريتشارد نيكسون في أثناء الحملة الرئاسية 1968 إنّه "ما من وزير للخارجية مهم حقاً؛ فالرئيس هو الذي يصنع السياسة الخارجية". النصف الثاني من الجملة صحيح، أما الأول فهراء. فما من رئيس لديه الوقت ليفعل أكثر من رسم الخطوط العريضة للسياسة؛ باستثناء بعض القضايا. فإذا كانت وزيرة الخارجية ضعيفة، أو غير ماهرة، أو مهملة، فستعاني السياسة. بل إنّ أكثر الرؤساء ثقة ونزوعاً إلى الدولية يريد شريكاً قادراً في وزارة الخارجية.

أنشئ مجلس الأمن القومي في أعقاب الحرب العالمية الثانية لمساعدة البيروقراطية المهنية في كبح الرؤساء الأقوياء؛ ومن المفارقة أنّ الرؤساء الأقوياء وجدوا طرقاً منذ ذلك الوقت لاستخدام موظفي مجلس الأمن القومي لتجاوز البيروقراطية المهنية. والغاية الرسمية لمجلس الأمن القومي هي العمل بمثابة "هيئة استشارية وصياغة السياسات. وهو مكون من كبار المسؤولين في الحكومة لمساعدة الرئيس في صنع السياسات العامة في المجالين السياسي والعسكري وتنسيقها". وبالممارسة تحوّل المجلس إلى إمبراطورية صغيرة تتداخل مهامها مع مهام الهيئات التي صمّمت للتنسيق فيما بينها؛ وتحل محلها أحياناً.

عندما كان هاري ترومان رئيساً، كان وزير الخارجية أو نائب الرئيس يرأس معظم اجتماعات مجلس الأمن القومي. سعى أيزنهاور الذي وصل إلى البيت الأبيض في سنة 1953 إلى محاكاة الجيش بإنشاء مكافئ لرئيس هيئة أركان دولية، أسمي مستشار الأمن القومي. وقع اختيار أيزنهاور على روبرت كاتلر، وهو عميد متقاعد من ماساتشوستس. وقد تفاوت خلفاء كاتلر في القامة والأسلوب من الدكتور هنري كيسنجر

الاستعراضي، إلى شاغل المنصب الحالي الصقر والقارئ النهم ستيفن هادلي، الذي شغل مناصب سياسية في ظل كل رئيس جمهوري منذ نيكسون. وقد اختير معظم مستشاري الأمن القومي من الأكاديميين (كيسنجر، وزبيغنيو بريجنسكي، وطوني ليك، وكوندوليزا رايس) أو من العسكريين (من بينهم كولن باول، وبرنت سكوكروفت). وكان ساندي بيرغر محامياً، وهو من أفضلهم.

عند اختيارك شخصاً لمثل هذا الدور، يجب أن تكون واثقاً من أنّ مزاجيكما متوافقان، لأنّ هذا الشخص ستراه عدة مرات في اليوم في المتوسط. ويجب أن يكون قادراً على إيجاز القضايا المعقّدة بإقناع، والعمل كوسيط نزيه، والكتابة بأسلوب يتماشى معك. يجب أن يكون واثقاً بالقدر الذي يكفي ليستمع إلى أفكار الآخرين دون أن يشعر بالتهديد، وراغباً في ضرب الرؤوس معاً عند الضرورة. وعليه أن يكون قادراً على الامتياز تحت الضغط عشرين ساعة في اليوم، وأن يكون متوافراً عند الحاجة في الأربع الأخرى.

تغيّر هيكل مجلس الأمن القومي ووظيفته مع كل رئيس. فاستخدمه أيزنهاور كما يفعل الجنرال، لتحليل المشاكل وإعداد الخيارات. وكان كنيدي أقل رسمية ويفضّل الاجتماعات الصغيرة، وكان يشرك الآخرين في العملية بانتظام، لا سيما إبان أزمة الصواريخ الكوبية، عندما كان الحاضرون حول الطاولة يضمون شقيقه روبرت، المدعي العام، ومسؤولي الحكومة السابقين من كلا الحزبين.

أما ليندون جونسون الذي كان أقل من كنيدي ميلاً إلى الرسمية، فقد دفن مجلس الأمن القومي في الجوهر. ثم جاء ريتشارد نيكسون ورفعه. ونظراً لرغبة نيكسون في سيطرة البيت الأبيض على كل نواحي السياسة الخارجية، فإنّ كيسنجر لم يكن ينسّق بين هيئات الأمن القومي فحسب، بل كان يأمرها. فقد استعار من الوزارات، واستخدم الباحثين الشبان اللامعين ليوسّع موظفي مجلس الأمن القومي بمقدار 600 بالمئة. كان عبقرياً في السياسة بين الهيئات، فاستغلّ عدم استساغة نيكسون الاجتماعات الموسّعة، وميله إلى المكائد، وخوفه من أن يعتريه الضعف. وهكذا فإنّ كيسنجر، لا وزير الخارجية روجرز، هو الذي كان يتفاوض سراً مع الفيتناميين الشماليين، وتوصّل إلى اتفاق

تاريخي للحدّ من الأسلحة مع الاتحاد السوفياتي، ورتّب زيارة نيكسون إلى الصين، وعمل بمثابة الناطق الرئيسي للسياسة الخارجية في الإدارة. وبلغ تقزيم وزارة الخارجية ذروته في فترة نيكسون الثانية المختصرة، عندما شغل الدبلوماسي ذو الحضور القوي منصبي مستشار الأمن القومي ووزير الخارجية.

لقد رفع كيسنجر موقع مجلس الأمن القومي، لكنّه سمّمه في الوقت نفسه. فقد سعى خلفاؤه جاهدين إلى طمأنة زملائهم بأنّهم لن يحاولوا تكرار كيسنجر، لكن لم يستطع بعضهم مقاومة المحاولة. ومن أكثر الأمثلة إحراجاً باد ماكفارلين وجون بويندكستر في إدارة ريغان، اللذان سعيا سراً للاتفاق مع إيران على تحرير الرهائن الأميركيين الذين يحتجزهم الخاطفون في الشرق الأوسط. وبإجراء ترتيبات شحن الأسلحة إلى الإيرانيين، انتهك مجلس الأمن القومي القوانين، وأبطل تعهّد الرئيس بألاّ يتفاوض مع الإرهابيين. وقد كتب جورج شولتز، "لطالما ترك باد لي الانطباع أنّه يريد كمستشار للأمن القومي أن يكون مثل هنري كيسنجر، أن يقوم بأعمال كبيرة ومثيرة سراً. وكما حقّق هنري الانفتاح على الصين، كذلك كان لدى باد فكرة الانفتاح على إيران".

كانت فضيحة الأسلحة مقابل الرهائن مثيرة للسخرية بالنظر إلى أنّ ريغان تولى المنصب عازماً على خفض منزلة مجلس الأمن القومي. وقد سعت إدارته الحريصة على الموازنة إلى "نزع أنياب" المجلس بإلغاء وظائف المسؤولين عن العلاقات مع الكونغرس والصحافيين. في ذلك الوقت كنت "ناباً" أدير الشؤون التشريعية في مجلس الأمن القومي في عهد جيمي كارتر الذي كان يديره بريجنسكي من مكتب كبير في الجناح الغربي من البيت الأبيض. وكان علي أن أقوم شخصياً بمرافقة أول مستشار للأمن القومي في عهد ريغان، ريتشارد ألن، عبر الممرات الضيقة والأشياء المبعثرة إلى المكتب الصغير في الطبقة السفلية الذي خصّصه له فريق ريغان. فتجهّم وجه ألن. لكن خلال بضع سنوات، تملّص خلفاؤه الطموحون ونافدو الصبر من نية ريغان الأصلية، وأفلت مجلس الأمن القومي من عقاله.

احتفظ مجلس الأمن القومي بصورة طيفية لأنّ التقارير المفصّلة لمداولات السياسة

الخارجية لا يحتفظ بها دائماً. وعندما كنت أجري الأبحاث لمذكّرتي، ذهلت إذ على الرغم من احتفاظنا بنسخ حرفية عن محادثات الرئيس الهاتفية مع القادة الأجانب، وخلاصات دقيقة لمعظم لقاءاته مع الشخصيات الأجنبية، فإنّنا لا نحتفظ بسجل مماثل للجدالات التي يصيغ من خلالها كبار مستشاري الرئيس توصياتهم. إنّ محاضر اجتماعات نادي روتاري متوسّط تبلغك قدر ما تقوله السجلات الرسمية لمجلس الأمن القومي. والنتيجة أنّ المؤرّخين يعرفون عن مداولاتنا الخارجية أكثر بكثير مما يعرفون عن مداولاتنا الداخلية.

عند إعداد هذه المذكّرة، وجدت في طبقة منزلي السفلية تقييماً بخط اليد لمجلس الأمن القومي صاغه زميل في عداد موظفي بريجنسكي، روبرت غيتس، وهو حالياً وزير دفاعنا. على الرغم من أنّ تحليل غيتس أعدّ قبل ثلاثين عاماً (وهو غير سري في حال تساءلت ماذا أخزن أيضاً في طبقتي السفلية) فإنّه لا يزال صائباً. فقد رأى أنّ مجلس الأمن القومي يعكس في العادة السياسة الخارجية ولا يصنعها، وأنّ دوره يتوقّف على العلاقات بين مستشاري الرئيس، لا سيما على شخصية الرئيس نفسه. هل يوجد لدى الرئيس حس واضح بالتنظيم؟ هل يحبّذ الشكليات أم رفع الشكليات؟ هل يريد وزراء أقوياء؟ ما مقدار اتساع بحثه عن النصيحة؟ كيف يشعر إزاء انقسام النصح؟ لا تزال هذه الأسئلة صحيحة، وعليك كرئيس منتخب أن تفكّر في الإجابة عنها.

المسؤول الثالث في قمة هرم الأمن القومي هو وزير الدفاع، أحد أصعب المناصب في واشنطن. فعلى وزير الدفاع أن يجد الوقت لتقديم المشورة إلى الرئيس فيما يدير بيروقراطية البنتاغون، وهي هائلة الحجم بحيث يمكنها ابتلاع وزارة الخارجية دون عناء. وكل وزير للدفاع يتولى منصبه عازماً على تحديث القوات المسلّحة، وتحديث التخطيط للحرب، وإزالة العمالة الزائدة، ولجم المنافسة بين الأجهزة. غير أنّ من الصعب إنجاز هذه المهام لأنّ ذلك أشبه بتحويل الفيل إلى راقصة باليه.

نظراً لأنّ الإدارة تشكّل جانباً كبيراً من هذا العمل، فإنّ كثيراً من وزراء الدفاع لديهم خبرات في إدارة الشركات، لكنّ المؤهّل الذي لا غنى عنه هو القدرة على إقناع المسؤولين العسكريين الكبار بالوثوق بالقرارات التي يتخذها القادة المدنيون ومساندتها. وقد يكون

ذلك معقّداً لأنّ للعسكريين وجهات نظرهم في صنع السياسة. وقد انحصر دور العسكريين تقليدياً في إبلاغ الرئيس ما يستطيعون القيام به وما لا يستطيعون، في حين يتركون للمدنيين امتياز اتخاذ القرار في ما يجب عمله. لكن ثمة استثناءات دائماً؛ من رفض ماكليلان قتال الجنوبيين في الحرب الأهلية، إلى رغبة ماك آرثر في الهجوم على الصين في الحرب الكورية. اليوم يتوقّف الكثير على الأساليب الشخصية للقادة العسكريين الكبار. فبعضهم يميل إلى تقديم التحية والاحتفاظ بشكوكهم لأنفسهم؛ ويصرّ آخرون - حتى على حساب إلحاق الضرر بمسيرتهم المهنية - على وجوب أن يعي المدنيون مخاوف العسكريين تماماً. وعليك كرئيس أن تشجّع أعضاء هيئة رؤساء الأركان المشتركة على التحدّث بحرية، دون عقوبة على الآراء التي لا تلقى الترحاب بها. فأنت لا تريد أن تتعلّم بعد حدوث الواقعة أنّ "حاضر يا سيدي" تعني في الواقع، "لا بدّ أنّك فقدت عقلك".

يمكن للوهلة الأولى أن يتوقّع المرء أن يصطدم وزير الدفاع بالعسكريين بشأن استخدام القوة أو لا. وذلك يحدث بالفعل، لكن ليس بالطريقة المتوقّعة دائماً. فعندما كنت سفيرة في الأمم المتحدة، كنت ذات يوم واقفة خارج البيت الأبيض مع الجنرال جون شاليكاشفيلي، رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة، بزيه الكامل. اقترب زميل وعلّق قائلاً، "لا بدّ أنّ ذلك حرب وسلام". فردّ شاليكاشفيلي، "نعم، لكن من مع ماذا"؟ كنّا قد غادرنا لتوّنا اجتماعاً حثثت خلاله على تعبئة حلف شمال الأطلسي لإنهاء الحرب الأهلية في البوسنة، وهو مسار قاومه البنتاغون الذي كان قلقاً من المكان الذي يمكن أن يقودنا إليه التدخّل.

والحقيقة أنّ وزارة الخارجية كانت في الغالب أسرع من وزارة الدفاع في اقتراح استخدام القوة. كانت الحال كذلك في سنوات ريغان، وفي عهد كلينتون أيضاً، وأتوقّع أن يكون الأمر كذلك في المستقبل، متى وضع بلدنا العراق خلفه. عندما يخطئ القادة المدنيون، تدفع قواتنا العسكرية أفدح الأسعار. لذا فإنّ العسكريين يكونون عازمين على تجنّب الزجّ بهم في مستنقعات أو مساعٍ فاشلة. فرجالنا ونساؤنا المسلّحون ليسوا بيادق

في لعبة يضحّى بهم سعياً وراء أهداف رديئة التحديد، وغير قابلة للتحقيق. بالمقابل، فإنّ وزيرة الخارجية تكون مصمّمة على الاستفادة من كل الأصول المتاحة. وعندما تنظر إلى وزارة الدفاع، ترى أقدر مؤسسة في التاريخ على خوض الحروب، وردع العدوان، وبناء السلام، وتدريب القوات، وتعقّب الإرهابيين، ونقل المعدّات، والاستجابة للكوارث. وتريد الاستفادة من مهاراتها.

تذكر في أثناء الحملة أنّك وعدت بضخّ هواء جديد في واشنطن، وتبديد سحب الحزبية، وجمع الأميركيين معاً. هل يعني ذلك أنّ عليك أن تعيّن أعضاء من الحزب المعارض في المناصب العليا في إدارتك؟

بالتأكيد. فمثل هذه الالتفاتات تعلن عن رغبتك في اتباع سياسات يساندها كل الأميركيين. وثمة اعتبارات عملية أيضاً. فقد ساعد الجمهوري بيل كوهين، كوزير للدفاع، إدارة كلينتون في الاتصال بأعضاء مجلس الشيوخ الذين يحتمل أن يثيروا المتاعب. وقد عيّن فرانكلين روزفلت وجون كنيدي وزيرين من الحزب المعارض في وزارة الخزانة لأنّ وول ستريت تنام أفضل وهي تعلم أنّ الجمهوريين يراقبون أموالها. واختار لنكولن ديمقراطياً من تنيسي نائباً للرئيس على أمل تسريع المصالحة مع الجنوب بعد الحرب الأهلية.

الرؤساء مصيبون في النظر في تعيين أعضاء من الحزب الآخر. غير أنّ أعضاء المعارضة لديهم الأسباب للحفاظ على مسافة من الحكم. فمن المرجّح أن يفقد المعيّن من الحزبين ثقة حلفائه القدامى دون أن يكسب بالضرورة ثقة زملائه الجدد. وبفقدان السلطة المستقلّة، يشعر أنّه مثل حلية تستخدم لتزيين المرج الأخضر لغيره. لذا فإنّ المرشّح الأرجح للتعيين ثنائي الحزب شخص ذو أفكار معتدلة ودون طموحات سياسية مستقبلية. ومثل هذا التعيين يعطي مظهر ثنائية الحزب أكثر مما هو عليه في الواقع. أمر مؤسف جداً، لكن هذا هو سبب الانتخابات.

قليلة هي المشاهد الأكثر إمتاعاً لساكني واشنطن من مراقبة الشخصيات المحترمة وهي تؤدي اختبار الحصول على المناصب العليا في البيت الأبيض أو الحكومة. وكما اكتشفت، يبدأ التزاحم في الأيام الأولى للحملة. ولا ينتهي حتى بعدما يسمّى فريق

السياسة الخارجية، لأنّ السؤال يبقى، من سيكون، باستثناء الرئيس، قائد الفريق. يناور المعيّنون المقدامون في الكواليس ويقدّمون تصوّرات لكيفية عمل آلية اتخاذ القرارات المتعلّقة بالأمن القومي. ومن الأمور المتنافس عليها من الذي يترأس الاجتماعات. كان هناك ست لجان في عهد نيكسون، وكان كيسنجر يرأسها جميعاً. فيما كان هناك لجنتان في عهد كارتر، واحدة للسياسات والأخرى للأزمات، وكان يرأس الأولى عضو الحكومة ذو الصلة، فيما يرأس الثانية زبيغنيو بريجنسكي. وبما أنّ بريجنسكي كان يستمتع بتولي القيادة، لم يكن أحد يعرف يقيناً متى تنتهي الأزمة إذا ما فتحت. وقد صاغ ألكسندر هيغ، أول وزير خارجية في عهد ريغان مذكّرة من إحدى وعشرين صفحة يعيّن نفسه فيها "وكيل" السياسة الخارجية الأميركية. وسرعان ما اختفت المذكّرة التي سرّبها البيت الأبيض وكذلك هيغ.

ربما تعتقد أنّ مستشار الأمن القومي ووزيري الدفاع والخارجية - ولكل منهم مصلحة كبيرة في نجاح الإدارة وهم أنفسهم من اختيار الرئيس نفسه - سيجدون طرقاً للعمل معاً بسلاسة. لكن العلاقات بين الثلاثة غالباً ما تكون متوتّرة على حساب الرؤساء الذين يعملون لديهم والبلد. كان كيسنجر يعمل منفرداً إلى أن خلف جيرالد فورد نيكسون، وبعد ذلك صار يتناطح بشكل متكرّر مع وزير الدفاع الشاب، دونالد رامسفيلد. وكان جيمي كارتر يعلم أنّ فانس وبريجنسكي لا يتفقان في الغالب، حيث يسعى الأول إلى التوازن في كل شيء، فيما يفضّل بريجنسكي اتخاذ مواقف حازمة. وكان كارتر يأمل في أن يكون التباين بنّاء. وبدلاً من ذلك، تنافس فانس وبريجنسكي في تعريف كارتر وبدّدا طاقتيهما وأرسلا رسائل مختلطة. وفي النهاية حقّقت رئاسة كارتر الكثير لكنّها لم تنل من الفضل إلا القليل. وفي عهد ريغان، تصارع شولتز علناً مع وزير الدفاع كاسبار واينبيرغر، إلا عندما كانا يتحدان معاً للقتال مع مجلس الأمن القومي.

في حين كنت في الغالب مراقبة مستمتعة بالمنافسة بين فانس وبريجنسكي، فقد علقت وسط التنافس بين بريجنسكي وإدموند موسكي الذي خلف فانس كوزير للخارجية في ربيع 1980. فقد عملت لدى موسكي في مجلس الشيوخ قبل أن يوظفني بريجنسكي

في مجلس الأمن القومي. وكان كلاهما بطلاً بالنسبة إليّ، لكن سرعان ما أدركت أنّهما لا يفهمان أحدهما الآخر.

في أعقاب أحد الاجتماعات المشاكسة سأل موسكي، "لماذا يشعر رئيسك بالحاجة إلى إظهار نفسه أمام الرئيس؟ من ذا الذي يهمّه إذا كان يعرف اسم كل قبيلة في نيجيريا"؟ فأجبت، "إنّه لا يتباهى. إنّه أستاذ، والأساتذة متدرّبون على معرفة الوقائع".

وقد اشتكى بريجنسكي بدوره، "لماذا لا يفعل صديقك موسكي أي شيء في الاجتماعات سوى طرح الأسئلة؟ إنّنا بحاجة إلى معرفة ما الذي يفكّر فيه". فأوضحت "إنّه سيناتور. والشيوخ يطرحون الأسئلة ولا يتخذون مواقف إلاّ إذا اضطروا لذلك، ولا يضطرون إلا عندما يصوّتون". بل إنّ الاثنين كانا يتشاجران حول من منهما بولندي أكثر؛ وقد كسب بريجنسكي هذا الشجار لأنّه ولد في بولندا ويعرف اللغة. أما موسكي فكان والده بولندياً، لكنّه ولد في ماين، والأمر مختلف.

يعمل نظام صنع القرارات المتعلّقة بالأمن القومي على أفضل وجه عندما يقتنع كل من المسؤولين الكبار بأداء العمل المسند إليه، ولا يحاول أداء الأعمال الثلاثة. يجب أن تكون وزيرة الخارجية صانعة السياسية الأساسية للرئيس، والشخص الذي يتولى المسؤولية الكبرى عن شرح المواقف الأميركية على الملأ. وعلى مستشار الأمن القومي أن يدير السياسة الخارجية اليومية؛ ذات الصلة بأنشطة الرئيس، وأن ينسّق آلية العمل بين الهيئات، ويحرص على اتخاذ القرارات اللازمة وتنفيذها. وعلى وزير الدفاع أن يركّز على إدارة وزارته، ويحرص على حصول الرئيس على مشورة العسكر، وتصوّر كيفية الاستفادة القصوى من موارد المؤسسة. ثمة مجال واسع لكي يعمل الثلاثة دون أن يدوس أحدهم على طرف الآخر؛ ومجال أيضاً لاستيعاب سفيرنا إلى الأمم المتحدة والمسؤولين من الوزارات الأخرى الذين قد تكون آراؤهم ضرورية في قضايا معينة. غير أنّ المجال قد يضيق إذا ما دخل وحش البيروقراطية من الباب.

وفقاً لوودرو ويلسون، "الإحراج الرئيسي في بحث منصب [نائب الرئيس] هو أنّ المرء يقول كل ما لديه حوله عندما يشرح مقدار قلّة ما يجب أن يقول". وكتب المقلّد الساخر

فينلي بيتر ديون في أوائل القرن العشرين أنّ منصب نائب الرئيس:

> ليس جريمة بحد ذاته. لا يمكن أن ترسل إلى السجن بسببه، لكنّه نوع من العار... في أثناء الحملة... يتوجه المرشح لمنصب نائب الرئيس إلى كل المناسبات الكنسية ويستيقظ ويظهر في الاجتماعات العامة الكئيبة والمرحة... [وعندما يتولى المنصب] يكون عمله التوجه إلى البيت الأبيض [كل صباح] والاستفسار عن صحة الرئيس. وعندما يقال له إن الرئيس بأفضل حال، يهلّل ثلاثاً ويغادر مثقل القلب.

كثرت النكات في أميركا عن مقدار عجز نائب الرئيس. من كان يظنّ أنّنا في الثمانين سنة الماضية سنسمع نكاتاً عن مقدار تسلّط نائب الرئيس؟

تمتلئ الكتب الحديثة بشكاوى شخصيات إدارة بوش السابقة (مغفلة في الغالب) من أنّ ديك تشيني أتيحت له كثير من الفرص لكي يؤثّر في السياسات، وأنّه استأثر بالكعكة ولم يترك لزملائه سوى الفتات. فنائب الرئيس يمثّل في اجتماعات مجلس الأمن القومي، ويحضر كل اجتماع لكل مجموعة مع الرئيس، وكثيراً ما يتناول الغداء مع السيد بوش على انفراد. ووفقاً للتقليد يمسك نائب الرئيس عن تقديم النصح إلى رئيسه أمام الآخرين، إلا عندما يدعوه الرئيس للإدلاء بدلوه. فذلك يحرّره من الحاجة إلى تبرير آرائه أمام المجموعة. ولم يسبق من قبل أن مارس نائب للرئيس سلطة كبيرة كما فعل ديك تشيني. فقد أنشأ فريقاً خاصاً به من موظفي الأمن القومي يبلغ عددهم خمسة عشر محترفاً - وذلك أكبر من مجلس الأمن القومي للرئيس جون كنيدي - ثم سعى إلى عدم الكشف عن نشاطه أمام الكونغرس على الأساس المضحك بأنّ نائب الرئيس ليس جزءاً من السلطة التنفيذية.

من غير المرجّح أن يتكرّر نموذج تشيني في المستقبل القريب لأنّ الانطباع الذي أحدثه - أنّ نائب الرئيس هو الذي يدير العرض - محقّر لرئيس السلطة التنفيذية. يقدّم آل غور وجورج هـ. دبليو بوش ووالتر مونديل أمثلة أفضل، فكلّهم شاركوا في صنع السياسة بحكمة، وخصّصت لهم مجالات مسؤولية جدية. كان غور فعّالاً على وجه الخصوص كنوع من السفير الفوق العادة إلى بلدان رئيسية مثل روسيا ومصر. فثمة كثير من الأمور التي

تجري في العالم لكي ترغب في أن يتابعها نائبك، بل أن يظهر أنّ لديه ما يلزم ليصبح رئيساً ذات يوم. غير أنّنا سنشعر جميعاً بمزيد من الارتياح إذا انتظر رحيلك قبل أن يتولّى مهام القائد الأعلى.

تتخذ الحكومة الفيدرالية آلاف القرارات كل يوم. وترفع القضايا التي لا تسوّى على مستوى منخفض إلى أعلى. ولا تجد منها سوى الأكثر أهمية مكاناً في جدول أعمال آلية العمل بين الهيئات بمجلس الأمن القومي، وهي مصمّمة لتجنيب الرئيس المسائل الروتينية الكثيرة. ويستجيب رئيس السلطة التنفيذية إلى توصيات الهيئات المشتركة، تبعاً لأهمية القضايا، إما بالتأشير على مربّع على مذكّرة ما، وإما بعقد اجتماع لفريق الأمن القومي. وذلك وقت مناسب للبحث عن سفك الدماء، إذ خلف المذكّرات المهذّبة والمناقشات الأنيسة يوجد أحياناً صراع خبيث لدفع الرئيس في اتجاه أو آخر. وفيما ينظر في المسائل، تشكّل تحالفات غير رسمية وفقاً للهيئات. فقد يتآمر المسؤولون ذوو العقلية المتماثلة في دائرة ما مع مسؤولين آخرين في مكان آخر لإلحاق الهزيمة بموقف الوزير في وزارتهم. ويمكن أن تسرّع مثل هذه التحالفات القرار أو تعوقه، في حين تؤثّر على كيفية تأطير القضايا، ومن يدعى إلى الاجتماعات، وما المعلومات التي تقدّم، ومن تُعاب مواقفه عبر قصص تبثّ في وسائل الإعلام.

يبحث المسؤولون الذين لا تعجبهم فرصهم ضمن النظام عن فرص خارجه. فقد كان شولتز يجد حليفاً أحياناً في نانسي ريغان. وكان المسؤولون لدى كلينتون يلجؤون إلى العديد من "أصدقاء بيل". وقد سعى من يريد التأثير على الرئيس الحالي إلى مساعدة المسيحيين الإنجيليين، لا سيما في مواجهة تحديات مثل الفقر والإيدز.

ثمة مواطن ضعف في النظام حتى عندما يعمل مثلما صمّم. فالرئيس المعزول في الأعلى قد يكون آخر من يعلم لماذا يجب إدخال تغيير على سياسة ما. وقد يكون ردّ فعله عندما يتسلّم توصية ما، "لمَ لم نفعل ذلك قبل أشهر"؟ ثانياً، يمكن أن يعتمد الرئيس السلبي على النظام كثيراً، ما ينتج حكومة بيروقراطية بطيئة جداً في التعامل مع احتياجات اليوم. كما أنّ النظام لا يوفّر ضمانة بأن يعرف الرئيس كل ما يجري داخل

إدارته. ففي فترة كلينتون الأولى، اتخذت قرارات رئيسية بشأن الصومال ورواندا أفقدت التصوّرات عن قيادة الرئيس بريقها، ومع ذلك لم يشارك كلينتون شخصياً في اتخاذ تلك القرارات. فقد اتخذت الخيارات المحورية - اعتُقد في ذلك الوقت أنّها تتماشى مع السياسة المعتمدة - على مستوى دون حكومي. وعندما تسلّمت تعليمات كسفيرة في نيويورك بالتصويت على سحب قوات حفظ السلام من رواندا وسط الإبادة العرقية، وجّهت المكالمة التي أحتجّ فيها على ذلك إلى مدير قسم في مجلس الأمن القومي.

أخيراً، النظام مصمّم لإشراك آراء كل الهيئات ذات الصلة. ولذلك مواطن قوة وضعف على السواء. يمكن أن تكون النقاشات صحيّة، فتضمن تمثيل العديد من المصالح وأن يلقى الإجماع الناتج تأييداً واسعاً. وتنشأ مواطن الضعف عند التوصّل إلى إجماع بتجنّب المسائل الصعبة أو باستخدام العديد من الشروط بحيث تفرغ النتائج من مضمونها. وأعتقد أنّ هذه هي الحال التي كانت سائدة في ردّ إدارة بوش على الإبادة؛ هذه المرة في دارفور. كان الرئيس يريد التحرّك، فعقدت الاجتماعات، وأعلن عن القرارات، ومع ذلك لم يحدث الكثير.

لذا كن على حذر. آلية العمل بين الهيئات توفّر وسيلة للنظر في القضايا بطريقة منهجية وأخذ العديد من الآراء في الحسبان. وهي عون للقيادة؛ لكن يجب عدم خلطها بالقيادة نفسها.

كان الرؤساء ينصّبون في أوائل آذار/مارس حتى سنة 1936، ما يتيح فترة أربعة أشهر بعد انتخابات تشرين الثاني/نوفمبر. ويعطي ذلك الرئيس الجديد الوقت الكافي لامتطاء جواده شمالاً من فيرجينيا أو جنوباً من بوسطن. أما فترتك الانتقالية فستستمرّ خمسة وسبعين يوماً: فكيف تستغلّ هذا الوقت على أفضل وجه؟

إليك فكرة. قبل أن يُنصّب كلينتون، استضاف حلقة دراسية لمدة يومين عن الاقتصاد، ما ساعد في بيان أسلوب رئاسته وإظهار أنّه ذو عقلية منفتحة وعازم على الوفاء بالوعود التي قطعها للأسر العاملة في أثناء حملته الانتخابية. ربما يجدر بك النظر في شيء مماثل عن العلاقة بين الاقتصاد الداخلي ومكافئه العالمي. وكرئيس للسلطة التنفيذية،

سيكون عليك منع العودة إلى الحمائية في زمن ارتفاع الاستياء من الشركات المتعددة الجنسيات والتجارة الحرّة. سئم الناس في الوظائف المعرّضة للخطر من صرف النظر عن مخاوفهم، ومع ذلك فإنّ الوصفات المطروحة لمعالجة استياء العمال غير واقعية أو من المرجّح أن تدعو إلى الانتقام. لن تحل الحلقة الدراسية المعضلة الاقتصادية، لكنّها قد تساعدك في التعامل مع التحدي السياسي، وهو كسب ثقة الشركات وقادة العمال الذين لا يثق بعضهم ببعض والمحافظة عليها. دعهم يغمدون سيوفهم اللفظية ضدّ بعضهم بعضاً، بينما تدفعهم للتقارب جوهرياً.

تذكّر أيضاً أنّ الفترة الانتقالية قد تكون غير حصينة، حيث تذوي السلطة السياسية للرئيس القائم ولا يكون الرئيس القادم قد اكتسب سلطته بموجب القانون. ربما تستفيد - ويطمئن المجتمع - إذا شاركت أنت والأشخاص الذين سمّيتهم في محاكاة للردّ على أزمة ما. وسيكون المسؤولون عن الاستخبارات بالاشتراك مع العسكريين والخبراء الأكاديميين مسرورين ببثّ الرعب في نفسك، في حين تحصل على تدريب مفيد في أثناء الوظيفة. وبعد يوم التنصيب، سنتطلّع إليك للتّوجيه في حال وقوع هجوم إرهابي أو حالة طارئة تتعلّق بالصحة العامة؛ فسيحدث الاضطراب إذا كانت أولى الكلمات التي تتفوّه بها "ماذا نفعل الآن"؟

ثمة اقتراح شخصي: حافظ على لياقتك. خصّص وقتاً للتمرين. فقد كان فرانكلين روزفلت يتابع علاجه الفيزيائي، وترومان يمارس المشي، وأيزنهاور ونيكسون يمارسان الغولف، ونيكسون يحب البولنغ، وكلينتون يمارس الغولف والجري. ولا أنصحك بمثال جون كوينسي آدمز الذي كان يستيقظ في الصباح الباكر ليسبح عارياً في نهر بوتوماك. وذات يوم، نصبت له صحافية شركاً، فجلست على ثيابه وأجبرته على الاختيار بين أن يكشف نفسه أمامها جسدياً أو يكشف نفسه فلسفياً بالإجابة عن الأسئلة والماء يغمره حتى عنقه. فاختار المقابلة.

الفصل الرابع
فنّ الإقناع

تعلّمت في الجامعة أنّ هدف السياسية الخارجية هو إقناع الآخرين بعمل ما نريد، أو الأفضل أن يريدوا ما نريد. وتعلّمت منذ ذلك الوقت أنّ للرئيس عدداً محدوداً من الأدوات التي يستخدمها في محاولة ذلك. بعضها إكراهي، وبعضها يعرض مكافآت، وبعضها الآخر يلتمس المصالح أو القيم المشتركة. ونظراً لأنّ العلاقات بين البلدان معقّدة جداً، فإنّ حكومتنا تستخدم عادة ائتلافاً من هذه الأدوات. وقد قورنت هذه العملية بالشطرنج، لكنّها تشبه البليار أكثر، حيث تضرب كرة كرة أخرى، وقد تضرب كرتين أو ثلاثاً إضافية، ويمكن أن ترتد كل منها عن الوسادة لتضرب كرات أخرى. وكل خطوة تغيّر المشهد الذي تجرى فيه الخطوات الأخرى. واللاعب الذي لديه اليد الأكثر ثباتاً، والمهارة الأفضل في تصوّر أوضاع الكرات اللاحقة هو الذي يكون أداؤه أفضل. التقيّد بالقواعد والمجاملات أمر ينصح به، لكن لديك دائماً خيار - كما في البليار - ضرب الخصم على رأسه بالعصا.

إذا شعرت بالإحباط في البيت الأبيض، فذلك يرجع إلى أنّه ما من أحد يستطيع أن يربح كل مباراة، ولأنّ كل انتصار اليوم تليه في الغد منافسة أخرى لا تقلّ إثارة للإجهاد على أقلّ تقدير. وبالنسبة إلى الرئيس الذي يدير شؤون العالم، الجهد العادي ليس مساراً مضموناً لتحقيق المكافأة. كان ليندون جونسون يحاول أن يصنع يومين من كل يوم بالاستيقاظ باكراً، وأخذ قيلولة قصيرة بعد الظهر، والعمل حتى وقت متأخّر من الليل. بالمقابل، كان ريغان يمزح بالقول، "صحيح أنّ العمل الشاق لا يقتل أحداً، لكن لماذا نجازف"؟

كرئيس، تقوم أولاً بتحديد أهدافك ثم وسائل تحقيقها. تشير السياسة الخارجية 101 إلى أنّ أولى أولويات أميركا حماية أرضنا ومواطنينا ورفاهنا الاقتصادي. وقد أصبحت حماية الأرض أكثر تطلّباً في أعقاب ظهور الصواريخ البالستية العابرة للقارات، والمؤامرة

الإرهابية العابرة للقارات مؤخّراً. كان خبراء الأمن القومي يشيرون إلى "الخريطة الاستراتيجية" للعالم، التي تبيّن مواقع النفط (أو الفحم سابقاً)، والطرق الملاحية الحيوية، والمواقع الملائمة للقواعد العسكرية. لبثت هذه الخريطة عقوداً تلوّن بالأزرق للدلالة على الحلفاء الغربيين، وبالأحمر للدلالة على البلدان التي تدور في الفلك الشيوعي، وبالأصفر الباهت لغير الراغبين في الانضمام إلى أي جانب. لم نعد نرسم خرائط كهذه. ولم تعد مصالحنا الاستراتيجية مقيّدة بالحدود الجغرافية. فأمثال بن لادن والظواهري في الغد ربما يدخلون طور البلوغ الآن في الضواحي المكتظة لمقديشو، أو الشوارع القديمة في بيشاور، أو أسواق مراكش، أو مباني الشقق في لندن، أو الضواحي التي تحفّها الأشجار في نيو جيرسي. في القرن الحادي والعشرين، ما يحدث في أي مكان يمكن أن يهمّ في كل مكان. ربما يبدو ذلك شعاراً، لكنه مع ذلك صحيح.

في أثناء رئاستك، ربما يتطلّب الدفاع عن الأراضي الأميركية القضاء على خلية إرهابية أو تقييد نشاط نووي في أكثر الأماكن بعداً. كما أنّ حماية المواطنين الأميركيين تتطلّب الانتباه الدائم بالنظر إلى أنّ الباحثين ورجال الأعمال والصحافيين والمبشّرين والمتطوّعين الإنسانيين الأميركيين ينشطون دائماً في معظم البلدان، ويتعرّضون في أحيان كثيرة للمضايقة والاعتقال العشوائي. غير أنّ هناك مئات المصالح الأميركية غير المباشرة المتعلّقة بقيمنا (تعزيز الديمقراطية) وعمالنا (رفع مستويات العمل) وصحتنا (حماية البيئة) وازدهارنا (أسعار الطاقة)، وما إلى هناك.

الأولويات لا تنشأ متساوية. فإيران المزوّدة بأسلحة نووية تشكّل تهديداً أشدّ إثارة للقلق من التعدي على حقوق الملكية الفكرية. وظهور قوة عظمى معادية في أوروبا أو آسيا يثير قلقاً أكبر من بروز دكتاتور جديد في الكاريبي أو حدوث نزاع مع شريك تجاري بشأن سلامة الأغذية المطورة وراثياً.

والأولويات تتغيّر أيضاً. فإذا كنت في كاياك وترمي إلى وقت جيد، فإنّ أولوياتك تتغيّر عندما تجد نفسك فجأة متجهاً نحو شلال. وخلال الأربعين سنة الماضية، سيطرت

أماكن غير متوقّعة مثل فيتنام، وكمبوديا، وأفغانستان، والسلفادور، ونيكاراغوا، وبنما، والصومال، وهايتي، ورواندا، والبوسنة، وتيمور الشرقية، والشيشان، والسودان، وبورما على جداول أعمال السياسة الخارجية مدة من الزمن. وكذلك الأمر في سنة 1999، عندما عُثر على ولد كوبي يدعى إليان غونزاليز معلّقاً بأنبوب مطاطي قبالة شاطئ فورت لودريل. فأصغر القضايا أو أبعد الأماكن يمكن أن تقفز إلى الواجهة بسبب سوء السمعة التي تلقاها، أو الدروس المستقاة منها أو الأحداث الكبرى التي تحرّكها.

الأميركيون يحبون تحديد الأعمال وإنهاءها قبل الانتقال إلى الأعمال التالية. لكن يبدو أن العالم لا يعمل هكذا. فالقضايا القديمة التي يبدو أنّها سوّيت لا تبقى على حالها؛ وثمة العديد من المشاكل التي لا يمكن حلها البتة، بل تجب إدارتها بدلاً من ذلك؛ وفي غضون ذلك تبرز تحديات جديدة وسرعان ما تتكدّس.

يعني ذلك أنّك إذا لم تكن تعرف كيف تلعب بالبيضة والحجر، فستتعلّم عمّا قريب. لقد مضت سنتي الأولى كوزيرة للخارجية بشكل جيد نسبياً؛ وفي منتصف السنة الثانية، شعرت أنّني كالبنياتا* في حفلة عيد ميلاد ما. فقد بدت حقبة ما بعد الحرب الباردة كأنّها ستنهار، وهي المستقرة حسبما يفترض. كنا نتعامل في الوقت نفسه مع الأزمة المالية في آسيا، والثورة في إندونيسيا، والاختبارات النووية في الهند وباكستان، وأربع حروب منفصلة في إفريقيا، وانفجار العنف في كوسوفو، وتقارير عن منشأة نووية سرية في كوريا الشمالية، وانسداد أفق مفاوضات السلام في الشرق الأوسط، ومزاعم كاذبة ولكن مروّجة جيداً بأنّني أعوق أعمال التفتيش عن الأسلحة في العراق. وعندما وصل آب/ أغسطس، كنت أتطلّع إلى إجازة لمدة بضعة أيام أتوجّه خلالها إلى إيطاليا لحضور حفل زفاف. فأوقظت على أخبار تعرّض سفارتينا في كينيا وتنزانيا للتفجير. وكرئيس ستحدّد مسارك وتنتقي معاركك لتجد بعد ذلك أنّ بعض المعارك اختارتك.

السياسة الخارجية تبدأ بالدبلوماسية. والكلمة مشتقة من كلمة "دبلوما" اليونانية التي تعني ورقة مطوية تستخدم لأغراض رسمية، أو إجازة. والدبلوماسي شخص مجاز للتفاوض عن بلده. وعلى الرغم من أنّ الدبلوماسية كانت في الأصل ميداناً

للأرستوقراطيين، فإنّها تطوّرت إلى مهنة عندما تحوّلت الأراضي الملكية إلى دول. واكتسبت الدبلوماسية على أيدي أشخاص مثل تاليران وبسمارك ومترنيخ هالة الاتفاقات المعقودة في الكواليس فيما تتآمر البلدان الواحد ضدّ الآخر، وتنشئ الالتزامات أو تخرقها تبعاً لاحتياجات اللحظة.

الدبلوماسية تمارس اليوم بشكل أكثر انفتاحاً. فخلافاً لتاليران ونظرائه، على وزيرة الخارجية في العصر الحديث الإجابة عن الأسئلة عمّا تعتزمه على الملأ وأمام المشرّعين، لكن كما شهدنا مؤخّراً في طوفان الكتب التي تخبر كل شيء، فإنّ أكثر المناقشات سرية قد تنتهي في مذكّرات شخص ما. غير أن وظيفة الدبلوماسي بقيت ثابتة: الحصول على أقصى ميزة بأقل التكاليف.

مقرّ الدبلوماسية الروتينية هو السفارة التي تمثّل المصالح الأميركية وتعمل كمقرّ للعاملين القادمين من أكثر من عشر هيئات. في الأيام الغابرة، كانت سفاراتنا أماكن استقبال، تستضيف احتفالات الرابع من تموز/يوليو التي تحتسى فيها قيم الحرية إلى جانب الجعة وأنواع النقانق. لكن ذلك تغيّر، إذ أجبرت المخاوف الأمنية دبلوماسيينا على التراجع خلف جدران مرتفعة تحرسها الكلاب وأجهزة كشف المعادن والأبواب الفولاذية. وزيارة إحدى سفاراتنا اليوم قد تبدو أشبه برحلة إلى سجن منها إلى موقع متقدّم للحرية. لا يزال السفراء الأميركيون يستضيفون الحفلات، ويبذلون ما بوسعهم لاكتساب الأصدقاء، لكن تجب حمايتهم طوال الوقت. وهم لم يعودوا يركبون سيارات تحمل الأعلام الأميركية الصغيرة في العواصم الأجنبية. وبالنسبة إلى الصغار في نيروبي أو إسلام أباد مثلاً، السفير الأميركي هو الشخص اللطيف الذي يقف إلى جانب أشخاص عريضي الأكتاف، في آذانهم أسلاك، وفي أحزمتهم مسدسات. يا لها من خسارة.

تتكوّن مشاركة الرئيس نفسه في الدبلوماسية من سيل منتظم من المكالمات الهاتفية والاجتماعات على مختلف الأحجام. فقد نظّمت البلدان نفسها على مرّ السنين في عدد مدهش من المجموعات، كل منها تحمل اختصاراً خاصاً. ويمكن أن تتطلّع إلى قمم ثنائية وثلاثية ورباعية وخماسية وسباعية وثمانية، وقمم الاتحاد الأوروبي وحلف شمال

الأطلسي والأمم المتحدة، إلى جانب الأحداث الخاصة. ربما تضنّ في البداية بالوقت المطلوب للاجتماع بالقادة الأجانب، لكن سرعان ما ستجد أنّك تستمتع بصحبة معظمهم. الرؤساء ورؤساء الحكومات يشكّلون نادياً من النخبة، ولديهم الكثير مما تناقشونه معاً بحيث يتجاوز نقاط البحث المحدّدة على البطاقات. بالمقابل، قد تكون الدبلوماسية المتعدّدة الأطراف بليدة وغريبة. يرتّب المساعدون كل حركة قبل أسابيع بحيث لا تشعر بأنّك عملاق يسير على مسرح العالم، بقدر ما تشعر بأنّك جرو يقاد بهذا الاتجاه أو ذاك. في آسيا، سيطلب منك الوقوف أمام المصوّرين وأنت ترتدي قميص باتيك أو بدلة تشبه البيجاما. ولكي تفهم كل ما يقال، عليك أن تعدّل شعرك لكي تضع سماعات الرأس، وذلك عمل أصعب لدى بعضنا مما لدى بعضنا الآخر.

ستتعلّم أيضاً عندما تسافر أنّك كقائد وطني تعيش في كوخ نسبياً. قبل سنوات، أطلعت أميراً عربياً على صور لقصور صدام حسين، فتساءل بحرد، "لماذا، هل قصره أكبر من قصري"؟ العرب ليسوا الوحيدين الذين يعيشون في قصور. الفرنسيون لديهم قصر لرئيسهم، وكذلك البولنديون. والتشيكيون لديهم قلعة، ولدى الفلبينيون بنغالو ملكي كبير إلى حدّ أن يتسع لتخزين كل أحذية السيدة ماركوس. لقد زرت قائد نيجيريا الذي انتهت ولايته منذ وقت غير بعيد، فوجدت منزله فخماً، وتوجد زرافات في حديقته الخلفية.

يمكن أن يخدم البيت الأبيض بتواضعه النسبي كأداة دبلوماسية قيّمة. فمعظم القادة الأجانب يحبّون أن يدعوا إلى زيارة رسمية مع حفل استقبال على مرج البيت الأبيض، وإطلاق إحدى وعشرين طلقة مدفع للتحية، وإقامة مأدبة عشاء، وتناول المشروب على شرفة ترومان، وربما قضاء ليلة في غرفة نوم كوينز في الدور الثاني من مقرّ الإقامة. ويمكنك أن تدعو الزوار إلى الاستمتاع بمحيط كمب ديفيد الحرجي أو قضاء عطلة نهاية الأسبوع في منزلك الصيفي؛ إذا كان لديك واحد. أياً تكن الترتيبات، يمكن استخدام الدعوة إلى عقد قمة في أميركا لتسهيل اتفاق ما أو إتمامه.

عندما تسافر، سيحيط بك حشد من المساعدين الذين يتدافعون بالمناكب لكي يسمح لهم بدخول الاجتماعات. ومن المفارقة أنّ الشخص الوحيد الذي يكون وجوده ضرورياً في

الغرفة قد لا يكون مستشاراً رسمياً وإنما مترجمك. المترجم يلعب دوراً محورياً لأنّ المفاوضات تتطلّب دقة في اللغة، وقدراً من الحرارة الشخصية في الغالب. لذا فإنّ دور المترجم يتجاوز الترجمة الحرفية للكلمات؛ فعليه أن ينقل التشديد المطلوب والفرق الدقيق في المعنى والنبرة. ولا يكون ذلك ممكناً إلا إذا كانت لديه معرفة عميقة بالموضوعات المبحوثة. ونجم المترجمين الأميركيين جمال هلال، وهو مواطن أميركي من أصل مصري، فقد ترجم ببرودة من العربية وإليها كلام آخر ثلاثة رؤساء وسبعة وزراء دفاع وستة وزراء خارجية. وغالباً ما كان هلال الشخص الوحيد في الاجتماعات إلى جانب الرئيس ومحاوره العربي. في جنيف تولى الترجمة عندما سلّم جيمس بيكر نظيره العراقي الإنذار: اتركوا العراق وإلا! وفي إدارة كلينتون، كنا نطلب من هلال أحياناً عقد اجتماع ثنائي مع عرفات. المترجم الشبيه بهلال، الذي لا يعرف اللغة فقط بل السياسة والشخصيات والثقافة في وضع ما أيضاً، قد يكون ميزة فريدة.

في ظروف أخرى، يمكن أن ينقذ المترجم اجتماعاً ما بطريقة مختلفة. عندما كنت في المملكة العربية السعودية كوزيرة للخارجية، كان علي الاجتماع بالملك فهد على سبيل المجاملة، وكان مريضاً جداً وغير قادر على التحدّث كثيراً. تولّى دور المترجم الأمير بندر، السفير السعودي في واشنطن مدة طويلة من الزمن. مضى الاجتماع النموذجي كما يلي: "مساء الخير يا صاحب الجلالة. إنّني أقدّر هذه الفرصة لأنقل إليك أفضل تمنيات الولايات المتحدة". وردّ الملك بالعربية ثم جاءت الترجمة من بندر: "صاحب الجلالة الملك فهد يقول إنّنا مسرورون بالترحيب بالسيدة وزيرة الخارجية في وطننا، ولدينا الثقة بأنّك ستبلغيننا إذا كان هناك أي شيء يمكننا أن نفعله لكي تطيب إقامتك".

إلى جانب الاجتماعات الرسمية، يشارك الرئيس عادة في الدبلوماسية عندما تكون القضايا سهلة أو عسيرة. إذا كانت القضية سهلة، تشارك فيها بغية تسجيل نصر. وإذا كانت عسيرة تشارك فيها لأنّ المفاوضين على مستوى أدنى لم يتمكّنوا من إنجاز العمل. وسيحدث ذلك بشكل متكرّر لأنّ المفاوضين مدرّبون على إخفاء بيت القصيد حتى اللحظة الأخيرة، واللحظة الأخيرة لا تحين إلى أن تصل المسائل إلى مكتبك. وكلما زاد منح

المفاوضين سلطات أوضح بالتحدّث باسمك، قلّت وتيرة اضطرارك إلى التدخّل. يمكنك المساعدة بالتصريح علناً بأنّ المفاوضين لديهم الصلاحيات لاتخاذ مواقف حازمة، وإظهار أنّك لن تكون أقلّ منهم صلابة عند الاختبار. إذا اعتقد أنّك راغب في الوصول إلى تسوية أكثر من المهنيين الذين يمثّلونك، فسيصرّ المفاوضون الأجانب قائلين، "علينا التعامل مع البيت مباشرة"! ربما يبدو هذا المطلب امتداحاً لك، لكنّه ليس مجاملة في الواقع.

قبل أي مساومة، تتفاوض الدبلوماسية الماهرة مع حكومتها أولاً، لتأمين أكبر قدر ممكن من الصلاحيات. وفي الوقت نفسه تجمع المعلومات عن الأطراف الأجنبية التي تنوي التعامل معها وتستوعبها، وتحاول تمييز الخط الفاصل بين ما يطلبونه وما يمكن دفعهم إلى قبوله. عندما تبدأ النقاشات، ستحاول تأكيد سيطرتها بتعريف المصطلحات ورسم الخطوط العريضة للقضايا، واحتمال ثورات الغضب التي يمكن أن تساعد المفاوضين الآخرين في تبرير التسوية. وربما تعتمد أسلوب دبلوماسينا الأول، بنجامين فرانكلين، اللبق الذي كان يحرص على عدم مناقضة أحد وإنما طرح الأسئلة بهدوء وإثارة الشكوك؛ أو ربما تختار أسلوباً أكثر إثارة: الصياح غاضبة والتهديد بدعوة الصحافة وتحديد المسؤول عن الفشل. وفي أي حالة، من المرجّح أن تسعى إلى نتيجة تمكّن كل الأطراف من الادعاء بأنّهم تمسّكوا بمواقفهم الرئيسية.

عند الوصول إلى طريق مسدود، من المفيد في بعض الأحيان تضييق نطاق التفاوض أو توسيعه. ربما ترغب الولايات المتحدة مثلاً في التحدّث إلى حكومة عضو في مجلس الأمن الدولي بشأن موقفها من تصويت مقبل. ربما تطلب تلك الحكومة التحدّث إلينا عن حاجتها إلى مساعدة اقتصادية والمساعدة في تسويق صادراتها. من المرجّح أن ينجح التفاوض الذي يجمع مجموعة واسعة من القضايا إذ يمكن أن يصوّره الطرفان بأنّه متوازن، مع بعض الأخذ والعطاء بين الاثنين.

ربما تصل إلى الرئاسة ومعك قائمة مختصرة من المشاريع الدبلوماسية التي تصمّم على المشاركة فيها شخصياً. وربما تجد نفسك أيضاً غير راضٍ عن طريقة تقدّم بعض

النقاشات. في مثل هذه الحالة ربما ترغب في تعيين مبعوث رئاسي خاص لإظهار اهتمامك وبثّ الروح في المفاوضات الجامدة. العينان الجديدتان قد تحدّدان في بعض الأحيان زوايا جديدة واعدة يمكن متابعتها؛ وقد يكون للمبعوث العالي المستوى نفوذ أكبر لدى الحكومات والأطراف الأجنبية لأنّ الرئيس يستمع إليه. ومن الأمثلة الجيدة تدخّل بيل كلينتون في أيرلندا الشمالية بمساعدة المبعوث الخاص جورج مِتشِل. غير أنّه يمكن الإفراط في استخدام هذه الأداة، ما يضيف طبقة من البيروقراطية دون غرض جيد. إذا كان لدينا مبعوثون خاصون لكل مشكلة غير محلولة، فلن يعودوا خاصين. عندما يكون التحدي كبيراً بالنسبة إلى الدبلوماسية التقليدية، أو إذا كان هناك حاجة إلى دفعة صغيرة فقط لإنجاز عمل مهم، فسيكون لمثل هذا المبعوث مغزى. وفي الحالات الأخرى، يفضّل الاعتماد على الدبلوماسيين المهنيين الذين يستحقون الفرصة ليلمعوا.

التفاوض بالنسبة إلى بعض الأميركيين علامة ملازمة للضعف. القوي حقاً لا يحتاج إلى الكلام، كما يعتقد؛ بل يشدّ عضلاته ويفعل. لكن شدّ العضلات ليس السبيل الأفضل إلى حلّ كل خلاف في الواقع. في أثناء فترة رئاسة بوش الأولى، سئل ديك تشيني عن احتمال التفاوض مع كوريا الشمالية. فردّ بأنّ واجب أميركا هزيمة الشرّ لا التفاوض معه؛ تصريح مقتضب مثير، لكنّه يفتقر إلى المضمون كاستراتيجية للأمن القومي. وفيما كان تشيني يجعجع، بنت كوريا الشمالية سلاحاً نووياً واختبرته. الدرس المستفاد: خُصّص قسم كبير من السنتين الأخيرتين من ولاية الرئيس بوش للمفاوضات مع كوريا الشمالية؛ ويبدو أنّها مفاوضات مثمرة.

الدبلوماسية لا تمارس من أجل الدبلوماسية؛ إنّها وسيلة لإحداث تغيير في النظام القائم، سواء بإقامة صداقات جديدة أم إصلاح الخلافات مع الأصدقاء القدامى، أم إيجاد طرق سلمية لاستيعاب قوة صاعدة. لكن قد تكون أكثر فائدة عندما يكون الطريق أكثر وعورة؛ فتمهّد الطريق لكي يتعايش المتخاصمون.

قال فرانكلين روزفلت في الأشهر التي سبقت الحرب العالمية الثانية إنّه "ما من رجل يستطيع أن يروّض النمر ليصبح هرّة بضربه". تلك إشارة إلى أدولف هتلر، وكان مصيباً.

لقد كانت اتفاقية سنة 1938 في ميونيخ بين هتلر والقوى الغربية خيانة لمواطني تشيكوسلوفاكيا وشهادة على حماقة الاسترضاء. ومنذ ذلك الوقت، أشار معارضو التفاوض مع الحكومات الكريهة إلى الدرس المستفاد من تلك الحادثة. وسيذكّرك هذا الاستخدام للتاريخ بأنّ الشرّ موجود وأنّه لا يمكن تجنّب بعض المواجهات.

غير أنّ علينا أيضاً الإقرار بأنّ الحلول الدبلوماسية، مثل المفاهيم الإنسانية، نادراً ما تكون بدون شوائب. ولا يمكنك كممارس للسياسة الخارجية أن تكون أكثر اهتماماً بموقفك الأخلاقي من أخلاقية النتائج التي تسعى إلى تحقيقها وقيمتها. لحل المشاكل، أو تخفيفها، لا بدّ في بعض الأحيان من التعامل مع الأشرار، على الرغم من أنّك ستُنصح جيداً، عندما تفعل ذلك، ألا تشرب الأنخاب أو تبتسم أمام الكاميرات. في الحرب العالمية الثانية، كان ستالين حليفنا. وفي السبعينيات، توجّه نيكسون إلى الصين. وبعد عقدين من الزمن، اجتمعت مع الطغمة العسكرية الحاكمة في بورما، ومع سلوبودان ميلوسوفيتش، وكيم يونغ إيل. وتابعت إدارة بوش من حيث انتهى الرئيس كلينتون في التعامل مع ليبيا القذافي. إذا كان التعامل مماثلاً للاسترضاء، فلن تكون للدبلوماسية غاية. فلا حاجة بنا إلى السلام مع أصدقائنا، بل علينا مسؤولية استخدام أدوات الأمن القومي بأكملها للمحافظة على سلامة مواطنينا. قد لا يمكن تحقيق ذلك دون اللجوء إلى القوة، لكن يجب أن يبدأ بالحوار كما تتطلّب الحضارة.

أداة السياسة الخارجية الثانية المتاحة لكل رئيس هي الميكروفون. ففي أي ساعة وأي يوم، يكون أمامك خيار دخول حديقة الورود أو القاعة الشرقية لتقدّم اقتراحاً أو نصحاً أو إيضاحاً. وعندما تفعل ذلك، يكون لديك واجب التعليم وفرصة الإقناع على حدٍّ سواء.

الرؤساء الذين امتازوا كمعلّمين لم يكتفوا بالإعلان عن خطط ثلاثية النقاط والتماس روح 1776، بل استخدموا الكلمات لرسم صورة أو رواية قصة لشرح ما فعلوه، ولماذا فعلوه، وما سيحدث لاحقاً. بدلاً من الخطب، بدؤوا بالمناقشات، أو في حالة فرانكلين روزفلت، أتقنوا فنّ الحديث حول نار المدفأة، وكما أبلغ الأميركيين عند ابتداء الحرب العالمية الثانية: "هذه الحرب حرب من نوع جديد. إنّها مختلفة عن كل الحروب الأخرى في

الماضي... إنها حرب في كل قارّة وكل جزيرة وكل بحر وكل طريق جوي في العالم. لذلك أطلب منكم أن تخرجوا خريطة العالم بأكمله وتبسطوها أمامكم، وتتابعوا معي... خطوط المعارك في هذه الحرب"*.

بالمقابل، أعيقت جهود ليندون جونسون بإعطاء معنى للتدخّل الأميركي في فيتنام بشكوكه الداخلية. كان يخشى أن تستنزف الدعم وتحرفه عن برامج المجتمع العظيم التي أحبّها، لذا بدلاً من أن يكون صريحاً، روّج فكرة النزاع المحدود الذي يمكن كبحه دون تعبئة المشاعر الشعبية. وأقرّ في مجالسه الخاصة أنّه "إذا كان لديك حماة بعين واحدة وسط جبينها، فإنّك لا تبقيها في غرفة الجلوس". وقد بذل ريتشارد نيكسون الذي ورث الحرب جهداً أكثر انتظاماً لشرح السياسة الأميركية، على الرغم من أنّه أهمل أيضاً ذكر بعض التفاصيل؛ مثل غزو كمبوديا.

عندما يتحدّث الرؤساء الحديثون إلى الأميركيين، ينصت بقية العالم، لذا انتبه إلى ما تقوله. قبل أي خطاب مهمّ، كنت أسأل موظفي، "هل هناك شيء يجب ألا أقوله"؟ أبلغت على سبيل المثال أن أحجم عن امتداح أنور السادات أمام العرب؛ الأميركيون يقدّرون الرئيس المصري المغتال كثيراً للأسباب عينها التي لا يقدّره لأجلها العرب. وأبلغت أيضاً ألاّ أتحدث عن الخليج الفارسي عندما أخاطب العرب أو الخليج العربي عندما أتحدّث (عن بعد) إلى الشعب الإيراني. كلا المصطلحين يدلان على الملكية، لكنّ كلاً منهما يشير إلى المسطّح المائي نفسه. ومن الأسهل (والأسلم) قول "الخليج" فحسب. وقيل لي أيضاً ألاّ أساوي بين أميركا والولايات المتحدة عندما أسافر في نصف الكرة الغربي، لأنّ تلك العادة تثير استياء مئات الملايين من الأميركيين الذين يعيشون جنوب نهر ريو غراندي. وتعلّمت نوعاً آخر من الدروس عندما قلت ملاحظة مرتجلة، في بداية عملي كسفيرة في الأمم المتحدة، عن تهديد محتمل لمورّدي النفط، لأدهش عندما قفزت أسعار الغاز على الفور. لم يكن كل النصح مفيداً. ففي طريقي إلى بيجنغ، نصحت ألاّ أذكر الألفية الثانية القادمة لأنّ التقويم الصيني التقليدي تجاوز تلك العلامة قبل 2700 تقريباً. فامتثلت، لأجد أنّ وزير الخارجية الصيني يتحدّث بحماسة عن دور بلاده في الألفية الثالثة. وأخذ

على جيمي كارتر في أول زيارة رئاسية يقوم بها إلى المكسيك إشارته إلى انتقام مونيزوما؛ وما كان يجب أن يقارن الرئيس جورج دبليو بوش الحرب على الإرهاب بحملة صليبية، وهو خطأ أقرّ به على الفور ثمّ كرّره؛ بل إنّ جون ف. كنيدي أثار خلافاً لغوياً؛ إذ انتُقد إعلانه الشهير عن التضامن مع برلين الغربية ("أنا برليني") لاحقاً بأنّه سقطة فادحة لأنّ "برليني"* مصطلح ألماني يعني "دونت هلامية".

من الصعب مقاومة إغراء التواصل مع جمهور أجنبي بالتحدّث إليه بلغته، ولو بضع كلمات أو عبارة. لكنّها عادة تتطلّب تحضيراً؛ والمرتجلون يفعلون ذلك على مسؤوليتهم. كان أندريه غروميكو، وزير الخارجية السوفياتي مدة طويلة، يتباهى بأنّه يستوعب الإنكليزية الاصطلاحية. وفي مناسبة اجتماعية في واشنطن، اقترح نخباً لمضيفته، زوجة وزير الخارجية دين راسك. ابتسم لزملائه الضيوف، ورفع كأسه بتهذيب، وهتف بلطف وبراءة، "ارفعوا مؤخّراتكم"**!

يقدّم لك التقويم العديد من الفرص لممارسة الدبلوماسية العامة أمام جمهور عالمي. وتلك هدية لا تقدّر بثمن، لا سيما الآن عندما تحتاج سمعة أميركا إلى تلميع. وقد بذل الرئيس جورج دبليو بوش في فترته الثانية جهداً ملحوظاً ليشرح سياساته بمصطلحات قد يقبلها بقية العالم. ولم يحرز تقدّماً كبيراً، لأنّ الكثير من الأشخاص لم يعودوا يثقون بصدقه. عليك أن تجد طرقاً (وكلمات) لكي توحي بتجديد الثقة.

لا عيب في الاعتراف بأنّ الكثير من الخطابات التي ستستخدمها كرئيس سيكتبها أشخاص آخرون. هكذا كان الأمر دائماً. فقد صاغ جيمس ماديسون أول رسالة رسمية وجّهها جورج واشنطن إلى الكونغرس، وصاغ الردّ عليها بصفته مشرّعاً. بل إنّ لنكولن كان يحصل على مساعدة من ويليام سيوارد، وزير خارجيته. وكانت الشراكة المثالية بين كاتب الخطابات والرئيس الحديث قائمة بين جون كنيدي وتيد سورنسون. كان سورنسون يعرف كيف يفكّر رئيسه وبماذا واللغة التي يرتاح إليها. كما كان سورنسون واسع المعرفة ومتمرّساً ليعمل مستشاراً رئيسياً لكنيدي إلى جانب كتابة خطاباته. لم يبتكر صوت كنيدي، لكنّه صاغ الترتيبات التي أخرجت طاقته الكاملة ومداها. وكانت النتيجة ائتلافاً

من الأناقة والمضمون الذي - إذا وضعنا الدونت الهلامي جانباً - رفع أميركا في أعين العالم.

لم يكن لبيل كلينتون علاقة مماثلة مع أي من كُتّاب الخطابات لأنّ قلة من الأشخاص يستطيعون الكتابة بشكل أفضل مما يتحدّث كلينتون. وخلافاً لكنيدي الذي أحبّ الإشارات الكلاسيكية والأقوال المأثورة، كان كلينتون يمقت العبارات الطنّانة. وكان يتحدّث كحاكم لأركنساو اتفق أنّه يعرف أكثر مما يعرفه معظم الناس عن أي شيء، ولديه قصة تناسب كل موقف. ربما لم يضاهِ كلينتون إرث كنيدي من الاستشهادات المذكورة، لكنّه رفع أميركا أيضاً في أعين العالم.

في إدارة كلينتون، كانت كلمات الأمن القومي تصاغ بشكل منطقي من قبل موظفي مجلس الأمن القومي. وعلى الرغم من استشارة الذراع السياسية للبيت الأبيض، فإنّ غاية ملاحظات الرئيس ولغتها والتشديد عليها كانت تعدّ من قبل فريق السياسة الخارجية. في عهد الرئيس جورج دبليو بوش، كانت خطابات السياسة الخارجية الكبرى تصاغ بشكل رئيسي من قبل الكُتّاب الثلاثة الذين يعملون على الخطابات الداخلية والسياسية. وكانت النتيجة، في فترة بوش الأولى على الخصوص، رائعة وكارثية في الوقت نفسه. لقد كانت تعابير بوش الخطابية تلفت انتباه الناس في العالم بطريقة جذابة ومزعجة على السواء. فالإشارة إلى "محور الشرّ" في خطاب حالة الاتحاد في سنة 2002 حرفت الانتباه عن معركة أميركا مع القاعدة، وعقّدت حياة الناشطين المؤيّدين للديمقراطية في إيران. وقد كان لتأكيد الرئيس أنّنا نقاتل الإرهابيين في العراق لكي لا نضطر إلى قتالهم في أميركا وقع جيّد في الولايات المتحدة، لكنّه لم يكن جيداً في العراق؛ حيث يهمّ أكثر. وكان إعلان بوش في خطاب تنصيبه الثاني أنّ "أميركا تعلن، في هذا القرن الوليد، عن الحرية في كل أنحاء العالم، وتزفّها إلى كل سكانه" شديد التطاول بحيث لا يمكن أن يتصوّره أي مستشار للأمن القومي من التيار السائد في الحزبين. بل إنّ بيغي نونان، المحافظة التي كانت تكتب خطابات ريغان، قالت إنّ الخطاب يتميّز "بالجدية الأخلاقية العميقة، ويخلو من التواضع الأخلاقي".

لا يوصي أحد أي رئيس بأن يهمل الجمهور الداخلي عند إلقاء خطاب إلى العالم. لكنّني أتساءل لماذا يحثّ المستشارون السياسيون الرؤساء أحياناً على إهمال العالم عند إلقاء خطابات أمام الجمهور المحلي. فكل خطاب يوجَّه إلى جمهور محلي وعالمي على السواء؛ ويجب أن يصاغ كل منها مع أخذ الجمهوريين في الحسبان. وآمل أن تستخدم خطاباتك لنقل الخصائص التي تريد أن يعرفها الناس عن أميركا في كل مكان: الشدّة الممزوجة بالرأفة، والثقة بمُثلنا مقترنة باحترام أفكار الآخرين وتقاليدهم.

لم تلعب المعونة الأجنبية دوراً رئيسياً في حملتك الانتخابية؛ وذلك ما يفسّر جزئياً سبب انتخابك. فمع أنّ الشعب الأميركي يدعم مشاريع إنسانية معيّنة بسخاء، فإنّ المعونة الأجنبية ككل تتمتّع بشهرة سياسية تماثل شهرة إنفلونزا الطيور. غير أنّها أيضاً أداة مفيدة من أدوات الأمن القومي. وهدف المساعدة مماثل لهدف الأدوات الأخرى: إقناع البلدان بالتصرّف بالطرق التي نحبها. يبدو ذلك ماكراً أكثر مما هو عليه، لأنّنا نريد المساعدة حقاً ونرجو الخير لمعظم البلدان.

لقد كان أول جهد إغاثة أميركي خارجي إنسانياً: للإغاثة من المجاعة ومساعدة اللاجئين في أعقاب الحرب العالمية الثانية. وبعد الحرب العظمى الثانية، وضعت إدارة ترومان خطة مارشال لمساعدة أوروبا في إعادة البناء. وفي خطاب التنصيب في سنة 1949، أعلن ترومان عن مبادرة أوسع "لإتاحة فوائد مخزوننا من المعرفة التقنية أمام الشعوب المحبة للسلام بغية مساعدتها في تحقيق طموحاتها إلى حياة أفضل".

منذ البداية، جرت موازنة الجانب الإيثاري من فكرة ترومان بالرغبة في التأثير على الاتجاه السياسي للبلدان الفقيرة. كان الشيوعيون يحاولون شراء التأييد، ونحن كذلك. لقد ساهمت معونتنا الإنمائية في أحسن أحوالها في رفع العمر المتوقع والتعلّم والتغذية الأساسية. وعلى الرغم من أنّ المعونة الخارجية لا تزال تستحضر صور الهدر، فإنّ الحقيقة هي أنّ المساعدة تخضع لتدقيق شامل ومصحوب بكثير من الأعمال الورقية بحيث لم يعد المتلقّون المحتملون يعتقدون أنّها تستأهل عناء قبولها.

يقول دونالد رامسفيلد، "يشكّل الهيكل الحالي للمعونة الخارجية الأميركية مفارقة

تاريخية. وثمة حاجة إلى نظام يعترف بالمساعدة كما هي عليه، مكوّن من مكوّنات استراتيجيتنا للأمن القومي. بعبارة بسيطة، تمتلك وزارة الدفاع الموارد دون الصلاحيات، في حين أنّ لدى وزارة الخارجية الصلاحيات دون الموارد... والخيار الوحيد هو التخلّص من القوانين الحالية والشروع بفحص النظام الحالي وإصلاحه".

إذا كان يعني ضمناً وجوب منح وزارة الخارجية موارد تساوي مسؤولياتها، فإنّني أجد نفسي في اتفاق نادر مع السيد رامسفيلد. عندما كنت أتولّى منصبي، كان في متناولي نحو سبع مستوى الأموال (بالدولارات الحقيقية) التي كانت متاحة لوزير الخارجية قبل نصف قرن. وبالنظر إلى الثروات التي نستثمرها في خوض الحروب، فإنّ المبالغ التي نخصّصها لتجنّبها زهيدة جداً. أما بالنسبة إلى رغبة رامسفيلد في التخلّص من القوانين والبدء من جديد، فمن الأفضل نسيانها؛ إذ سينتهي بنا الأمر إلى شيء أسوأ من ذي قبل. إذا وجدت السلطة التنفيذية أنّ من الصعب تحديد الأولويات، فإنّ أعضاء الكونغرس البالغ عددهم 535 شخصاً أقل قدرة على الاضطلاع بتلك المهمة. فذلك أشبه بالطلب من الولايات تصميم نظام منطقي لجدولة الانتخابات الرئاسية التمهيدية. لا يعني ذلك أنّ التحسين مستحيل. هناك أشخاص مبدعون ومتخصّصون في دراسة القضية، استمع إليهم، لكن لا تطلق العنان لتوقّعاتك.

عليك أن تفكّر في المعونة الخارجية كمزلّق يمنح البلدان الأخرى أسباباً لمساعدتنا ويحسّن قدرتها على القيام بذلك. وهي تساعد - على المستوى العملي جداً - في دفع ثمن أجهزة الأشعة وكشف القنابل في الموانئ الجوية والبحرية الخارجية التي يجب أن تعبر من خلالها حركة المرور المتّجهة إلى الولايات المتحدة. ومن الناحية الدبلوماسية يمكن أن تجتذب حكومة تتردّد في صنع السلام بخلاف ذلك. ويمكن من الناحية السياسية أن تخفّف من الانطباع بأنّ الولايات المتحدة أنانية. إنّنا نحتلّ المرتبة قبل الأخيرة بين البلدان الصناعية من حيث مقدار الثروة التي نتقاسمها مع الفقراء. بإمكاننا، ويجب علينا أن نفعل أكثر من ذلك لأنّ ذلك صواب ولأنّ الآخرين سيهتمون أكثر بالمخاطر الاستثنائية التي تهدّدنا إذا أظهرنا الاهتمام بالمخاطر اليومية التي يواجهونها وغالباً ما تقتلهم.

ستجد في أي مجموعة كبيرة من الخبراء في السياسة الخارجية بعضاً ممن يؤمنون بأنّ القانون الدولي هو أمل الحضارة الوحيد، وآخرين يرون بأنّه سيد كاذب تنتج عبادته القناعة وقد تقود يوماً إلى تدميرنا.

يحذّر المشكّكون أنّه من السذاجة الاعتماد في الحماية على ما يسمّى المعايير العالمية التي يتجاهلها الإرهابيون، والمعتدون، والدكتاتوريون، والمجرمون. لذا تقوم حجّتهم على أنّه على الولايات المتحدة أن تكون حرّة في القيام بما هو ضروري لهزيمة أمثال بن لادن. لا يمكننا أن نسمح لأنفسنا بأن يحكم علينا الآخرون. فالقوى العظمى تظهر عظمتها عن طريق الفعل، فلماذا نسمح بمحاصرة أنفسنا أو تقييدها؟

يؤكّد المؤيّدون بأنّ القانون الدولي هو كل ما يفصل الرجال والنساء عن الوحوش. لقد هزمت القوة النازيين، لكن القانون هو الذي أدانهم وأعدم قادتهم. القانون يقدّم الأساس لمحاسبة مجرمي الحرب، وتسوية الخلافات دون عنف، وممارسة الأعمال اليومية للشؤون العالمية. والقول إنّ القانون الدولي عديم الفائدة لأنّه لا يفرض دائماً لا يختلف عن الاقتراح بأنّ القوانين التي تحارب الجريمة عديمة القيمة لأنّ الجرائم لا تزال ترتكب. ما من بلد يربح من النظام القانوني الدولي القوي أكثر من الولايات المتحدة، لأنّ لدينا الكثير من المصالح التي يجب حمايتها.

عندما بدأت الحرب في أفغانستان، رأى وزير الخارجية باول أنّه يجب معاملة محاربي العدو وفقاً لمعاهدات جنيف لأنّ المتطلّبات غير ثقيلة ولأنّه يجب ألاّ نعطي البلدان الأخرى مبرّراً لإساءة معاملة السجناء الأميركيين. وكما يعرف العالم، فإنّ حجّة باول رفضت؛ وكلّف ذلك الموقف أميركا غالياً. لقد أدى سجلّ إدارة بوش المحيّر في ما يتعلّق بالسجناء والتعذيب، وحساسيتها من المعاهدات على العموم، وتعيين سفير في الأمم المتحدة (جون بولتون) عبّر علناً عن ازدرائه القانون الدولي، إلى وضع الولايات المتحدة في موقف سيّئ للدفاع عن أهمية القانون في أطر أخرى. وإنّني واثقة من أنّك ستكون أذكى بكثير.

لا تستطيع أميركا بمفردها حلّ معظم المشاكل. المنظّمات الدولية والقانون يمكّناننا

من دمج طاقتنا ومواردنا مع موارد الآخرين وطاقاتهم لتحقيق الأهداف المشتركة. وما يضحّى به أحياناً من ناحية الكفاءة يعوّض عنه في الشرعية؛ فلا تعود أميركا وحدها هي التي تدعم قضية ما بل العالم. وستنخفض أعباء الولايات المتحدة بقدر ما تساعد المؤسسات العالمية البلدان في كل مكان في التقدّم بالاتجاه الصحيح.

يسارع النقّاد إلى الإشارة إلى أنّ العديد من المؤسسات الدولية لا تعمل بشكل جيد كما يجدر بها. فقد تراجع دور المصارف العالمية عمّا كان عليه في السابق، نظراً للتوافر الكبير لرأس المال الخاص. ويعاني مجلس الأمم المتحدة الجديد لحقوق الإنسان من المشكلة نفسها مثل المجلس القديم: العديد من الأعضاء لا يؤمنون بحقوق الإنسان في الواقع. ومجلس الأمن الدولي غير تمثيلي وغير خاضع للمساءلة، ومعتاد على الموافقة على قرارات لا يرغب أعضاؤه في تطبيقها. إنّ منظومة الأمم المتحدة ككل كبيرة وغير منسّقة، إنّها اللجنة المطلقة. كنت أمزح بأنّ الهيئة العالمية تشبه شركة تضمّ مئتي شخص في مجلس إدارتها، وكل منهم يتحدّث لغة مختلفة، ويتبع أولوياته، ويتصرّف وفقاً لقيمه الخاصة، ولديه نسيب بحاجة إلى عمل. أما بالنسبة إلى القانون الدولي فإنّه يواجه صعوبة في مجاراة التطوّرات. فالسياسة والتكنولوجيا تتحرّكان بسرعة أكبر من سرعة المفاوضات العالمية.

السؤال الذي عليك الإجابة عنه هو: هل يجب أن يكون ردّنا على القصور في النظام الدولي استنباط طرق لتحسين ذلك النظام أو الالتفاف عليه؟ من الخطأ وضع الكثير من الثقة في مؤسسات مثل الأمم المتحدة بحيث نهمل اتخاذ الإجراءات الضرورية لصالحنا. غير أنّه يجب أن نكون قد تعلّمنا في السنوات الأخيرة أنّه يمكن أن تترتّب تكاليف عالية على ذهابنا بمفردنا؛ وأنّ الأحادية لا تنجح في العديد من الحالات. وذلك يدعم زيادة فعّالية الأدوات المتعدّدة الأطراف قدر الإمكان، سواء أكانت الغاية هي الإغناء الاجتماعي أو بناء السلام، أو خوض معركة مع عدو متعنّت.

الفصل الخامس
خمسون رامية ماهرة

في ربيع سنة 1898، عندما أطل النزاع برأسه بين أميركا وإسبانيا، وصلت رسالة موجّهة إلى الرئيس ويليام ماكنلي إلى البيت الأبيض. كتب المرسل، "إنّني على ثقة أنّ حكمتك ستعبر بأميركا بسلام دون حرب. لكن في حال وقوع الحرب، فإنّني على استعداد لأن أضع تحت تصرّفك سرية من خمسين رامية ماهرة. كل منهن أميركية، وبما أنّهن سيجهّزن أسلحتهن وذخيرتهن، فإنّهن لن يحمّلن الحكومة شيئاً من المصاريف أو القليل منها فقط". إنّ هذا العرض الوطني من فويبي آن موزس، المعروفة باسم آن أوكلي، يجمل الموقف الأميركي تجاه استخدام القوة. إنّنا ننتظر من قادتنا أن يجنّبونا الحرب، لكنّنا سنقاتل إذا اضطررنا؛ والأفضل أن نفعل ذلك دون تكلفة الخزانة كثيراً.

يتميّز الخاتم العظيم للولايات المتحدة بنسر يمسك بغصن زيتون بمخالب إحدى قائمتيه وبرمح بمخالب الأخرى. ويجلس آيب المسنّ على كرسيه الكبير في حديقة ناشيونال مول ويده اليمنى مفتوحة والثانية مشدودة. ونقل هربرت هوفر عن عمه المنتمي إلى طائفة الكويكر قوله، "أدر خدّك الأيمن مرّة واحدة، لكن إذا صفعك ثانية الكمه".

وصلتك الفكرة. إنّنا في نظرتنا عن أنفسنا محاربون متردّدون. إنّنا نشبه الرقيب يورك المعتدل في الحرب العظمى، فقد استدعي من بلدة صغيرة في تنيسي وهو يشكّ في أن يكون بوسعه - أو يجب عليه - أن يرفع البندقية في وجه أخيه الإنسان. كان ذلك إلى أن شاهد أبناء وطنه يسقطون بقربه، فقاتل عندئذ وليس أمامه سوى هدف واحد هو استسلام جنود العدوّ.

إنّنا ندرك جيداً أنّنا لسنا دائماً أبطالاً كما نودّ أن نكون، لكنّنا لا نريد أيضاً أن نجد أنفسنا على خلاف مع خرافة. إنّنا نقاتل من أجل قضايا كبرى، مثل الحرية والدفاع عن الوطن والأرض. نقاتل لأنّنا مجبرون على القتال، لا لأنّنا نريد ذلك أو من أجل أسباب الكسب المادي التافهة. ونرى أنفسنا حلفاء موالين وأعداء نزيهين لكن مخيفين.

لذلك فإنّ أي قرار أميركي باستخدام القوة يجب أن يبدأ بتفهّمه في الداخل. وكقائد عامّ، ستجبر على اختيار المعارك التي تخوضها أميركا بعناية، وتصميم المهمّات الجديدة التي تدرّبت عليها قواتنا وجهّزت من أجلها جيداً. عليك أن تعيد إنشاء موقف أميركا كأمة ترغب في السلام دون أن تسمح بتفسير هذه الرغبة بأنّها ضعف. وعليك أن تدرك أنّك حتى إذا نجحت في جانب من جوانب رئاستك، فإنّك ستفشل على العموم إذا لم تكن خياراتك حكيمة بشأن متى تستخدم القوة وكيف؟

نظراً للقدرات الأميركية، يمكن استخدام الإكراه العسكري كأداة صريحة، أو نسف مدن بأكملها، أو توخّي العناية الشديدة لإنقاذ ملاح واحد محتجز خلف خطوط العدوّ. النزاع التقليدي مع عدو تقليدي يبقى وارداً، وعليك أن تعدّ الخطط لذلك. وسيُحتاج إلى القوة في الغالب الآن في أوضاع لا يكون فيها رجل المشاة الصريح الشخصية الأسطورية، لكن شخصية جسورة؛ المقاتل النخبوي الذي يهاجم معسكراً لتدريب الإرهابيين، والجاسوس المقدام الذي يستخدم التكنولوجيا العالية لاستهداف قادة العدوّ، والبحرية التي تعترض شحنة أسلحة. ومع تغيّر العالم، برز مزيد من الأدوار: حفظ السلام، وبناء الدول، وتقديم الإغاثة في الحالات الطارئة.

القوة تكون أعظم فائدة عندما لا نضطر إلى استخدامها. تلك هي القيمة العظمى للدفاع الرهيب؛ أن تردع الأعداء المحتملين أو تفرض عليهم تغيير تكتيكاتهم على الأقل. ومن ثم فإنّ أول وصيّة للرئاسة: استعدّ. وبعبارة جون كنيدي، "عندما تكون أسلحتنا كافية دون ريب نكون على يقين دون ريب بأنّها لن تستخدم البتة".

في أثناء حملتك تعهّدت بتجهيز قوّاتنا بأكثر الأسلحة فعّالية، وأحدث وسائل الاتصال، وأفضل المنظومات المضادّة للصواريخ، وأقوى الدروع، وأكثر الصدرات الواقية من الرصاص تقدّماً، وأدقّ أجهزة كشف القنابل، والاستخبارات الفورية المثلى. وتعهّدت أيضاً بتمكين قواتنا المسلّحة من الوفاء بالتزاماتها المتواصلة والاستعداد للحالات الطارئة دون إضعاف الجاهزية على المدى الطويل، أو الاعتماد الشديد على قوات الاحتياط، أو تحطيم معنويات الجيش المكوّن من المتطوّعين. لقد وعدت بتحديث استراتيجيتنا

وتكتيكاتنا العسكرية، وتقديم رعاية أفضل لأسر العسكريين، وتعزيز مزايا المحاربين القدامى. ووعدت أيضاً بتوسيع الجيش واستشهدت بتحذير الجنرال إريك شِنسكي (ضابط متقاعد في الجيش الأميركي) البليغ، "حاذروا من وضع استراتيجية لجيش من اثنتي عشرة فرقة لجيش من عشر فرق". كيف تدفع مقابل كل ذلك؟ لم تفكّر في كل ذلك، وكذلك منافسك الذي وعد بالأشياء نفسها.

عندما كنت في الحكومة، سمّيت مدمّرة، مك كامبل، وزرت القوات الأميركية في كل قارة. صافحتهم وحرصت على تذكّر وجوههم. لا يسع القائد أن يعجز عن اتخاذ القرار لأنّ أوامره قد تؤدي إلى موت أشخاص، بمن فيهم بناته وأبناؤه. ومع ذلك فإنّ القائد الذي لا يتأثّر ويعاني بسبب هذا الاحتمال لا ينتمي إلى البيت الأبيض.

ربما لا يمكن اجتناب اتخاذ قرار باستخدام القوة عندما يكون الاستفزاز واضحاً؛ بيرل هاربر و11/9. وقد يكون أصعب عندما يشنّ العدوان على الحلفاء أو الأصدقاء. وتشمل الأحكام الأصعب حالات تكون فيها المصالح الأميركية مهمة ولكن أقلّ من حيوية. كيف يمكننا أن نطلب من أحدهم المخاطرة بالموت من أجل قضية "مهمة نوعاً ما"؟ ومع ذلك، إذا كانت الأزمة تتعلّق ببقاء الأمة نفسها قبل أن يتمكّن العسكريون من التدخّل، فإنّ ميزة إبقاء قوات مسلّحة قوية تتراجع كثيراً.

عند التفكير في القوة، يكون السؤال الأول الذي يجب تقييمه: كيف سيردّ الأعداء؟ ويتوقّف الجواب على القدرات العسكرية للعدوّ، وشخصية قيادته وسيكولوجيتها. القوة مصمّمة لإحداث الخوف، ودفع الخصم إلى الاستسلام أو السعي إلى السلام. وقد يكون لها تأثير غير مقصود يضاعف الغضب، وبالتالي يعمّق المقاومة ويطيل القتال. في فيتنام، بخّست الاستراتيجية الأميركية تقدير إرادة العدوّ وقدرته على استيعاب العقاب. وعندما زدنا الضغط العسكري ببطء، وجد القادة الشيوعيون الوقت للتكيّف؛ وتعبئة الرأي العام العالمي ضدّنا. وكان إلى جانبهم أيضاً أقوى داعمين في آسيا في القرن العشرين: الوطنية، والرغبة في الإفلات من سيطرة الغرب. كان الأميركيون في فيتنام يقاتلون من أجل الحرية كمبدأ؛ وكان أعداؤنا يقاتلون - كما يعتقدون - ليصبحوا أحراراً.

سقط ظل فيتنام أمامنا، فنشأت فترة من الشك الوطني بالذات، وتغيّر موقف العسكريين الأميركيين أنفسهم من استخدام القوة. وساد شعور بأنّ الخسارة لم تكن عسكرية وإنما سياسية، نابعة من سوء فهم المدنيين لطبيعة الحرب.

في أثناء النزاع، ادّعى وزير الدفاع روبرت مكنمارا أنّ "أعظم إسهام تقدّمه فيتنام... أنّها تطوّر قدرة الولايات المتحدة على خوض حرب محدودة، والذهاب إلى الحرب دون ضرورة إثارة الغضب العام".

ما رآه مكنمارا سابقة قيّمة، وجد فيه العسكريون مأساة يجب ألاّ تتكرّر. وفي تأمّل لاحق لدروس فيتنام، قال الجنرال فرد وياند (الجيش الأميركي):

> علينا كمحترفين عسكريين التحدث صراحة. علينا أن نقدم المشورة إلى القادة السياسيين، وأن ننبه الرأي العام الأميركي إلى أنه ليس هناك شيء من قبيل "الحرب الصغيرة الرائعة". ليس هناك حرب تخاض دون تكاليف. الحرب تعني الموت والدمار. والطريقة الأميركية للحرب عنيفة جدا، ومميتة ومخيفة. إننا نؤمن باستخدام الأشياء - المدفعية، والقنابل، والقوة النارية الهائلة - لحماية أرواح جنودنا.

التجربة المؤلمة في جنوب شرق آسيا توسّطت نزاعاً غير حاسم في كوريا، وتدخّلاً رديء التصوّر في لبنان انتهى في سنة 1984؛ بعد أربعة أشهر من هجوم إرهابي على ثكنة للمارينز أدّى إلى سقوط 241 أميركياً. في ذلك الوقت ازداد حذر القوات العسكرية من القادة المدنيين. فصارت تشعر بالقلق من نشرها لأهداف غير قابلة للتحقيق، أو تتغيّر باستمرار، أو غير مفهومة تماماً لدى الشعب الأميركي. وحنّت إلى أيام الرقيب يورك، عندما كانت أميركا تدخل الحروب لتحقيق هدف واحد: الانتصار.

في أعقاب انسحابنا من لبنان، اقترح وزير الدفاع كاسبار واينبيرغر مجموعة من الشروط المسبقة لتكليف القوات العسكرية الأميركية. ورأى أنّ الانتشار يجب أن يكون الملاذ الأخير فحسب، مع تأييد شعبي معقول، ولأهداف محدّدة بوضوح وحيوية على السواء، ولتحقيق الانتصار، وبوجود الموارد للقيام بذلك.

رأى وزير الخارجية شولتز، وهو من رجال المارينز السابقين، أنّ قائمة واينبيرغر

مقيّدة جداً. وشعر أنّه على أميركا أن تستخدم القوة في ظروف غير واضحة تماماً؛ في محاربة الإرهاب على سبيل المثال، أو مواجهة أعمال التمرّد، أو محاولة تجنّب تطوّر الحروب الصغيرة إلى حروب كبيرة. وتوقّع الحاجة إلى ما أسماه "الحرب الغامضة"، وهو مصطلح لم يكن العسكريون مستعدّين لقبوله بعد فيتنام.

لذا لم يكن من غير المفاجئ أن تسود أفكار واينبيرغر على أفكار شولتز، عندما أصبح الجنرال كولن باول، وهو مساعد سابق لواينبيرغر، رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة في سنة 1989. وقد وجّه نهج واينبيرغر - باول الاستعدادات الأميركية لحرب الخليج الأولى، التي نشرت فيها أميركا قوات هائلة، ووضعت أهدافاً محدّدة، وحشدت ائتلافاً دولياً عريضاً، ونفّذت استراتيجية للخروج، وتمتّعت بتأييد شعبي كاسح.

يجدر بنا أن نتذكّر على ضوء التطوّرات اللاحقة أنّ هذا الائتلاف شُكّل بغية دحر القوات العراقية من الكويت، لا إزاحة صدام حسين عن السلطة. وحافظت إدارة جورج هـ. دبليو بوش على هدفها الأصلي لأنّها خشيت أن ينهار الائتلاف إذا فعلت خلاف ذلك فتُتْرك أميركا وحدها لإعادة النظام إلى عراق منهار ومنقسم. وطيلة سنوات بعد ذلك، ساد اعتقاد واسع النطاق أنّ هذا العمل المنسجم والمنضبط خطأ. وينظر إليه اليوم على أنّه مثال على الاتساق والانضباط.

في أعقاب 11/9، أحدثت إدارة جورج دبليو بوش جدلاً بشأن استخدام القوة في مرحلة جديدة. ووفقاً لاستراتيجيتها للأمن القومي لسنة 2002: "بالنظر إلى أهداف الدول المارقة والإرهابيين، فإنّ الولايات المتحدة لا تستطيع الاعتماد فقط على وضعية ردّ الفعل كما كنّا نفعل في الماضي. إنّ عدم القدرة على ردع مهاجم محتمل، وطبيعة التهديدات الفورية اليوم، وحجم الضرر المحتمل الذي يمكن أن يلحقه بنا أعداؤنا، لا تتيح لنا ذلك الخيار. لذا لا يمكننا أن ندع أعداءنا يسدّدون الضربة الأولى".

أدّى الصخب الذي استُقبل به ما يدعى بمذهب الاستباق إلى تحويل انتباه العالم في وقت حرج عمّا فعلته القاعدة إلى ما قد تفعله أميركا. الأمر المحيّر هو لماذا اختار قادة الإدارة تسليط الضوء على القضية، وهي ليست جديدة من حيث المبدأ. لقد كان

الزعم بأنّ بلدنا اتخذ تاريخياً "وضعية ردّ الفعل" غير صحيح. فقد استخدمت أميركا القوة عدة مرات دون أن تهاجم. فعلنا ذلك، في ربع القرن الأخير فحسب، في لبنان وغرينادا وبنما والصومال والعراق وهايتي والبوسنة وكوسوفو.

الفارق بين سياسة الإدارة الراهنة والإدارات السابقة هو أنّ فريق بوش خفّض عتبة استخدام القوة. ووفقاً لنائب الرئيس تشيني، "علينا التعامل مع هذا النوع الجديد من التهديد بطريقة لم نحدّدها بعد... إذا كان هناك احتمال يبلغ واحد بالمئة بأنّ العلماء الباكستانيين يساعدون القاعدة في صنع أسلحة نووية أو تطويرها، فعلينا التعامل مع ذلك كأنّه يقين من ناحية ردّنا".

وأوضح الرئيس بوش نفسه قراره بغزو العراق بهذه الكلمات: "كان صدّام حسين خطيراً وهو مسلّح. وكان صدام حسين خطيراً وهو قادر على صنع الأسلحة. وكان رجلاً خطيراً في جزء خطير من العالم... وأعتقد أنّ من الضروري... عندما نرى تهديداً أن نتعامل مع ذلك التهديد قبل أن يصبح وشيكاً. الأوان يفوت إذا أصبح التهديد وشيكاً. ويفوت الأوان في هذا النوع الجديد من الحرب، لذلك اتخذت القرار الذي اتخذته".

غير أنّ رسالة بوش، المعبّر عنها بطريقة تفتقر إلى الأناقة، واضحة لا لبس فيها: أميركا ستهاجم الأشخاص الخطيرين في الأماكن الخطيرة دون أن تنتظر أن يهدّدوها بالفعل؛ وهو تعهّد صريح قد يكون علاجاً شافياً لكل شيء إذا كانت لدينا السلطة لصنع القوانين التي تطبّق على أنفسنا فقط. أما في الواقع، فإنّ المبدأ الذي يسمح للبلد (أ) بمهاجمة البلد (ب) لأنّ ذلك البلد قد يهاجم (أ) ذات يوم ما هو إلا دعوة للفوضى. فسيكون لكل بلد ذي جار مشاكس أو جيّد التسليح الحقّ في الدفاع عن نفسه بتوجيه الضربة الأولى. وقد يدفع هذا المبدأ البلدان التي تخشى من التعرّض إلى هجوم إلى مضاعفة جهودها للحصول على رادع، وبخاصة سلاح نووي. كما أنّ التشديد العلني على الاستباق يقلّل من أهمية الأحلاف، ويتجاهل الدبلوماسية والوسائل غير العنيفة الأخرى لتحييد التهديدات المحتملة. أخيراً، كما رأينا، إنّ المعلومات الاستخبارية غير الكاملة هي بمثابة عقب أخيل لأي استراتيجية استباقية. فالشرعية المتصوّرة للضربة

الاستباقية تعتمد على دقّة المعلومات التي يحصل عليها الرئيس بشأن قدرات الخصم ونواياه. وأن تقول، "آسف" عند التقاط حقيبة شخص آخر في المطار شيء، وأن تغزو بلداً آخر استناداً إلى "حقائق" ليست حقائق البتة شيء آخر.

الرئيس بوش محقّ في أنّ بعض الإرهابيين لا يمكن ردعهم بالخوف من الدمار، وأنّ التكنولوجيا الحديثة تجعل احتمال التعرّض إلى هجوم مفاجئ ومدمر ممكناً. والاحتراس من مثل هذه التهديدات يتطلّب بالتأكيد تجاوز التعريف الضيّق للدفاع عن النفس المشار إليه في ميثاق الأمم المتحدة. ومعظم الأشخاص المنطقيين يقبلون ذلك. لكن ليس على المرء قبول عتبة الواحد بالمئة المفترضة لنائب الرئيس تشيني ليدعم الهجمات العسكرية ضدّ خلايا القاعدة المعروفة، بصرف النظر عمّا إذا كانت تلك الخلايا تعدّ لمهاجمة الولايات المتحدة أم لا. ويدعم معظمنا أيضاً العمليات الموجّهة لوقف نقل الأسلحة إلى مجموعة إرهابية. لكن وجود بعض الأعداء المحتملين الذين لا يمكن ردعهم لا يعني أنّ الردع لن ينجح البتة. معظم الناس يريدون العيش، ومعظم الأشخاص الذين لديهم سلطة يريدون المحافظة على سلطتهم. لذا يجب أن تقتصر الهجمات الاستباقية على الحالات التي تشير فيها الظروف بوضوح إلى أنّ استخدام القوة لا بدّ منه؛ لا أنّه مجرّد خيار. إنّ غاية سياسة الأمن القومي هي جعل العالم أكثر أماناً، لا إضفاء الشرعية على القلق فحسب كذريعة للحرب.

في خطاب ألقاه الرئيس بوش الأب في وست بوينت في سنة 1993، نصح بعدم محاولة وضع مجموعة من القواعد المتشدّدة والسريعة التي تحكم استخدام القوة، مقترحاً بدلاً من ذلك توجيهات غير محدّدة: "أين تبرّر المكافآت ذلك، وأين ومتى يكون استخدام القوة فعّالاً... وأين يمكن أن يكون استخدامها محدوداً في النطاق والزمن، وأين تبرّر الفوائد المحتملة التكاليف والتضحيات المحتملة".

لقد وضعت كتب بأكملها عن هذا الموضوع، لكن خلاصة بوش ليست أكثر جودة من غيرها؛ ولا تفيد كثيراً. القرارات المحدّدة تتلخّص دائماً في النظر في التكاليف مقابل الفوائد. وتكمن الصعوبة في أنّ الأحكام على العوامل المفترض أنّها موضوعية -

المكافات، والمدة ومستوى الخطر، واحتمال النجاح - أحكام ذاتية. وعليك تقليب الرأي والاستفادة من دروس الماضي العديدة.

أولاً، لا تفرط في تقدير التجارب الحديثة. فغالباً ما نتعثر بما علمناه للتوّ. يجب ألاّ نفترض أن تكون الأزمة التالية شبيهة بالأخيرة، أو أنّ ما نجح أو أخفق في حالة ما سيتكرّر في الأخرى. لقد أكّد النقّاد على سبيل المثال أنّ القوة الجوية لن تحدث اختلافاً حاسماً في كوسوفو؛ وكانوا مخطئين. وذلك لا يعني أنّ القوة الجوية بمفردها يمكن أن تكون حاسمة دائماً، بل إنّها قد تكون كذلك في الظروف الصحيحة فحسب. الانتشار العسكري الكاسح حقّق الظفر في حرب الخليج الأولى، وكان يجب أن يكون الاستراتيجية في الثانية. غير أنّ هناك حالات يكون فيها استخدام القوة المحدودة لغرض محدّد بعناية ضرورياً، ويمكن أن يثبت أنّه فعّال. البنتاغون حذر بالفطرة، وذلك أمر جيّد، لكن لا يمكن السماح له بنقض الانتشار العسكري بالإصرار دائماً على أنّه يلزم كتيبة من القطط للإمساك بفأر. وعلى نحو ذلك، فإنّ إظهار "الصدمة والرعب" قد ينجح بشكل جيد في مكان ما، لكنّه قد يخفق في مكان آخر ما لم تصحبه خطة طويلة الأمد للأمن وإعادة الإعمار. ادرس الماضي لكن عليك أن تدرك أنّ لكل ظرف خصائصه.

ثانياً، اعرف خصمك. السياسة الخارجية ليست مماثلة للتدرّب على كرة المضرب، حيث تضرب الكرة باتجاه حائط خرساني فترتد الكرة إليك مباشرة. إنّها أشبه بويمبلدون، حيث يكون خصمك واسع الحيله وأنت غير معتاد على أرض الملعب. لكي تؤدّي جيداً، عليك أن تتعلّم قدر ما تستطيع عن الظروف التي ستعمل فيها، ومواطن القوة والضعف الإجمالية لدى الخصم، والمخاوف المتميّزة، والغرور، والمعتقدات الأساسية لمن يقود الجانب الآخر. ينطبق ذلك إذا كان خصمك بلداً معادياً، أو ميليشيا متمرّدة، أو مجموعة إرهابية. وإذا لم تستطع أن ترى الملعب بوضوح من وجهة نظرهم، فستجد نفسك مائلاً دائماً إلى الاتجاه الخاطئ.

ثالثاً، اعرف أهدافك. العديد من العمليات العسكرية تفشل إذا لم يتضح ما ترمي إليه. تشكل فيتنام وحرب الخليج الثانية مثالين واضحين، لكن المبرّرات المنطقية تغيّرت

بالنسبة إلى قوّاتنا في الصومال ولبنان وكوريا أيضاً. القوات العسكرية تتوجّه نحو الحلّ؛ واصل تغيير مهمّتك فيفقد العسكر اتجاههم؛ وذلك مسار أكيد إلى الفشل.

رابعاً، اعرف أنَّ التهديد باستخدام القوة يفقد قيمته بسرعة ما لم يكن مدعوماً. الرئيس لا يستطيع أن يقول "وإلاّ" كثيراً. فالتهديدات يجب أن تكون أداة للاستراتيجية، لا منتجاً من منتجات الغضب أو الإحباط. وقد لاحظ جيمس كاغني أنّ الأكثر أميركية بين الممثّلين يهدأ صوته، بدلاً من أن يزداد ارتفاعاً، قبل أن يلجأ إلى قبضاته. وكان المثال الإفريقي الغربي المفضّل لدى تيدي روزفلت، "تحدّث بهدوء لكن...".

خامساً، عندما تحدّد أهدافك، يجب أن تتابعها على الفور، وبمستوى القوة اللازم لتحقيقها. نادراً ما ينجح التصعيد التدريجي لأنّه يتيح للعدوّ الوقت للتعافي من النكسات، ووضع تكتيكات جديدة، ومحاولة تأليب الرأي العام العالمي لمصلحته.

على نحو ذلك، حاذر من التدخّل التدريجي في حرب أهلية أو في ما قد يصبح حرباً أهلية. فعندما تبدأ أميركا بتأييد جانب معيّن، فمن المرجح أن ينمو مستوى استثمارنا، لأنّ مصداقيتنا تصبح على المحكّ ولأنّنا لا نريد أن نخسر. وما يبدأ كدعم معنوي فحسب يمكن أن يتوسّع بسرعة إلى المعونة المالية والمادية غير القاتلة، ثم إلى التدريب والتزويد بالسلاح، ونشر القوات في نهاية المطاف. ونصبح مقامراً يواصل مضاعفة الرهان، وينتهي الأمر إلى أن نضع على الطاولة أكثر بكثير مما كنا نعتزم أصلاً. القاعدة الأولى للتدخّل في حرب أهلية ما على العموم هي ألاّ تتدخّل. والقاعدة الثانية: تجنّب تقديم الالتزامات عندما تتدخّل. والثالثة: إذا انتهكت القاعدة الأولى والثانية، احرص على أن تكون في الجانب الرابح.

أخيراً، اعرف أنّ الولايات المتحدة تستخدم القوة بفعّالية كبيرة عندما لا يكون عليها أن تفعل ذلك بمفردها. فتحالفاتنا في أوروبا وآسيا من أهم أصول أمننا القومي ويجب أن تعامل على هذا النحو. يقدّم كل رئيس التأييد اللفظي لحلف شمال الأطلسي؛ واستخدم الرئيس كلينتون قوات حلف شمال الأطلسي في البلقان. كما كان الرائد في توسيع الحلف وتنقيح ميثاقه للتعامل مع البيئة العالمية الجديدة.

لا شك أنّ حلفاً مثل حلف شمال الأطلسي، وهو يضمّ الآن ستة وعشرين عضواً، قد يكون صعب الإدارة. تذهب إلى اجتماع وينتظر أن يتحدّث ممثّل عن كل عضو. وينطبق على ذلك النكتة القديمة: لقد قيل كل شيء، لكن لم يقله الجميع. غير أنّ المردود يستحقّ استثمار الوقت. فالفوائد التي تعود على الولايات المتحدة ليست عسكرية بقدر ما هي سياسية، لكن المزايا السياسية هائلة عند مقارنتها بالعمل الأحادي. إذ يتمّ تشارك التكاليف، وكذلك المخاطر. والأهمّ من ذلك أنّ كل عضو يكون له نصيبه من النجاح عندما يتخذ الحلف إجراء ما. هكذا يمكن استخدام النفوذ العسكري لممارسة ضغط سياسي يقود ائتلافهما إلى النتيجة المرضية.

إنّ استخدام القوة هو أغلظ الأدوات في صندوق عدة السياسة الخارجية. وفي السنوات الأخيرة اشتهر عن الولايات المتحدة مسارعتها إلى اللجوء إلى ترسانتها. ويعتقد الآن في العديد من البلدان أنّنا التهديد الأول للسلام في العالم. لذا، ماذا عن وسائل الإكراه غير العنيفة؟ ماذا يوجد لدينا في صندوق عدتنا يمكن أن يكره البلدان على تغيير سلوكها دون أن نلقي قنبلة أو نصوّب مدفعاً؟

قبل سنوات كرّمت بدعوة لحمل المشعل الأولمبي عندما كان ينتقل من دلفي إلى سولت ليك سيتي من أجل الألعاب الشتوية 2002. كلّفت بحمل المشعل مسافة بضعة مربعات فحسب، ولم أركض بالفعل (مع أنّني مشيت بسرعة). كان المشعل أثقل مما قد تتصوّر، وطلب مني أن أرتدي قفازين، ما جعله زلقاً. شعرت بالخوف من أن أسقطه وتعرض صوري في الصفحة الأولى كالخرقاء. هذه الحادثة جديرة بالرواية لأنّ كل حامل محتمل للمشعل أعطي على سبيل المجاملة من اللجنة الأولمبية الأميركية بدلة مكوّنة من سترة رياضية من النايلون وبنطالاً مطابقاً. عندما وصلت البدلة، تفحّصت رقعة الوسم، فوجدت عليها "صنع في ميانمار"، أي بورما، وهو بلد يعاني تحت حكم أكثر الحكومات قمعاً على وجه الأرض. لم يكن استيراد الملابس من بورما غير قانوني بعد، لكن ضغط الرأي العام حفز معظم التجار الأميركيين على وقف التعامل التجاري معها. كان لدي أسبابي الخاصة للاشمئزاز، إذ إنّني زرت ذلك البلد لتقديم الدعم إلى قائدها الديمقراطي الفائز

بجائزة نوبل أونغ سان سو كيي. ثار غضبي بشأن البدلة، لكنني أدركت أنّ الوقت قد فات لإعادة طلب ملابس جديدة، مع أنّني اشتريت قميصاً وبنطالاً خاصين (صنعا في أميركا). وعندما وصلت إلى سولت ليك سيتي، أبلغت ميت رومني، رئيس اللجنة الأولمبية الأميركية، عن هذه الغلطة؛ فشكرني بلطف لأنّني لم أثر ضجّة. وفي السنة التالية، أقرّ الكونغرس حظراً على كل الواردات من بورما.

المقاطعة والحظر وغيرهما من العقوبات الاقتصادية أدوات دون الحرب مصمّمة لإقناع بلد ما بفعل شيء ما إذا كان غير راغب في ذلك. ربما تجد الأداة مغرية لأنّها تتيح لك التعبير عن السخط دون اللجوء إلى القوة؛ ما خلا مراقبة العقوبات. ومع أنّ هذه القيود لم تثبت فعّاليتها إلا عندما تكون متعدّدة الأطراف، فإنّ القادة الأميركيين لا يزالون فريسة الوهم بأنّ بوسعنا عزل بلد آخر عندما نعمل بمفردنا. العقوبات تحظى بشعبية في الكونغرس إذ من السهل تشريعها، ما يسمح للشيوخ والنواب بفرصة نادرة لإملاء السياسة. ونتيجة لذلك أفرط في استخدامها.

لديك الصلاحية - بصفتك رئيساً - أو مطلوب منك فرض العقوبات عندما يغزو بلد بلداً آخر، أو عندما يُطاح بحكومة منتخبة ديمقراطياً، أو عندما تصادر حكومة ما ممتلكات تابعة لمواطن أميركي، أو عندما يرفض بلد ما حماية حقوق الإنسان، أو عندما لا تتعاون حكومة ما مع الولايات المتحدة في مكافحة الإرهاب أو الانتشار النووي أو التجارة غير القانونية للمخدرات أو تهريب الأفراد. وينتظر منك أيضاً استخدام العقوبات ضد البلدان التي لا تبدي استعداداً لحماية الحرية الدينية، أو محاكمة مجرمي الحرب المشبوهين، أو حماية الجواسيس المعرّضين للخطر، أو ضمان عدم وقوع الدلافين والسلاحف البحرية في شباك الصيد. وفي معظم الحالات، توفّق هذه المتطلبات مع التقارير السنوية التي تكون فيها وزارة الخارجية مجبرة على منح درجة لكل بلد في العالم في كل فئة، باستثناء أميركا. عندما كنت فتاة في المدرسة، أخذت على عاتقي مهمة مراقبة النظافة العامة لزميلاتي الطالبات وقدمت تقارير عن العديد منهن لأنّ أظافرهن وسخة. وقد نظّفت الأظافر، لكنّني فقدت كل صديقاتي.

لا تمنح الولايات المتحدة علامة سيّئة لمن ينتهكون معاييرنا، لكن يمكننا أن نقطع المساعدة الخارجية، ونوقف مبيعات الأسلحة، ونعارض منح قروض من البنك الدولي، ونلجأ إلى الحرمان من المزايا التجارية، وحظر شحن بنود معيّنة، وتجميد الحسابات المصرفية، وغيرها من العقوبات. وتكون الحكومات التي نفردها في موقف دفاعي ومجبرة على تبرير أفعالها عندما نعمل بمشاركة الأمم المتحدة على وجه الخصوص. لكن عندما يتعلّق الأمر بتغيير سلوك بلد ما، فإنّ العقوبات تعد في الغالب بأكثر مما تنتج.

برزت حالة اختبارية مبكّرة في سنة 1935، عندما غزت إيطاليا أثيوبيا في انتهاك لعهد عصبة الأمم. جرى التصويت على فرض قيود على الفور، لكن العقوبة فشلت لأنّها لم تكن شاملة ولم تراقب بشكل منتظم. وقد أفيد عن أنّ موسوليني أبلغ الحكومة الألمانية بأنّه كان سيأمر قواته بمغادرة أثيوبيا على الفور لو شملت العقوبات حظراً على الواردات النفطية. أما بالنسبة للتطبيق، فقد عوّض الفحم الألماني النقص عندما أوقفت مبيعات الفحم البريطانية إلى إيطاليا. كما أنّ جارة إيطاليا الشمالية، النمسا، أضعفت الحظر. وزادت الولايات المتحدة، وهي ليست عضواً في عصبة الأمم، صادراتها من خردة الحديد والفولاذ. وبقيت قناة السويس مفتوحة، لذا لم تجد إيطاليا مشكلة في إعادة إمداد قواتها المحتلة. وبعد الغزو بثمانية أشهر، ضمّت إيطاليا أثيوبيا بشكل رسمي؛ وفي الشهر التالي رُفع الحظر إقراراً بفشل العصبة.

في السنوات الخمس والأربعين الأولى، استخدم مجلس الأمن العقوبات مرتين فحسب، ضدّ روديسيا (من سنة 1966) وجنوب إفريقيا (بدءاً من سنة 1977). وفي كلتا الحالتين كانت الجريمة هي العنصرية، وفي كلتا الحالتين، أدّت العقوبات غرضها، ولكن بعد عقد من الزمن أو أكثر. أدّت نهاية الحرب الباردة إلى زيادة نشاط مجلس الأمن، بما في ذلك تطبيق العقوبات (بدعم مني) في أكثر من عشر حالات في التسعينيات. وقد لقيت هذه الجهود نجاحاً مختلطاً. فغالباً ما كانت الحكومات المسيئة قادرة على التكيّف، إما بالاعتياد على الاستغناء، أو إنتاج السلع في الداخل، أو إيجاد طرق لتهريب ما تحتاج إليه. وفي بعض الحالات، تطوّرت الأسواق السوداء، ما شوّه الاقتصادات المحلية

وسهّل الفساد. في العراق وهايتي، شعر المدنيون بتأثير العقوبات أكثر من الحكومات لأنّ الدكتاتوريين المعنيين اهتموا باحتياجاتهم الخاصة أولاً.

في بعض الأحيان يكون هدف العقوبات - حظر شحنات الأسلحة على سبيل المثال - غير واقعي. فبلد مثل جمهورية الكونغو الديمقراطية تحدّها تسعة بلدان؛ وحدودها طويلة ومليئة بمدرّجات الطائرات. وإذا كان المهرّبون عازمين على تسليم الأسلحة هناك، فإنّ مجلس الأمن القابع في نيويورك لن يستطيع منعهم. ومن المشاكل الأخرى التي تواجه العقوبات أنّ رفعها صعب متى فرضت. وتكون الحال كذلك على وجه الخصوص عندما ينصّ قانون فيدرالي على ذلك، كما هو الحال مع كوبا.

ينعكس الدافع إلى معاقبة أحدهم على فعلة رديئة في قوانين معظم المنظمات، بما في ذلك المجتمعات المحلية والأسرة. فيعاقب من يسيء التصرّف ويكافأ من يلتزم بالتوجيهات؛ نظرياً على الأقل. غير أنّ الحياة الواقعية لا تعايش نظرياً. عندما كانت بناتي صغيرات ولا يتوخّين الانتباه على المائدة، كنت أحذّرهنّ من عدم إراقة الحليب، وإلا سيحرمن من مشاهدة التلفاز في تلك الليلة. وحين أرقن الحليب، أطفأت التلفاز. وبدلاً من ذلك، كان علي أن أمضي الليلة في التعامل مع نوبات الغضب، والتحكيم في الخلافات على الألعاب، وإنقاذ الكلب من جلسة لإلباسه الثياب، وقراءة مزيد من القصص لتهدئة النشاط المفرط عند الفتيات وحثّهن على النوم. وعندما أريق الحليب في المرة الثانية، لم أقل شيئاً، بل تناولت فوطة ونظفته.

عندما كنت وزيرة للخارجية، أصدر الرئيس كلينتون أمراً بفرض عقوبات على السودان لانتهاك حكومته حقوق الإنسان، وقصف مدارس الأطفال، ومساعدة الإرهابيين. بدت تلك خطوة بسيطة، ودعمتها، ومع ذلك لم تكن بسيطة؛ والسبب نسغ النبات. فالصمغ العربي المستخرج من شجرة السنط مادّة مستحلِبة طبيعية تستخدم في منتجات مثل قضبان السكاكر والكولا وأدوات التجميل والمفرقعات. ويوجد أكبر معالجين لها في نيوجيرسي، في حين أنّ 80 بالمئة من موارد العالم تأتي من السودان. وسرعان ما تلقّيت مكالمة من عضو الكونغرس عن نيوجيرسي روبرت منديز يطلب استثناء الصمغ العربي

من العقوبات. سألته، "كيف يمكنك أن تطلب استثناء للعقوبات على السودان فيما تعارض بشدّة أي استثناءات للحظر الذي نفرضه على كوبا"؟ فكان جوابه: "الأعمال". وعلى الرغم من اعتراضي، ربح منديز استثناء الصمغ العربي، ولا يزال في القانون. في سنة 2007، أعلنت إدارة بوش عن خطط لكي تفرض الأمم المتحدة عقوبات على السودان في ما يتعلّق بالإبادة في دارفور. فردّ السفير السوداني في واشنطن بالدعوة إلى مؤتمر صحفي. وقف محاطاً بمنتجات المشروبات غير الكحولية وحذّر من أنّ بلده ستردّ على عقوبات الأمم المتحدة بوقف شحنات الصمغ العربي إلى الولايات المتحدة؛ وبالتالي هدّد بضربنا بالهراوة نفسها التي نعتزم استخدامها ضدّ السودان. تلك هي مشكلة العقوبات: غالباً ما يكون من غير الواضح من يعاقب من.

في السنوات الأخيرة، عمل العالم على جعل العقوبات أكثر "ذكاء". والوسيلة المفضّلة هي التركيز على الحسابات المصرفية وحقوق التأشيرات لمسؤولين حكوميين محدّدين وأفراد عائلاتهم. وتقوم النظرية - وهي منطقية - على أنّ الدكتاتور قد ينزعج من فقدان فرص التسوّق والحصول على الثروة الشخصية أكثر من أي مصاعب يتعرّض لها أبناء بلده.

لم يعد استخدام العقوبات الاقتصادية أكثر انقياداً إلى مجموعة صارمة من القوانين من استخدام القوة العسكرية. فلكل عقوبة جوانب فريدة. غير أنّني أقترح أن تقصر أي استخدام إضافي لهذه الأداة على الحالات القصوى، وأن تحلّل مسبقاً مسألة قابلية تطبيقها واحتمال أن ترتدّ القيود علينا. يجب أن تصمّم العقوبات للتأثير على قرارات القادة لا لمعاقبة شعوب بأكملها. ويجب أن تكون جزءاً من استراتيجية شاملة، وأن لا تفرض إلاّ بعد إدراك ما هي الخطوات التالية إذا فشلت في تحقيق هدفها. باختصار، إذا أريد للعقوبات أن تكون فعّالة، فيجب أن تكون أكثر من الرقص تحت المطر الذي نؤدّيه عندما لا نعرف ما نفعل سوى ذلك.

الدبلوماسية، والخطابات، والمعونة الخارجية، والمنظمات الدولية، وفرض القانون، والعقوبات الاقتصادية، والاستخبارات، والقوة أدوات رئيسية متاحة أمامك في متابعة

استراتيجية الأمن القومي. ولن يتحدّد مقياس قيادتك في انتقاء الأداة التي تستخدمها بل ما هو ائتلاف الأدوات، وما هو التوقيت، وما هي التعديلات التي تجريها عندما تمرّ الشهور ويؤثّر كل حدث على الحدث الآخر.

الفصل السادس
احرص على أن تكون مصيباً
ثم امضِ قدماً

يوجد في مكتبي صورة مبروزة معلّقة لجندي وحيد. وقد كتب تحتها، "ابحث في كل الحدائق العامّة ولن تجد نصباً تذكارياً للجنة ما".

في الأشهر القادمة، ستكون محاطاً دائماً بالمستشارين، وبأشخاص تثق بهم مثلما تثق بزوجتك، مع ذلك ستقف وحيداً. فقسم المنصب ينيط بك، كقائد عام وصانع السياسة الأعلى، السلطة الوحيدة لاتخاذ القرار ومسؤولية أن تكون مصيباً. بعض الرؤساء ينجحون كصانعي قرارات، وآخرون يعتادون على الدور، وقلة لا يتعلّمون مجاراة ذلك.

في أثناء رئاسة وردن هاردنغ القصيرة، وجد أنّه غير قادر على تقييم الحاجّات المتنافسة. فعندما يواجه جدلاً، يقنعه أحد الجانبين ثم يقنعه الجانب الآخر حتى يبدأ رأسه بالدوران. فهتف محتاراً، "يجب أن يكون هناك كتاب في مكان ما... يمكنني اللجوء إليه لأقوّي تفكيري به. لكنّني لا أعرف أين يوجد الكتاب، وربما لا أستطيع قراءته إذا وجدته. لا بد أن يكون هناك رجل في البلد يستطيع تقليب رأي الجانبين لمعرفة الحقيقة. ربما يكون في جامعة أو أخرى. لكنّني لا أعرف أين أجده. ولا أعرف من هو، ولا أعرف كيف أصل إليه. يا إلهي هذا مكان أشبه بالجحيم لرجل مثلي".

الرؤساء، مثلنا جميعاً، يتخذون القرارات كل يوم في الشؤون الروتينية، لكنّ الرؤساء وحدهم يتخذون قرارات تصنع التاريخ.

قسّم تيودور روزفلت، وهو دارس للماضي، أسلافه إلى بوكانانيين ولنكولنيين. ورأى أنّ البوكاناني شخص يخشى استخدام صلاحيات الرئاسة ويهاب من القتال. واللنكولني شخص يستخدم صلاحيات منصبه بأكملها أياً كان عناد المعارضة. لن يخلط أحد (بعد) بينك وبين اللنكولنيين، لكن يحسن بك ألاّ تثبت أنّك بوكانان أو هاردنغ؛ فقد انتخبت لكي

تقود.

لا يتطلّب ذلك التحريض على التغيير للسماح لك بادّعاء الفضل في اتجاه جديد. فليس كل شيء مكسوراً، وبعض المشاكل المكسورة لا يمكن إصلاحها بسرعة. التوقيت مهم من وجهات نظر عديدة: الإعلان عن الاستراتيجية، وتقبّل الكونغرس، وتعاون الحكومات الأجنبية، وقدرة الهيئات التنفيذية على المتابعة. ستواجه كمرشّح للرئاسة إغراء محاولة أن تكون كل شيء. قاوم ذلك. ثمة حكمة في قصة إيسوب عن الحمار الذي يطارد الأسد؛ مع ما يستتبعه ذلك من نتائج مأساوية متوقّعة. فيقول الديك، "للأسف، لم يدرك صديقي ما يستطيعه أو ما لا يستطيعه".

من أقل الحيل البارعة فائدة في الحياة السياسية الأميركية الإعلان عن خطة جريئة للمئة يوم الأولى في الرئاسة، حيث تقدّم وعوداً لا تستطيع الوفاء بها. لقد أطلق فراكلين روزفلت الفكرة، لكنّه كان مهتماً في التحدّي الأوحد بتخليص الأميركيين من الكساد. وعندما تولّى جيمي كارتر منصبه في سنة 1977، كان لديه الكثير من الأفكار، ومعظمها أفكار جيّدة. وقد حفزت الحماسة إدارته إلى التحرّك في العديد من المجالات في وقت واحد. وفي الأشهر الأولى اعتمد الرئيس الموازنة ذات الأساس الصفري، ووعد كل دافع ضرائب بتخفيض قدره خمسون دولاراً، وحاول القضاء على المشاريع التي تتودّد إلى الناخبين، واقترح إصلاح موازنات الحملات الانتخابية، وأعلن عن برنامج شامل للطاقة، وعرض خططاً لاحتواء تكاليف المستشفيات، واستضاف ثمانية رؤساء حكومات، وعفا عن المتهرّبين من التجنيد في حقبة فيتنام، وكشف عن سياسة جديدة لحقوق الإنسان، ودعا إلى حظر كل التجارب النووية، وطرح فكرة تطبيع العلاقات مع كوبا، ووافق على دخول فيتنام إلى الأمم المتحدة، وتحدّث لصالح وطن للفلسطينيين، وأرسل سايروس فانس إلى روسيا حاملاً مخططاً للحدّ من الأسلحة أدخلت عليه تعدلات جذرية. فلاحظ الصحفي ديفيد برودر أنّ كارتر لا يحكم كربان لسفينة الدولة بقدر ما يحكم "كقائد كنو مضطرب في المياه المتلاطمة".

كل هذا النشاط أنتج زحمة خانقة حجبت الأولويات وقدّمت للكونغرس أكثر مما

يستطيع التعامل معه، وتجاهل القاعدة الابتدائية للمفهوم العام: إذا طرحت ثلاث أفكار وفزت في اثنتين فسيعتبر ذلك نجاحاً؛ وإذا طرحت عشر أفكار وفزت في أربع، فسيحكم عليك بأنّك فاشل مع أنّك أنجزت الضعف.

بدلاً من محاولة إعادة صنع الأرض في ستة أيام أو ستة وتسعين يوماً، عليك أن تضع خطة للسنتين الأوليين. ما هي الأعمال الملحّة التي لا يمكن اجتنابها؟ وما هي القرارات التي يمكن أن تنتظر؟ كيف يمكنك الاستفادة من الأحداث الدولية المجدولة بالفعل على أفضل نحو؟ انظر في عادة طلب "مراجعة شاملة للسياسة" في بعض القضايا، لا سيما في بداية إدارتك. فسيمكنّك ذلك من طلب الملاحظات، بطريقة منهجية، من الجميع والاستفادة منها. وسيقود ذلك إلى أفكار مفيدة في الغالب، وسيترك انطباعاً بالعمل على الأقل، ويقدّم للناطق باسمك عذراً للتهرّب من الأسئلة، ويتيح نسيان الوعود غير الحكيمة.

ومن الممكن أيضاً عندما تنتهي المراجعة أن يخفّ إلحاح القضية. كان كالفن كوليدج مشهوراً بأنّه لا يتحدّث كثيراً، لكنّه نصح بأنّك "إذا رأيت عشر مشاكل قادمة على الطريق، يمكنك أن تكون على ثقة من أنّ تسعاً منها ستقع في الخندق قبل أن تصل إليك ولن يكون عليك التعارك سوى مع واحدة".

القرارات الجيدة تبدأ بالمعلومات الجيدة، لكن جمع البيانات هو الجزء اليسير. فنحن نعيش محاطين بالإحصاءات والآراء والإشاعات. وكل منا يستطيع أيضاً الوصول إلى وسائل الإعلام واللجوء إلى الإنترنت للحصول على إجابات (وأحياناً إجابات دقيقة) عن كل سؤال. ويستطيع المسؤولون الحكوميون أيضاً الوصول إلى تقارير السفارات، وتقارير الاستخبارات بأشكالها اليومية والأسبوعية والطويلة المدى. والمشكلة ذات شعبتين بالنسبة لكل رئيس: كيف تدير المدخلات بحيث تعرف ما تحتاج إليه دون أن تغمرك. وكيف تميّز الحقائق عن الأكاذيب، وأنصاف الحقائق عن الوقائع التي انقضى تاريخ صلاحيتها.

يمكنك أن تساعد نفسك بالإصرار على تسلّم المعلومات متحرّرة قدر الإمكان من الانحياز السياسي وسواه. غير أنّ هذا التوجيه لا يضمن شيئاً لأنّ كل مصدر من

مصادر المعلومات منحاز إلى حدّ ما، بل إنّ البيانات المكتسبة بالوسائل التكنولوجية بحاجة إلى تفسير. وكثيراً ما حدّقت بطريقة عابثة في صورة فوتوغرافية استخباراتية إلى أن يُشرَح لي مثلاً أنّ البقعة الداكنة في الزاوية مخزن من ثلاث طبقات في الواقع يحتوي على قطع للصواريخ، في حين أن الظلال في الجانب شاحنات مقفلة تنتظر لنقل القطع إلى أماكن لا نريد أن تتوجّه إليها. وكنت آمل أن نكون على معرفة كافية للتمييز بين بقعة وأخرى - فنحن الولايات المتحدة في النهاية - لكنّها بدت لطخات متماثلة بالنسبة إلي.

في البداية، عندما كنت أستاذة في الجامعة، كنت أنتقد المسؤولين العامين لفشلهم في اتخاذ القرارات المثالية. وعندما أصبحت وزيرة للخارجية، التقيت بأساتذة لامونني على عدم اتخاذ القرارات المثالية. عند إدارة شؤون العالم، ثمة فجوة هائلة بين وجهات النظر لدى المنظّر أياً تكن حنكته، والممارس. بل إنّ الذين مارسوا منّا في السابق ينسون في الغالب مقدار تعقيد المناصب العليا. فما من شيء تقرؤه يعدّك بشكل كافٍ لاتخاذ قرارات جيدة، لكنّ بعض العادات مفيدة. وقد أورد ريتشارد نيوستادت بعضها: "مركز القيادة الشخصي، وتعمّد الحصول على التفاصيل، والمناقشة الشديدة للبدائل، والميل إلى عدم حسم الخيارات مسبقاً... وأخيراً المراقبة الوثيقة لإنجاز العمل".

بهذه الروح ربما ترغب في إبقاء أعضاء فريقك دائمي اليقظة بحضور اجتماعاتهم دون إعلان مسبق، والتحدّث هاتفياً مع الخبراء، وزيارة الهيئات. ويمكن أن يضاعف قليل من طاقتك حماسة الذين يعملون لصالحك. بالمقابل عليك الإصرار دائماً على الحقيقة. فثمة ميل في الهيئات إلى المحافظة على امتيازاتها وحماية ظهورها برفض الاعتراف بالمشاكل. تسأل ويقال لك لا تقلق، المشكلة تحت السيطرة. وقد تردّ بأنّ عملك هو القلق وأنّ التبعة لا تتوقّف عندهم بل عندك.

يجب أن تبدأ كل عملية اتخاذ قرار بالمراجعة المشكّكة بالمقدّمات المنطقية التي تدعم السياسة الموصى بها. هذا هو جوهر التفكير الانتقادي: اختبار الافتراضات، والبحث عن التحيّزات، والأهم من ذلك إدراك أنّ طرح الأسئلة ليس علامة على الضعف. ما مقدار قوة الارتباط بين السياسة المقترحة والنتائج المتوقّعة؟ هل الإحصاءات صالحة؟ وهل السوابق

ذات صلة؟ هل يتصرّف القادة الأجانب بالطريقة المتوقّعة؟ وكيف ستستجيب الشعوب الأجنبية؟ لقد أخفق غزو خليج الخنازير جزئياً لأنّ السي آي إيه افترضت، استناداً إلى افتراضات إيديولوجية وأدلة قصصية هزيلة، بأنّ غالبية الشعب الكوبي ستثور على كاسترو عندما تتاح لها أول فرصة. وبعد سنوات، صدمت أميركا بالثورة الإيرانية لأنّنا افترضنا أنّ آية الله الراديكالي لن تكون لديه جاذبية كبيرة في مجتمع حديث. وقد قصرت العديد من مبادراتنا للمعونة الخارجية عن أهدافها لأنّها فشلت في إقامة الارتباطات المنطقية. على سبيل المثال، المعونة الغذائية الخارجية قد تطعم الجائعين لكنّها تخفّض الأسعار وبالتالي تجعل من المستحيل على المزارعين المحليين كسب معيشتهم.

على صانعي القرار الأميركي أن يقوموا بجهد واعٍ ليروا العالم بعيون خارجية. إنّنا نميل إلى الانغماس في ثقافتنا السياسية والاجتماعية بحيث ننسى أنّ الغالبية العظمى في العالم فقيرة، وربع سكان العالم من المسلمين، وأكثر من نصف العالم يعيش في آسيا، وكثيراً منه فتي جداً لا بحيث لا يقدّر الأمور حقّ قدرها. وننسى أيضاً أنّ قوتنا تواجه بالرفض حتى عند السعي للمساعدة.

ربما تسأل عند قياس الردود المحتملة لحكومة خارجية ما: ما هي الخيارات المفتوحة أمام تلك الحكومة؟ ما شعور البلد تجاه نفسه؟ هل يشعر بالظلم ويتوق للقتال، أو أنه قانع بالوضع الراهن؟ هل هو يائس أو واثق؟ ما الذي يتوقعه منا؟

تتأثّر البلدان بالأحداث، مثلها مثل الأشخاص، بحيث تفكّر بطرق مختلفة بشأن ما هو الممكن والضروري. الحرب العالمية الثانية التي خيضت باسم الحرية، غذّت الرغبات الآسيوية والإفريقية بالاستقلال عن الحكم الاستعماري. وقد جعل الغزو النازي السوفيات مصمّمين على إنشاء بلدان دائرة إلى الغرب. ودفع الخوف من الشيوعية تركيا واليونان - رغم العداوة المريرة بينهما - إلى الالتجاء إلى الحلف العسكري نفسه. والثورة الشيوعية في الصين جعلت ليندون جونسون غير راغب في قبول فيتنام شيوعية. وأحدثت كارثة فيتنام رغبة عارمة في تحقيق أصغر انتصار. ففي سنة 1975، أرسل الرئيس فورد قوات المارينز الأميركية لإنقاذ طاقم السفينة التجارية الأميركية "ماياغويز" الذين

احتجزهم الخمير الحمر في كمبوديا. وبناء على معلومات استخباراتية خاطئة، حطّ المارينز في مكان خاطئ، وواجهوا مقاومة عنيفة، وتكبّدوا واحداً وأربعين قتيلاً، وكادوا يفقدون موقعهم. ورداً على ذلك، قصفت الطائرات الأميركية كمبوديا؛ لكنّها فعلت ذلك بعد الإفراج عن تسعة وثلاثين من أفراد طاقم "ماياغويز" بسبب سوء الاتصال. وعلى الرغم من الالتباس وسقوط عدد من القتلى يفوق عدد من أنقذوا، فقد تعامل الأميركيون المتعبون من المعركة مع الحادثة على أنّها انتصار.

الحالة النفسية الجماعية للأمة تجعلها ميّالة إلى القادة الذين يفهمون حاجاتها ويستغلّونها. غير أنّ أعمال الأمة تتوقّف على الاتجاه الذي يقرّر هؤلاء القادة سلوكه. وهناك أكثر من طريق لكي يعيد البلد الذي يشعر بالظلم الاعتزاز بنفسه. والتحدي الذي يواجه العالم هو فهم شخصيات الأشخاص الذين يتعامل معهم مع الوقت. هل ذلك الوطني الشعبي خصم ذو هدف واحد مثل هو شي منه، أو أنّه تهديد للحضارة مثل هتلر؟ هل تلك المجموعة المسلّحة ثلّة غير قابلة للإصلاح من الإرهابيين أم حركة يمكن إقناعها باعتماد الطرق السلمية؟ هناك عالم من الاختلاف بين موغابي ومانديلا، والخميني والسيستاني. ومن بين كل الخصائص التي يتطلّبها عملك، ما من شيء أكثر أهمية من القدرة على إدراك نفسية القادة والأمم الأخرى وقدراتها.

لنفترض أنّك أمام قرار وشيك كرئيس. ومستشاروك جالسون على الكراسي والأرائك، وقد فتحوا كتب الإطلاع، واستعدّوا لتقديم محاجاتهم. تدخل الغرفة وتحييهم ثم تبدأ الاجتماع. من عادة بعض القادة أن يفتتحوا النقاش بالتعبير عن آرائهم وطلب ردّ الفعل. المشكلة بالنسبة إليك أنّك لم تعد مجرّد قائد. فقد يتردّد مستشاروك في القول لك إنّك مخطئ. فهم في النهاية مدينون لك بحصولهم على مناصبهم ونفوذهم وفرصة الحصول على مكان في التاريخ. وعندما تصبح أفكارك على بساط البحث، قد يرفضون الكلام، وما جدوى ذلك؟ من الأفضل بكثير، كما فعل ترومان وكنيدي في أوقات الأزمة، أن تحتفظ بآرائك وتشجّع زملاءك على تقديم أفكارهم. وإذا شعرت بأنّ أحدهم متحفّظ، شجّعه على التحدّث. أكّد على أنّ الشجار الظاهر موضع ترحاب؛ لا الرفض الصامت (لا سيما إذا

كان الأخير مشتركاً مع وسائل الإعلام).

يمكنني أن أشهد أنّ السنة الأولى من عهد كلينتون كانت تتميّز بالاجتماعات غير المنضبطة التي يسمح فيها بمشاركة المستشارين السياسيين الصغار ويكثر الحديث دون اتخاذ قرارات. غير أنّ العادات السيّئة أصلحت، وفي بداية فترة كلينتون الثانية، استقرّ بنا الأمر على ما يشبه روتين الشركات. في الاجتماعات مع الرئيس، غالباً ما كان مدير السي أي إيه جورج تنيت يبدأ الكلام، فيشرح ما نعرفه عن الشخصيات، والسياسة، والاحتمالات التي ينطوي عليها ظرف معيّن. بعد ذلك يشرح ساندي بيرغر القضية المحدّدة التي يجب اتخاذ قرار بشأنها، ومن ثمّ يضع إطار المسألة ويحدّد سياق النقاش التالي. وبصفتي العضو الأبرز في الحكومة، كنت أتحدّث بعد ذلك يليني وزير الدفاع ورئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة. إذا لم تعجبني طريقة وصف ساندي للقضية، كنت أقول ذلك وأعيد صياغة المسألة. وكان آل غور يدلي بدلوه أحياناً، لكنّ كلينتون كان يحب الاستماع أيضاً إلى مساعد غور، ليون فورث، وهو محلّل ذكي ومباشر، ذو منكبين عريضين وسلوك حذر. وكان كبير موظفي الرئيس - إرسكين باولرز أو جون بوديستا- يتدخّل بآرائه وأسئلته.

وعندما نفرغ من بحث القضية، كان كلينتون يشكرنا ويغادر. لم يكن يبلغنا بقراره، أو حتى إذا كان قد استقرّ على قرار. وذلك يمنحه مزيداً من الوقت للتفكير والتداول على انفراد مع غور إذا رغب في ذلك، ومتابعة الأجوبة والجوانب التي لا تزال تلحّ عليه في المشكلة.

ربما يكون القسم الأصعب من اتخاذ القرار هو عدم وجود معلومات بالقدر الذي تحتاج إليه. وأستطيع الآن التفكير في خمسة أسئلة على الأقل كنت أطرحها باستمرار وأنا في منصبي ولم أحصل على إجابات واضحة عنها البتة - لأنّنا لا نمتلك المصادر الجيدة، أو لأنّ المعلومات التي لدينا متضاربة - أين يوجد أسامة بن لادن؟ هل الجيش الباكستاني حليفنا في مقاتلة القاعدة أم جزء من المشكلة؟ هل يمتلك صدام حسين أسلحة دمار شامل؟ ما هي الترتيبات، إن وجدت، التي يقبل عرفات بموجبها السلام مع

إسرائيل؟ هل للقيادة الإيرانية أي مصلحة في تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة؟ إنّ عدم وجود الإجابات لا يعني أنّ بوسعنا تجنّب صنع القرارات. بل يعني فقط أنّ من المرجّح أن نتفاجأ بالنتائج.

عليك أن لا تتعامل مع عملية صنع القرار كميراث يجب المحافظة عليه، وإنما كابتكار من بنات أفكارك. إذا لم يكن القرار ملائماً لك غيّره أو تجاوزه. ويجب أن يكون الأشخاص الموجودون في الغرفة عند التداول الأشخاص الذين تريدهم أن يكونوا موجودين.

اعلم أنّ مستشاريك لا يتأثّرون بوجهات نظرهم داخل البيروقراطية فحسب، بل أيضاً بتاريخهم الشخصي ومعتقداتهم. ولكل منهم صورة شخصية يحافظ عليها، وناخبون معينون يؤثّر فيهم. وربما كتبوا مقالات في الماضي سيسعون إلى تبرير استنتاجاتها. وقد يكون لديهم طموحات مستقبلية يودّون تلميعها. وربما يريدون ترسيخ أوليتهم على زملائهم، وربما يفكّرون بالفعل بشأن ما ستكون عليه صورتهم في كتاب بوب وودورد التالي. عليك أن تكون مدركاً لكل هذه الأجندات.

المستشار البارع على وجه الخصوص في تقديم محاجّة ما سيكون في الغالب أكثر إقناعاً من المستشار الأقل فصاحة رغم ما لدى الأخير من أفكار لا تقل فائدة. وثمة محامون لامعون في واشنطن، بعضهم قد ينتهي به الأمر إلى الجلوس حول طاولتك. المستشار الجيد يرغب دائماً في أن يبدو موضوعياً، وسيبدو الأفضل كذلك بصرف النظر عن الواقع. عليك أن تتذكّر أنّ المحاجّة قد تبدو مقنعة ومع ذلك تبقى خاطئة لأنّ الوقائع غير الظاهرة في ذلك الوقت - أو التي لم تنبّه إليها على الأقل - ستخطّئها.

الرؤساء ليسوا معصومين عن الرغبة الإنسانية بسماع ما يريدون. فإذا كان الرأي العام يطالب الرئيس بالتحرّك في الظروف التي يبدو فيها النجاح غير محتمل، فإنّه سيرغب في معرفة كيف يمكن شرح عدم الإقدام على التحرّك دون أن يفقد شعبيّته. وإذا كان قد التزم بمسار معيّن بالفعل، فإنّه يرغب في أن يقال له إنّه اعتمد الخيار الصحيح. المستشارون الأذكياء (الذين يخدمون أنفسهم أحياناً) يعلمون ذلك وينسجون مقولاتهم

بموجبه. وذلك يعزّز جاذبية كلماتهم؛ لا حكمتها بالضرورة. والمستشار الذي يخالف الاتجاه السائد بإبلاغك بما تكره سماعه يجب الاستماع إليه بعناية. عندما أشار جورج بول على ليندون جونسون بتحويل المسار عن فيتنام، لم يكن باستطاعة جونسون الاختلاف مع مضمون ما قيل له، لكنّه رفض قبول نتيجته. لم يشأ أن يُعرف بأنّه أول رئيس يخسر حرباً. أما بالنسبة إلى بول، فقد اتهمه الصقور بالدعوة إلى سياسة الهروب.

لن يفاجئك أن تكون معظم المعلومات موجودة خارج الحكومة. ربما تنظر في استضافة مآدب عشاء للسياسات يحضرها العلماء والخبراء، ولا ينقل فيها عن أحد قولاً، ولا يشجّع فيها النقاش المفتوح وغير المنضبط. وعليك التماس مشورة رجال الأعمال والمختصين في التنمية الذين لديهم منظور عالمي كأي مسؤول أميركي، وأفكار ثاقبة بشأن كيفية تغيير التصوّرات المتكوّنة عن أميركا. وقد يكون من المفيد أيضاً الاستماع إلى أعضاء الحكومات السابقين المحترمين الذين يمكن أن يضفوا شيئاً من الشكلية الثنائية الحزب على سياسات إدارتك.

لقد شدّدت على أهمية التفكير الانتقادي لأنّ غيابه يمكن أن يدفع حتى الشعب ذا النوايا الحسنة إلى الكارثة. انظر في قصة القوة العظمى التي قرّرت شنّ ضربة استباقية.

كان الزمن قبل 2400 سنة؛ والقوة العظمى أثينا؛ والهدف المقصود صقلية؛ والخطر المزعوم أنّ شعب صقلية قد يتوحّد يوماً ما ويحمل السلاح. كان قادة أثينا واثقين جداً من أنّ غزوهم سينجح بحيث أهملوا تحذيرات العسكريين الذين قالوا إنّ القوة الضاربة صغيرة جداً. وسأل أحد الجنرالات، "ماذا لو وحّد الخوف الصقليين ضدّنا ولم نكسب صداقة أحد منهم"؟ وتابع قائلاً، "حتى إذا قهرناهم، فإنّهم بعيدون جداً وعديدون بحيث لا يمكننا حكمهم".

تلاشت مثل هذه الأصوات في لحظة الانفعالات. ووفقاً ليوريبيدس، "على الرغم من أنّ بعضهم كان رافضاً، فإنّ العاطفة المفرطة جعلتهم خائفين من اعتبارهم غير وطنيين

إذا صوّتوا في الجانب الآخر؛ لذا اعتصموا بالصمت". قرّرت السلطات الأثينية استشارة الكهنة، فأفادوا - كونهم يتلقون رواتبهم من السلطة الرسمية - بأنّ الآلهة إلى جانب الدولة المدينة، وأنّها ستنتصر لأنّها تستحقّ النصر. وهكذا انطلقت الحملة على وقع أصداح الأبواق وقعقعة الصنوج.

عندما وصلت الحملة إلى صقلية، أعلن قادتها أمام السكان المحليين "إنّنا لم نأتِ لنستعبدكم وإنّما لنحميكم من العبودية". لم يقتنع الصقليون بذلك. وعلى الرغم من انقساماتهم السابقة، فلقد اتحدوا معاً ليهزموا الأثينيين الذين اشتكوا قائلين، "رغم الافتراض بأنّنا نحن من يضرب الحصار، فإنّنا كنّا المحاصَرين إلى حدّ كبير".

أخفق الأثينيون في محاولة فتح صقلية بسبب طموحهم الزائد. وفي أثناء ذلك، حوّلوا خطراً قابلاً للاحتواء إلى جرح كبير أوقعوه على أنفسهم بأنفسهم. وأرهق الغزو قوّتهم العسكرية، وأحدث الانقسام في صفوفهم، وحرّر حلفاءهم من الوهم، وأفقدهم مكانتهم العالمية. "وعندما أدرك [الأثينيون] الحقيقة، قسوا على الخطباء الذين انضموا للترويج للحملة... وصبّوا جام غضبهم على الكهنة والعرّافين وكل من أوحى لهم بتأثير الدين في ذلك الوقت بالاعتقاد بأنّهم سيفتحون صقلية".

فتح قرار الأثينيين بالغزو أيضاً الطريق أمام عدوّ أكثر قوة بكثير، والذي أخضع إمبراطوريتهم خلال عقد من الزمن. كان ذلك الخصم بلاد فارس؛ إيران اليوم.

لا يمكن أن يكون التشابه بين الأزمنة الكلاسيكية والحقبة الحديثة دقيقاً، ولا حاجة لأن يكون الماضي تمهيداً للحاضر. يجدر بنا ذكر هذا التشابه، لأنّ قرار إدارة بوش بغزو العراق انتهك مبدأ الحكمة في صنع السياسة. فقد اتخذ القرار، وفقاً لكل الروايات، دون التشاور المسبق مع رئيس الهيئة المشتركة لرؤساء الأركان، أو وزير الخارجية، أو مدير الاستخبارات القومية، وأبلغ كل منهم بأنّ البلد ذاهب إلى الحرب بدلاً من طلب توصيته. في الماضي، دخلت الولايات المتحدة حروباً لأنّها تعرّضت للهجوم (كما في بيرل هاربر وفورت سمتر)، أو دخلت الحرب على رؤوس أصابعها وبشكل تدريجي (كما في فيتنام)، لكن لم يسبق لها في الأزمنة الحديثة أن قرّرت غزو بلد آخر عبر الموازنة بين الفوائد

المحتملة والمخاطر.

الدرس المركزي هو أنّ الجرعة المفرطة من الثقة قد تشكّل إعاقة للرئيس لا تقل عن الإفراط في الخوف. على غرار أثينا، قرّر بوش مساره دون أن يكترث لتحليل العوامل الموضوعية أو ينظر في احتمال أن يكون مخطئاً. وبدلاً من أن يستخدم عملية صنع القرار، دار حولها. وبدلاً من طلب آراء الخبراء، تجاهل التحذيرات التي تطوّع بها أصحابها.

إنّني لا أذكر ذلك لمعالجة نقطة واضحة، لكن لتذكيرك بأنّ محكّ القيادة هو القدرة على التفكير بوضوح في عالم غير واضح، وعدم الكفّ عن التفكير بعد اتخاذ القرارات. فالطريق أمامك مليء بالأشراك والألغام. عليك أن تكون حاسماً في تحديد المسار، لكن من الحكمة أيضاً تعديل المسار عندما تتكشّف مزيد من المعلومات وتكتشف مزيداً من المخاطر.

كان التاجر، وصائد الحيوانات، والمقاتل في الغابات الكثيفة، والمشرّع المعارض للحزب الديمقراطي عن تنيسي، ديفيد كروكت، معروفاً من قبل المعجبين به بأنّ مهده كان مصنوعاً من ترس سلحفاة نهّاشة، وأنّه فُطم على الويسكي وبيض الأفعى ذات الأجراس، وأنّه شبّ ليصبح قوياً ورشيقاً ليصارع دبّاً ويصرعه. إذا جاع فإنّه يفضل شرائح اللحم المملّحة بالبَرَد والمبهّرة بخردق الأيائل والمشوية بالصاعقة. وأكثر ما يذكر به اليوم أنّه كان يتخذ من الحيوانات الميتة قبعات وأنّه توفي في ألامو. إذا فصلنا الحقيقة عن الخرافة، فإنّنا نعرف أيضاً أنّه وضع المثل "احرص على أن تكون مصيباً، ثم امضِ قدُماً". يجب أن تؤخذ نصيحة كروكت على محمل الجدّ، شريطة القبول بأنّ اليقين الذي تسعى وراءه نسبي دائماً، وأنّ الصواب ليس مرضاة من الله بل نتيجة العمل الجادّ: طرح الأسئلة، وتحليل المعلومات، والتماس مساعدة الأشخاص الذين يعرفون ما تحتاج إلى معرفته. إنّ احتمال أن تكون مخطئاً يملي عليك الحذر وترك الأبواب الخلفية والجانبية مفتوحة، حتى عند تنفيذ القرارات التي اتخذتها. وبعد أن تبذل أفضل ما عندك، لا تخجل من تحمّل المسؤولية. فسيغفر لك الناس إذا أخطأت، لكنّهم لن يغفروا لك الوقوف خلف الخاتم الرئاسي ومحاولة إلقاء تبعة الأخطاء على الآخرين.

الفصل السابع

الأسد ومروّضو الأسود

لقد حدّدت القضية، ونشدت المشورة، واستفدت من كل مصادر المعلومات، ونظرت في كل الخيارات، واتخذت قرارك. تتنفّس الصعداء، وتنتقل بعناية لانتقاء البند الشائك التالي من صندوق الوارد. بعد ستة أشهر، يأتي إليك كبير الموظفين ليقول، "سيدي الرئيس، لدينا مشكلة". ويتبيّن أنّها المشكلة نفسها التي كنت واثقاً من أنّك حللتها. فتسأل، "ماذا حلّ بتعليماتي"؟ ويأتي الردّ، "إنّها قصة طويلة".

لتنفيذ قراراتك كرئيس، عليك الاعتماد على المجموعة المتمدّدة من الهيئات الحكومية التي تعرف باسم البيروقراطية. وهذه المؤسسات تستطيع تحدي الفيزياء واستيعاب صدمات الطاقة دون توليد ردّ فعل مساوٍ ومعاكس، أو أي ردّ فعل على الإطلاق. فالموظفون العامون لديهم أولوياتهم ومفاهيمهم المسبقة وطموحاتهم، وهم بخلافك غير محدودين بفترة من أربع سنوات. وهم يعرفون في مجالاتهم الكثير ويرغبون في المساعدة بحمايتك من الأخطاء. ويعرفون أيضاً أن الملامة على التأخير يمكن أن تتوزّع، في حين أنّ الأعمال - حتى التي تنفّذ بناء على سلطة الرئيس - تنطوي على المخاطر حتماً. ومن ثم فإنّ قراراتك لن تسقط على مرؤوسيك كما تريد - كالصاعقة من أعلى - بل ستهبط في الغالب مثل المطر الخفيف من أعلى وتحدث صوتاً خافتاً.

لاحظ جوناثان دانيالز، وهو مساعد لفرانكلين روزفلت أنّ:

> يمكن أن ينسى عضو الحكومة نصف اقتراحات الرئيس. وإذا سأل... ثانية، يمكن إبلاغه أنّهم يجرون تحقيقاً [في الأمر]. وإذا سأل ثالثة، يقدم له المسؤول الحكومي الحكيم جزءاً مما اقترحه على الأقل. لكن الرؤساء لا يسألون ثلاث مرات إلا بين الحين والآخر، ما لم يكن عن المسائل المهمة جداً.

وقال روزفلت نفسه:

> وزارة الخزانة كبيرة جداً، وكثيرة الانتشار، وذات ممارسات راسخة بحيث أجد أن من المتعذر تقريباً تنفيذ العمل والحصول على النتائج التي

> انوخاها... لكن يجب عدم مقارنة وزارة الخزانة بوزارة الخارجية. عليك ان تحاول احداث تغييرات في تفكير الدبلوماسيين وسياستهم وعملهم، وعندئذ تعرف ما هي المشكلة الحقيقية. لكن وزارة الخزانة ووزارة الخارجية مجموعتين معا لا تقارنان البتة بالبحرية. عليك ان تحاول التعامل مع الادميرالات لتعرف ذلك. فتغيير شيء في البحرية يشبه لكم فراش من الريش. تلكمه بيمينك وتلكمه بيسارك الى ان تتعب، ثم تجد انّ الفراش اللعين لا يزال كما كان عليه قبل أن تبدأ اللكم.

في أثناء أزمة الصواريخ الكوبية، صار جون كنيدي يقدّر إحباط روزفلت. ففي أحلك الأوقات، أهملت تعليمات القائد الأعلى في أربع قضايا حاسمة أو أسيء فهمها. فقد أعطى الرئيس تفويضاً بقصف كوبا إذا أسقطت أي طائرة أميركية من طراز يو - 2؛ وقد فسّر سلاح الجوّ ذلك بأنّه تفويض بالقصف في حال مهاجمة أي طائرة. وأمر بوقف عمليات الاستخبارات الاستفزازية، ومع ذلك ضلّت إحدى طائرات يو - 2 طريقها فوق الأراضي السوفياتية، وأمر بعدم إجراء أي اتصال بين البحرية الأميركية والغواصات السوفياتية؛ ومع ذلك أجبرت البحرية الغواصات السوفياتية على الصعود إلى السطح في الكاريبي بشكل متكرّر. وأمر كنيدي سلاح الجوّ بالاستعداد لمهاجمة العدوّ، فبقيت طائراتنا مصطفة في مدارج المطارات، بعضها قرب بعض، ما يوفّر أهداف دسمة في القواعد الجنوبية.

ومع أنّ هاري ترومان عبّر أيضاً عن تبرّمه في أثناء توليه منصبه، فإنّه قال بعد تقاعده إنّ على الرؤساء ألاّ يستخدموا البيروقراطية كعذر: "[حذف الحشو]. إذا كان الرئيس يعرف ما يريد، فما من بيروقراطي يستطيع إيقافه".

يميل زعم ترومان إلى الصواب عندما لا تكون إرادة الرئيس غامضة، وتبلّغ رغباته على نطاق واسع، ويُعيّن مسؤولون متعاونون لتنفيذ قراره ومزوّدون بالصلاحيات على السواء. وغالباً ما يكون القرار الرئاسي محاطاً بالتسوية وعرضة لمختلف التفسيرات، ومفتوحاً للنقاش بشأن من يفعل ماذا ومتى.

وإذا تمّ التوصّل إلى قرار بعد خلافات بين الوزارات، ينتهي الخلاف عندما ينطق الرئيس. ثم يتجدّد ثانية. في الديمقراطية، لا يختفي من يخسر في النقاش أو يطبق فمه،

بل يبحث عن التعزيزات. وتبقى التكتيكات المستخدمة للتأثير في السياسة متاحة حتى عندما يعتقد الرئيس أنّه سوّى المسألة. فلا يزال بالإمكان عقد التحالفات البيروقراطية، وتسريب المذكّرات، والنقل عن المصادر المغفلة، وتقديم الأعذار عن سبب عدم وضع بعض الأعمال موضع التنفيذ حتى الآن. يعيّن البيت الأبيض هيئة قيادة لتنفيذ رغبته، لكن بدون هرمية قيادية. فوزير الخارجية لا يستطيع إعطاء الأوامر إلى رئيس السي آي إيه أو وزير الأمن الداخلي. فالبيروقراطية عصبة من المتساوين الذين لا يعمل أفرادهم معاً بشكل جيد على الدوام؛ وهي عصبة كبيرة.

يوجد لكل هيئة أميركية رئيسية بعض الوظائف الدولية على الأقل. لنفترض على سبيل المثال أنّك قرّرت (كما ينبغي عليك) المساعدة في إنقاذ الأرض بتأييد إجراء دولي قوي بشأن تغيّر المناخ. وهذه قضية واسعة النطاق تحدّثت عنها بحماسة في أثناء حملتك. وهي أيضاً قضية يمكن أن تساعد، كغيرها تقريباً، في إعادة تعزيز سمعة القيادة الأميركية، وتشكّل ابتعاداً حاداً عن الإدارة السابقة. عليك الآن كرئيس أن تفي بوعودك. اتصل بآل غور؛ بل حتى قبل أن يتصل بك. ثم أعلن عن خطط لوضع سياسة شاملة، ولإظهار جدّيتك، سمِّ مسؤولين كباراً من مجلس الأمن القومي والمجلس الاقتصادي القومي للتنسيق. وهم بدورهم يجمعون ممثّلين عن هيئة حماية البيئة ووزارات الخارجية والدفاع والطاقة والداخلية والخزانة والعمل والتجارة والزراعة. ومن المرجّح أن يشارك خبراء من الأكاديميات العلمية القومية. وسيكون للمسؤولين من داخل وزارة الخارجية بمفردها عن الشؤون العالمية والقضايا الاقتصادية والمنظمات الدولية وآسيا وأوروبا وإفريقيا وروسيا وأميركا اللاتينية أماكن حول الطاولة. وسيكون لمكاتب شؤون الكونغرس في كل هيئة ممثّلة مصلحة، وكذلك الأمر بالنسبة لمن ينسّقون مع القطاع الخاص والمجتمع المدني. سنجلس في البيت الأبيض بعد قرارك بأن تكون أميركا قائدة في هذه القضية، لكن الوزارات قد تتصارع شهوراً وربما سنوات للاتفاق على الطريقة الدقيقة التي يجب أن تمارس فيها القيادة، وما الذي يجب أن تنطوي عليه، ومن يتحمّل التكاليف، وكيف يتمّ إقناع الكونغرس والبلدان الأخرى، ما لم تطلب خلاف ذلك شخصياً وبشكل

متكرّر.

ما من رئيس، سواء كان محبوباً أو عازماً، يستطيع تجنّب التأثير التشويهي الذي تمارسه البيروقراطية الفيدرالية على تنفيذ القرارات. أحياناً قد تكون شاكراً لذلك لأنّ الرافضين والماطلين والمشكّكين يكونون مصيبين بين الحين والآخر. وفي أحيان أخرى ستشعر كما لو أنّك تقود سفينة بحجم حاملة طائرات بدفّة مصنوعة لطوف. سيشعر أي رئيس يواجه ممانعة بيروقراطية بإغراء الثوران وطرد بعض الأشخاص، وذلك قد يكون معقولاً إذا عصيت أوامره بصورة مباشرة. غير أنّ إحداث جوّ من العداء بين البيت الأبيض والوزارات لن يخدم عادة أفضل مصالحك.

تمتدّ القيود على سلطة الرئيس خارج البيروقراطية. فالضوابط والزواجر الدستورية تشكّل دعوة للنضال، وتمنح الكونغرس سلطة صرف المال، ودور الموافقة على المعاهدات والتسميات، وفرصة تيسير المفاوضات التجارية أو عرقلتها. وتمنح السلطة القضائية تاريخياً الرئيس سلطة واسعة في إدارة الشؤون الدولية، لكنّها تستطيع مع ذلك فرض تغييرات على السياسات في معاملة المحتجزين الموقوفين في إطار مكافحة الإرهاب على سبيل المثال. ويمكن أن تحدث التسريبات إلى الصحافة اضطراباً في خططك، وتُحدث جواً يوجب التخلّي عن القرارات التي توصّلت إليها بعناية، واستنباط سياسات جديدة. يحاول كل رئيس السيطرة على الأحداث، لكن على القائد العام أن يساير العاصفة في بعض الأحيان.

كثير مما يحدث في الكونغرس يكون مزعجاً أو مدمّراً من وجهة نظر الرئيس. ستطلب المال وستحصل عليه، لكن ليس المبالغ المطلوبة أو للأغراض المنشودة. وستطلب الموافقة على من تسمّيهم، لكنّ بعضهم سيعرقل لأنّ سيناتوراً يشعر بالمهانة أو يعتقد أنّ بوسعه مقايضة صوته بخدمة. وستطلب فرصة غير مقيّدة لتنفيذ سياستك الخارجية، لكنّ الكونغرس سيصرّ على التدقيق في التفاصيل، ويضيف الشروط والقيود إلى كثير مما تحاول القيام به. وستحاول الاستفادة من كل دقيقة، لكن لديك 535 صديقاً في الكونغرس يريدون الردّ على مكالماتهم.

يكون الكونغرس في أحسن أحواله عندما يُخضع السلطة التنفيذية للمساءلة عن السياسات التي أسيء تقديمها للشعب الأميركي. يمكن أن تكون جلسات الاستماع التحقيقية أو الإشرافية معذّبة للذين يطلب منهم الشهادة، لكن تبادل الكلام علناً بين ممثّلي الشعب والممسكين بالسلطة الإدارية هو جوهر الديمقراطية. والسيناتور أو النائب الذي يطرح سؤالاً استقصائياً لا يتحدّث باسمه عادة، بل باسم الملايين من الأميركيين. في فترة جورج دبليو بوش الأولى، كان الكونغرس محازباً ومتخاذلاً. ومنذ انتخابات نصف المدة في سنة 2006، صار مجلسنا التشريعي - على الرغم من أنّه لا يزال محازباً - يثير الصخب لصالح الشعب.

من الشائع التفجّع على الأيام الماضية عندما كان الكونغرس مليئاً برجال دولة لا كائنات مسيّسة كما لدينا اليوم. وأجد من الصعب إجراء مقارنة عبر العقود. أعرف أنّ دانيال وبستر، في أوائل القرن التاسع عشر، كان محدوداً بمصالح صناعة صيد السمك في نيوإنغلند مثل إدوارد موسكي السيناتور عن ماين الذي عملت معه في السبعينيات. ويظهر إلقاء نظرة على مناقشات الكونغرس السابقة مزيجاً من المبادئ الأخلاقية السامية والطويلة النفس لا يختلف كثيراً عن المناقشات اللامعة أحياناً والمتوسّطة المستوى في الغالب التي نشاهدها اليوم على تلفزة سي سبان (C-SPAN). لقد أثار المعلّقون الضحك على مجلسنا التشريعي القومي منذ أقدم الأوقات. وليس هناك كثير مما يقوله ديفيد لترمان أو جون ستيوارت أو ستيفن كولبرت ولم يقلهُ في حقبة سابقة أمثال هـ. ل. منكن، أو مارك توين، أو ويل روجرز (لاحظ روجرز "أنّ البلد يتملّكه عندما ينعقد الكونغرس الشعور نفسه الذي ينتابنا عندما يحمل الطفل مطرقة").

لذا لا تهمل الخصائص السامية لأعضاء الكونغرس. صحيح أنّ بعض الأعضاء لا يمكن رفعهم حتى برفش آلي، لكنّ معظمهم مجتهدون ويبحثون عما هو أفضل للبلد. كما أنّ هناك في كل جيل حفنة من قادة الكونغرس الذين لديهم الجدية والمكانة لكي يكونوا أقوى شركاء الرئيس وأشد المنتقدين له. هؤلاء ليسوا أشخاصاً يتجاهلون التسميات السياسية، لكنّهم يعرفون على الأقل متى يجب كبت الاعتبارات الحزبية من أجل صالح

الأمة. إنّهم أذكياء ومتمرّسون ونافذون ووطنيون، ولا يخطّطون جميعاً للحلول محلّك. اسعَ إليهم. ادعُهم إلى مشاركتك الوجبات في البيت الأبيض. فسيكون ذلك منعشاً على المستوى الشخصي، ومساعداً لإدارتك.

آمل أيضاً أن تعلّم الرأي العالم عن قيمة سفر أعضاء الكونغرس. فثمة خرافة مضرّة مفادها أنّ المشرّعين عندما يسافرون إلى الخارج يمضون معظم أوقاتهم في مشاهدة المعالم السياحية والتسوّق ولعب الغولف وشرب المشروبات الغريبة. عندما كنت في الحكومة، حثثت أعضاء الكونغرس على السفر لكي يعرفوا ما الذي أتحدّث عنه عندما أطلب مساعدتهم. لا يمكننا في أي حال قيادة عالم لا نفهمه. فالسيناتور أو النائب الذي يواجه الفقر المدقع لأول مرة لن يرغب في تصديق ذلك، لكنّه لن ينساه البتة، وسيتغيّر على الفور، وللأفضل دائماً. وعضو الكونغرس الذي يستمع بشكل مباشر إلى قصص العائلات التي فقدت بيوتها، والنساء اللواتي تعرّضن للاغتصاب في أثناء الحرب الأهلية سيدخل أفكاراً مختلفة إلى المناقشات المستقبلية بشأن دور أميركا. والسيناتور الذي يجتمع مع قادة المجتمع المدني في باكستان أو كولومبيا أو بوروندي سيتعلّم بسرعة أنّ القرارات الرشيدة التي تتخذ في واشنطن يمكن أن تقلب حياة الملايين رأساً على عقب، وأنّ أخطاءنا يمكن أن تودي بحياة آلاف الأشخاص.

من المفيد عند التفكير في الكونغرس الفصل بين ما يحدث دائماً وما يمكن أن يحدث. أنت تعلم أنّ الكونغرس يقرّ الموازنة ويحكم على التسميات للمناصب. هذه العمليات يمكن أن تضرّ أو تساعد، وتتطلّب الاهتمام. والتحدي الأكبر هو استقطاب تأييد المشرّعين الرئيسيين في المسائل المثيرة للخلاف. ويتطلّب ذلك التشاور، والتوقيت الصحيح، والرغبة في إعطاء قادة المشرّعين حصة من النجاح. لقد وعد السيناتور فاندنبيرغ الرئيس ترومان أن يتعامل مع القضايا بطريقة لاحزبية شريطة "مشاركته في المغانم والمغارم". وفي عهد كلينتون سمحنا لجيسي هلمز بأن ينسب الفضل إلى نفسه في منعنا من القيام بعدة أشياء لم نكن نعتزم القيام بها، مثل منح روسيا دوراً في صناعة القرار في حلف شمال الأطلسي. وقد مكّن ذلك هلمز من تأييد أولويتنا (توسيع حلف شمال الأطلسي)

والمحافظة في الوقت نفسه على صورته الملمّعة كيميني مشاكس.

ثمة تنازع بين الكونغرس والسلطة التنفيذية منذ أكثر من مئتي سنة على الزواجر والضوابط التي تنطوي عليها قرارات نشر القوات الأميركية. وكانت السلطة التنفيذية تشعر عادة بالغيرة من سلطة الكونغرس، لكنّها قرّرت في إحدى الحالات الإذعان بذكاء.

في السنة 1954؛ تعرّض دوايت أيزنهاور إلى ضغط من المحافظين لإنقاذ القوات الفرنسية الاستعمارية التي يطوّقها الشيوعيون الفيتناميون الشماليون في ديان بيان فو. كان ذلك في حقبة مكارثي، حين كان قيام أيزنهاور برفض التحرّك سيثير مزاعم بالتراخي وحتى الخيانة. غير أنّ قضية الفرنسيين كانت خاسرة، مثل النضال الأوسع والأكثر إثارة للريبة للمحافظة على السيطرة الأوروبية في آسيا. لذا رأى أيزنهاور أنّ من غير الحكمة إرسال قوات أميركية لمساعدة الفرنسيين، لكن من الحماقة السياسية قول ذلك. وبدلاً من القيام بأي من الأمرين، وعد بالنظر في التدخّل العسكري الأميركي، وإنما يجب أن يتم وفق آليات دستورية تتطلّب دعم الكونغرس. وذلك يحيل مسؤولية التحرّك إلى الكونغرس مباشرة، وهو كما كان أيزنهاور يتوقّع، يفضّل الكلام عن الفعل. وبهذه الطريقة تمكّن الرئيس من اتخاذ موقف مبدئي إلى أن تناقش القضية، وهو ما لم يتأخّر حدوثه نظراً لاستسلام الفرنسيين.

لم يكن أيزنهاور يريد نشر الجيش الأميركي، فيما كان العديدون في الكونغرس يريدون ذلك؛ وغالباً ما يكون الوضع معكوساً. لقد عفا الزمن على المفهوم الأصلي بأنّ الكونغرس يعلن الحرب والرئيس يشنّها، وذلك لا ينطبق على الولايات المتحدة فقط. فنادراً ما يتمّ الإعلان رسمياً عن الحرب، فيما تحدث التدخّلات العسكرية بشكل متكرّر. وتتسع المفردات الحديثة لمجموعة من الأعمال غير السلمية والتي لا تشكّل حرباً بالضبط: مكافحة التمرّد، والضربات السرية، والقصف العقابي، والإجراءات الشرطية، والتدخّلات الإنسانية.

في سنة 1973، اعتمد الكونغرس قرار سلطات الحرب، وهو مصمّم للحدّ من نشر القوات الأميركية في أوضاع قتالية دون موافقة السلطة التشريعية. وعلى الرغم من أنّ

السلطة التنفيذية غير راغبة في التسليم بدستورية القرار، فقد وجدت الإدارة طرقاً للامتثال لروحه. ومن هذه الطرق تشجيع التصويت الداعم قبل الانتشار. وهو ما حدث في حربي الخليج وتدخّل حلف شمال الأطلسي بقيادة أميركية في كوسوفو. وتجري مؤخّراً مناقشة مسألة هل باستطاعة الكونغرس وضع قيود على سلطة الرئيس في إدارة الصراع الجاري؟ وإذا كان الأمر كذلك، هل من الحكمة القيام بذلك؟ يمكنك كرئيس التقليل من هذه الخلافات عن طريق التشاور مع الكونغرس بشكل منتظم، وبأن تكون نزيهاً. ويمكنك تجنّبها تماماً باتخاذ قرارات صائبة بشأن استخدام القوة.

يشعر كل رئيس بأنّ وسائل الإعلام غير منصفة؛ وبعضهم يعتبرونها طائشة إلى حدّ الخيانة. فقد تمنّى جورج واشنطن أن يكون "الطابعون أكثر تكتّماً في مطبوعاتهم". ولاحظ جفرسون، نصير الصحافة الحرّة، أنّ "من لا يقرأ شيئاً على الإطلاق أفضل ثقافة ممن لا يقرأ سوى الصحف". ووصف جون كوينسي آدامز الصحفيين بشكل جماعي بأنّهم "نوع من القتلة الذين يجلسون على نواصي الشوارع حاملين غدّارات معمّرة ويطلقونها على أي مسافر يختارونه مقابل أجر أو للتسلية". وكان مارتن فان بورن أكثر شجناً: "لماذا لديهم هذه اللهفة للإساءة إليّ؟ إنّني أحاول أن أكون غير مؤذٍ".

بل إنّ لنكولن أشار إلى "الصحافيين السفلة" واتخذ تدابير مضادّة لتحسين صورته. فاشترى في بنسلفانيا التغطية اللطيفة من صحيفة "فيلادلفيا برس" بتعيين ابن الناشر وصهره وابن عمه والناشر نفسه في وظائف حكومية، ومنح عقود مجزية للصحيفة.

كان وودرو ويلسون أوّل من حدّد اجتماعات منتظمة مع رجال الصحافة. وتخلّى عن هذه العادة في أثناء ولايته الثانية المضطربة، ولم يعاود خلفاؤه الثلاثة المتحفّظون، وكلهم جمهوريون، إحياءها. بدأ التقليد الحديث مع فرانكلين روزفلت المجتهد الذي عقد مؤتمراً صحفياً بعد أربعة أيام من تنصيبه. وتُركت مهمة السجل الرسمي إلى سكرتيرته الشخصية التي سرعان ما استحوذ النقاش على اهتمامها فنسيت تدوين الملاحظات. وتابع روزفلت لقاءاته مع الصحافة بانتظام، ولم يكن يرفض الإجابة سوى عن الأسئلة الافتراضية. وكانت إجابات الرئيس ترمي إلى تقديم خلفية فحسب، ولا يمكن أن ينقل

أحد عنه دون إذن. لكن تراجعت ملاءمة الغفلية أمام تقدّم التكنولوجيا عندما بدأ أيزنهاور المؤتمرات الصحفية المتلفزة في الخمسينيات. وعندما سئل عن إسهامات نائب الرئيس نيكسون في إدارته، ردّ أيزنهاور على الصحافيين قائلاً، "ربما آتيكم بواحدة، إذا منحتموني أسبوعاً".

إنّ التودّد إلى وسائل الإعلام أمر ميؤوس منه، حيث لم يرضَ أي رئيس طويلاً عن النتائج. وستثور على كثير مما يكتب عنك مهما كنت حليماً. أنت في البيت الأبيض تريد أن تلعب دور برسبيرو، الفنّان الساحر الذي يدير الأحداث. وتريد أن تظهر استراتيجياتك بسلاسة ووفقاً للمواعيد المحدّدة. غير أنّ الصحافيين، الجيدين على الأقل، لا يحصلون على رواتبهم ليجلسوا وينتظروا، بل سيفعلون كل ما بوسعهم ليكشفوا عن الأمور قبل أوانها، فيما الممثّلون لا يزالون يحفظون أدوارهم.

بما أنّك تعرف أنّ دوافعك هي تحقيق الأفضل، فستلوم الصحافة لا لأنّها أفسدت عرضك فحسب، بل لأنّها تلحق الضرر بالبلد أيضاً. فكل انتهاك للسرية، من وجهة نظر الرئيس، يضعف المصالح الأميركية، بل ربما يعرّض حياة الناس للخطر. أما من وجهة نظر الصحافي، فإنّ الكشف عن المعلومات، سواء أكانت سرية أم لا، يشكّل مساراً للتقدّم في المهنة وواجباً مهنياً على السواء. فيما يلي ما كتبه والتر لِبمان عن عمل المراسل الصحفي في واشنطن:

> إن عملنا أن نكتشف ما الذي يجري تحت السطح ووراء الافق. أن نستدل على ما يحدث في الداخل ونستنتجه ونتخيله ونخمنه. وما الذى عناه هذا الامر البارحة وما الذى يمكن ان يعنيه غدا. وفى هذا الاطار نفعل ما يفترض بكل مواطن سيد ان يفعله. ولكن ليس لديه الوقت او المصلحة لكى يقوم به بنفسه. لدينا الحق ان نفخر بعملنا وان نسرّ به.

عندما يؤدي الصحافيون أعمالهم، فإنّهم ينجحون، بطبيعة الحال، بالكشف عن أمور غير مصرّح بها والنقل عن مصادر مغفلة. وستكره تلك الانتهاكات (باستثناء تلك التي تديرها بنفسك) لأنّ معظمها يأتي من أعضاء في فريقك. وقد قال كنيدي إنّ سفينة الحكم هي السفينة الوحيدة التي ترشح من أعلى. وأمر نيكسون بتركيب أجهزة تنصّت

في هواتف موظفيه. وأقنع مستشار الأمن القومي لريغان الرئيس بإخضاع كبار مساعديه - بمن فيهم نائب الرئيس بوش ووزير الخارجية شولتز - لاختبار كشف الكذب. وقد ألغي هذا التوجيه عندما ذاع خبره؛ إذا لم يكن الرئيس يستطيع الاعتماد على معظم مستشاريه الكبار، فلماذا يعتمد عليهم الآخرون؟ أما الإدارة الحالية فقد أدانت التسريبات، وهدّدت بطرد المسؤولين عنها، ثم أمسك بها تتعمّد كشف هوية عميلة سرية في السي آي إيه. من الصعب تحديد إذا كان هناك أي مبدأ غير المصلحة الشخصية في العمل.

إنّني أتوقّع أن تجد أنّ فرض القوانين المضادّة للتسريبات أمر عسير لأنّ كثيراً من الأشخاص ينتهكون القوانين ولأسباب مختلفة. عليك أن تضع القوانين للحؤول دون انتشار التسريبات في إدارتك، لكن إذا سمحت لكل حادثة من هذا النوع أن تزعجك، فلن ترى الكثير من الأيام الطيّبة.

ستكون سكرتيرتك الصحفية من أكثر الأشخاص بروزاً في فريقك. وعليك اختيار إطلاعها على كل خطط إدارتك، أو إخفاء المسائل الحسّاسة عنها. في الحالة الأولى ستتهمها وسائل الإعلام بالاحتفاظ بالمعلومات، وفي الثانية أنّها ليست في عداد الدائرة الضيّقة. وأفضل السبل هو انتقاء متحدّثة يمكن ائتمانها على الحقيقة ويمكنها أن تخبر الصحافيين متى لا تستطيع التحدّث. ربما لا يرضي هذا النهج الصحافة، لكن من الأفضل أن تنتقد ممثّلتك على عدم قول ما تعرف على أن تتعرّض للسخرية لأنّها لا تعرف شيئاً جديراً بالتحدّث عنه.

يجب ألاّ يُقلق التوتّر الملازم للعلاقة بين البيت الأبيض والصحافة الرئيس المدرّب على مراعاة بعض التكتيكات الأساسية للمحافظة على البقاء: تحمّل المسؤولية، والاعتراف بالأخطاء، والإعلان عن الأخبار السيئة بسرعة، والإقرار بوجود عدم الانسجام قبل أن يشير إليه الآخرون. نادراً ما تستطيع الصحافة بمفردها إحباط رغبات الرئيس. ولا تتعرّض السلطة التنفيذية لاختبار حقيقي إلاّ عندما تجتمع الصحافة والكونغرس وعناصر من البيروقراطية معاً لمعارضة سياسة ما. وعندما يتراكم الزخم، يجب فعل شيء

لتنفيس الهواء. في أثناء حرب فيتنام، اتخذ جونسون ونيكسون خطوات عديدة لتهدئة المعارضة، مثل وقف القصف، وسحب القوّات، والإعلان عن بلوغ نقطة تحوّل. وعندما أذعن نيكسون في نهاية المطاف، ادّعى أنّه حقّق "السلام بكرامة". وعندما سحب ريغان القوات الأميركية من لبنان، أصرّ مستشاروه على أنّه "لم يتغيّر أي شيء. إنّنا لا نغادر لبنان، بل تمّ نشر المارينز على بعد ميلين أو ثلاثة إلى الغرب". وتُرك للصحافة أن تلاحظ أنّ ميلين أو ثلاثة أو إلى الغرب تعني أنّ المارينز هم الآن على متن سفنهم.

عندما كنت سفيرة في الأمم المتحدة، أشرت إلى السي أن أن بأنّها العضو السادس عشر في مجلس الأمن لأنّ لهذه المحطّة تأثيراً على قرارات المجلس أقوى من تأثير معظم الحكومات. فقد كان منظر كريستيان أمانبور وصوتها في موقع إحدى المجازر في سراييفو أو داخل مخيّم للاجئين في إفريقيا يثيران أسئلة يريد الجمهور الإجابة عنها. غير أنّ الزمن أضعف حدّة مثل هذه التقارير، سواء أكان ذلك للأسوأ أم الأفضل - وأعتقد أنّه للأسوأ - كما رأينا في العديد من المرات.

البيروقراطية والكونغرس والصحافة تقيّد جميعاً سلطة الرئيس - كما ينبغي - لأنّها جميعاً مؤسسات ديمقراطية. وثمة ضوابط أخرى أيضاً، لاسيما الرأي العام نفسه، الذي يمكن أن يرفض إعادة انتخاب رئيس شعبي أو يحدث ضجّة لإعاقة بعض سبل التحرّك.

من المعروف أنّ الرئيس بوش ونائب الرئيس تشيني خاصة جاءا إلى الحكم عازمين على توسيع صلاحيات الرئاسة. فادعيا سلطات قانونية لا يمتلكانها للتنصّت على المكالمات، واحتجاز المشتبه بأنّهم إرهابيون، واستجواب السجناء. واستخدما بشكل متكرّر حقّ السلطة التنفيذية في منع الكونغرس من الاطلاع على بعض الوثائق، واختطفا الامتيازات التشريعية والقضائية بإلحاق تفسيراتهما الخاصة المشكوك فيها بالقوانين الموقّع عليها حديثاً. ومن المرجّح أن يؤدّي نهجهما، الذي يراه مؤيّدوهما جريئاً ويراه من تبقى منّا عجرفة وكبرياء، إلى إضعاف سلطتك كرئيس أكثر من تقويتها. فستتعرّض منذ يوم تولّيك السلطة لضغوط لكي تنأى بنفسك عن إساءات سلفك. وعليك أن تفعل ذلك، لا أكثر. استخدم مستشارين قانونيين يجهدون للمحافظة على كل ذرّة من سلطتك القانونية،

ويخبرونك بصراحة أيضاً أين توجد الحدود. ذلك هو النهج الصحيح من حيث المبدأ والممارسة. فالتاريخ لم يكرم الرؤساء الهيّابيين، ولم يرحم أولئك الذين اعتقدوا أنّهم فوق الدستور.

لقد أشار عالم السياسة كلينتون روسيتر إلى الرئيس بأنّه "أسد عظيم يستطيع أن يصول ويجول، ويحقّ المآثر ما دام لا يحاول الإفلات من المحمية الواسعة... ولن يشعر سوى بقليل من الضوابط على سلطته إذا حاول استخدامها كما ينبغي له. وقد يكون ذلك التعريف الجيد والنهائي للرئيس القوي والناجح: من يعرف إلى أي حدّ يستطيع الذهاب في الاتجاه الذي يريد".

يجدر تذكّر هذه الكلمات عندما تتغاضى حكومتك عن تعليماتك، ويصدر الكونغرس مذكّرات استدعاء للشهادة أمامه، وتتنافس وسائل الإعلام للفوز بجوائز بوليتزر على حسابك، ولا تستطيع أن تلقي خطاباً في حفل تخرّج دون أن يقف عشرات الطلاب (وبضعة أساتذة) احتجاجاً. فكّر دائماً، "إنّني أسد عظيم". ونأمل أن يكون ذلك صحيحاً بالنظر إلى العمل الذي ينتظرك.

القسم الثاني

الفصل الثامن

أسس جديدة

لا مفرّ من أن يشكِّل الرؤساء التصوّرات عن بلدنا من خلال ما يقولونه ويفعلونه، ومن خلال خصائصهم الشخصية أيضاً. لكن ما من فرد يستطيع أن يمثّل شعباً بأكمله بإنصاف، ومع ذلك غالباً ما يبدو أنّ القادة البارزين يجسّدون خصال الأمم؛ مثابرة تشرشل، واعتداد ديغول بالنفس، واستقلالية نهرو، وكرامة الملك حسين، وتركيز دنغ كسياو بنغ.

ما هي الخصال التي ترمز إلى الولايات المتحدة؟ غالباً ما يلجأ الكُتّاب بصورة تلقائية إلى الفرنسي ألكس دي توكفيل للحصول على جواب. أما أنا فسأنقل عن ألماني وسويدي.

كان بول تيليك، اللاهوتي البروتستانتي البارز، من بين العديد من المفكّرين الألمان الذين هاجروا إلى أميركا بعد تسلّم هتلر السلطة. وفي منتصف القرن الماضي، كتب ممتناً عن وطنه الجديد:

> ثمة شيء مدهش في الشجاعة الاميركية يلاحظه المراقب الذي ياتي من اوروبا: على الرغم من انها ترمز في الغالب الى الرواد الاوائل فانها حاضرة اليوم لدى الغالبية العظمى من الناس. ربما يشهد المرء ماساة، أو مصيرا مدمرا، أو انهيار القناعات، أو حتى الذنب أو القنوط المؤقت، لكنه لا يشعر بانه مدمر أو مفرغ من المعنى، أو مدان أو يفقد الرجاء... الاميركي النموذجي، بعد ان يفقد اسس وجوده، يعمل من اجل اسس جديدة. وينطبق ذلك على الفرد كما ينطبق على الأمة.

التقييم الثاني، وهو من منتصف القرن الماضي أيضاً، يعود إلى الصحافي فكتور فِندي الذي تنقّل كثيراً في الولايات المتحدة:

> المزية الاعظم للاميركيين، والتي غالبا ما يسخر منها الاوروبيون، هي ايمانهم بالتقدّم ومجاهرتهم بالديمقراطية... لقد خلف الكساد آثارا لدى معظم الاشخاص في الولايات المتحدة، وربما لا يرجع ذلك الى المتاعب التي

رافقته بقدر ما يرجع الى اليأس وانعدام الأمل في الغد الذي يميّزه. لقد كانت المرّة الأولى في التاريخ التي يشكّ فيها الأميركي في نفسه او في مستقبل بلده. غير أن الايمان بالتقدم أقوى اليوم في أميركا مما كان عليه من قبل.

تعكس هاتان الشهادتان أميركا في أحسن أحوالها: التفاؤل والمرونة والإيمان بالحرية، ويمكن أن يضيف المرء الثقة بأنّ تجربتنا القومية تهمّ العالم أجمع. ومع ذلك من ذا الذي يصف الأميركيين اليوم بهذا الإطراء؟

تبرز الخرافات القوية من الثورة والمقاومة؛ أما أميركا في الوقت الحاضر فإنّها معروفة بالامتياز والوضع الراهن. لقد نسب تيليك إلى الأميركيين الشجاعة، لكن من الصعب أن نبدو شجعاناً عندما نكون محظوظين بهذا القدر؛ فنحن نستهلك ربع موارد العالم ولا يزيد عدد سكاننا عن 4 بالمئة من سكانه، ونستطيع أن ننفق على الدفاع قدر ما ينفق العالم مجتمعاً. لكن يتردّد حتى أصدقاؤنا في اتباعنا، مع أنّنا لا نزال نحظى بالإعجاب بسبب إنجازاتنا العلمية والمادية. وبلغة الملاعب، يشعر العديدون بأنّنا كبرنا جداً، ويريدون الحطّ من شأننا.

غالباً ما يولّد القادة الأقوياء الاستياء، غير أنّ إثارة الاستياء ليست دليلاً على القيادة القوية. النجاح يدوم بالاحترام والثقة وشيء من العاطفة. وتلك المزايا لا تقدّر بثمن الآن، عندما لا يمكن أن تحلّ المشاكل الكبرى إلا بتكاتف الأيدي. وسيتوقّف تجديد القيادة الأميركية على ما إذا كنت ستستعمل أدوات الرئاسة بطرق تلهم على التعاون. لذا أكّد منذ اليوم الأول على رغبتك في الاستماع إلى الآخرين، مع العلم أنّك ستجتذب الشكاوى أكثر من الحلول. مع ذلك فإنّ الاستماع ضروري، إذ على الرغم من أنّ القليل من البلدان تتوقّع أن تفعل أميركا ما تطلبه منها، فإنها جميعاً تريد منا أن نهتم بما تقوله.

عندما تجلس مع مستشاريك لأول مرة، ستجدهم مهتمّين بالقضايا الملحّة في مجال مسؤوليتهم المحدّدة. وستكون مهمّتك التوصّل إلى الخيارات الصحيحة في كل ميدان، دون أن تغفل عن ما يجب أن تكون عليه الصورة الإجمالية. ستكون متلهّفاً لترك بصمتك، لكن لا تستعجل. يجب أن تستخدم الأشهر الأولى في صقل أولوياتك وقياس الوضع

الدولي. وبحلول الربيع تكون قد التقيت بمعظم الزعماء وتبادلت الآراء معهم. وسيتكوّن لديك شعور أفضل بمواطن قوة فريقك للأمن القومي وضعفه، وستكون قد أنشأت علاقات جديدة مع الكونغرس. ومن خلال تجربتك المعارك المبكّرة، سيتكوّن لديك فهم أعمق لأدوات السياسة الخارجية، وماذا يعني أن تكون الدبلوماسي الأول والقائد الأعلى. وعندما تعثر على الطريق الذي تسلكه، يكون الوقت ملائماً لتعلن على الملأ الخطوط العريضة لاستراتيجية الأمن القومي الشاملة.

من السوابق التي عليك أن تنظر فيها ما فعله جون كنيدي. فقد وجّه بعد مرور أربعة أشهر على رئاسته رسالة خاصة في جلسة مشتركة للكونغرس عن "الاحتياجات القومية الملحّة". استغلّ كنيدي تلك المناسبة للكشف عن مبادراته المستقبلية في الدبلوماسية والتنمية وإعادة التنظيم العسكري والحدّ من الأسلحة. وأعلن أيضاً، على وقع التهليل، عن الالتزام بإنزال إنسان على سطح القمر في نهاية العقد.

عليك أن تدرك، فيما تستعدّ لتقديم استراتيجيتك، الحاجة إلى أن تنفّذ أكثر مما تتكلّم؛ عليك أن تكون مقنعاً. سيكون لديك على الورق لائحة بالأفكار والأولويات. وعلى المنصّة ستحتاج إلى قصة. فالمشاكل التي نواجهها معروفة جيداً. وهي قضايا تشغل العالم منذ عقود، في حالة الأسلحة النووية. وتشغله منذ قرون في ما يتعلّق بمعضلة الشرق الأوسط. لكي يُستمع إليك، عليك أن تتحدّث عن المشاكل القديمة بطرق جديدة ومفاجئة.

عندما تفعل ذلك، تنبّه أنّك لست راوي القصص الوحيد في الشارع. فمئات الملايين من البشر تكيّفوا على الاعتقاد بأنّ الرئيس الأميركي منافق وكاذب. يجب أن تقترن الكلمات بالأفعال، إذا أريد لها أن تكون مقنعة؛ مع ذلك فإنّ الكلمات مهمة إذا كانت تخاطب الطموحات العالمية، وتطمئن الحذِر، وتجعل المعتدي يفكّر مرتين. في فيلم "كباريه"، ينهض نازي شاب، ذو عينين زرقاوين وشعر أشقر، عن كرسيه ليغنّي "الغد لي". وعلى أميركا ذات الشعر المتعدد الألوان والبشرة المتعدّدة الألوان أن تقف من أجل مبدأ مختلف: الغد ليس لأي أمة أو فئة، الغد لنا جميعاً.

كان البقاء والرغبة في التحسّن الاقتصادي الشغل الشاغل للمستوطنين الأوروبيين الأوائل في أميركا، ثمّ الروّاد الذين اندفعوا دون هوادة (ودون رحمة أحياناً) نحو الغرب. وفي حقبتنا الحالية، تدفع هذه الغرائز نفسها مئات الملايين من البشر في العالم النامي من المناطق الريفية إلى المناطق الحضرية. وقد حوّل هؤلاء الروّاد الحديثون المدن الكبرى إلى تجمّعات بشرية هائلة. ومن المتوقّع أن يؤدّي اجتماع القدرة على الحركة والخصوبة إلى مضاعفة سكان الحضر في العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن. وعند نهاية رئاستك، سيزيد عدد المدن التي يفوق تعدادها خمسة ملايين نسمة في البلدان النامية عن خمسين مدينة، يعيش غالبيّتهم خارج أي نظام حماية قانوني للحقوق. وإذا ترك هؤلاء السكان عاطلين وفاقدين للأمل، فسيهدّدون بحدوث اضطرابات سياسية غاضبة. ومن المقلق ألاّ ينظر إلى أميركا اليوم كجزء من الحل لهذه المشكلة، بل كأحد أسباب التباعد الواسع بين الأغنياء والفقراء.

إنّ رئيس الولايات المتحدة، بحكم منصبه، رمز للعولمة. فلدينا نفوذ في المؤسسات المالية الدولية يفوق نفوذ أي بلد آخر. المنصب الأعلى في البنك الدولي معقود لأميركي على الدوام. وينادي قادتنا بفضائل التجارة الحرة منذ الكساد العظيم. وتعني ثروتنا وقوّتنا أنّنا مسؤولون عن العالم كما هو؛ وبالنسبة للناس الذين ليس لديهم شيء أو لديهم القليل جداً، لا يمنحنا ذلك أي فضل.

بعد موت الشيوعية وافتراض انتصار الرأسمالية، ربما نظن أنّه يمكن نسيان الماركسية بسلام. مع ذلك فقد توقع ماركس بأن تفشل الرأسمالية لأنّها تركّز الثروة في أيدي القلة. وهذا ما يحدث باطراد داخل الأمم وفيما بينها. لقد ترافقت العولمة مع تنامي اللامساواة، رغم الاحتفاء بها لأنّها تزيد الإنتاجية. ويزعم أنّ هذا الانقسام سببه مصالح الشركات التي استخدمت سلطتها لفرض قوانين جائرة تحكم التجارة والسياسات الضريبية. وبما أنّ القوانين جائرة، فإنّ الوصفة الغربية للعافية الاقتصادية، المتجسّدة بما يدعى إجماع واشنطن (الموازنات المنضبطة، والخصخصة، والقوانين الليبرالية للاستثمار والتجارة) تبدو الدواء الخاطئ. فتجبر الحكومات على كبح الإنفاق الاجتماعي

وإعطاء أولوية لإرضاء المستثمرين الأجانب - كما يقال - تفوق تلبية أولوية احتياجات مواطنيها. وعندما يحدث ذلك، تفهم السياسات التي ترمي إلى مساعدة التنمية على أنّها تهمّش الفقراء.

ربما لا يحدث ذلك كثيراً إذا كانت الحكومات تدار من قبل تكنوقراطيين متنوّرين يمكنهم إجراء الإصلاحات الاقتصادية اللازمة على مدى فترة طويلة دون أن يخشوا الانقلاب عليهم، غير أنّ قادة الديمقراطيات الهشّة لا يستطيعون احتمال طول النفس. فإذا لم يعطِ برنامج اقتصادي ما نتائج على الفور، فمن المرجّح أن يستبدل به برنامج آخر يعد بالمزيد، حتى إذا انتهت السياسة الجديدة إلى تحقيق أقل؛ كما يحدث في الغالب.

استجاب بيل كلينتون إلى هذه القضايا باعتماد ما يدعى "العولمة ذات الوجه الإنساني". وكان يحبّذ إجراء مقايضة تستفيد من خلالها الحكومات النزيهة والديمقراطية نسبياً من خفض الدين، والامتيازات التجارية والمعونة. وعلى نحو ذلك، أرسل جورج دبليو بوش مزيداً من المعونة إلى عدد أقل من البلدان. وبعد تردّد، صدّق على أهداف التنمية للألفية التي تدعو إلى خفض الفقر المدقع إلى النصف بحلول سنة 2015 إلى جانب تحقيق مكاسب موازية في مجالات مثل صحة الأمومة، وبقاء الأطفال، وإتاحة التعليم الأساسي للجميع.

يجب أن يكون خفض الفقر من الموضوعات المركزية لإدارتك. فذلك ذكيّ من الناحية السياسية، ومصيب أخلاقياً، ومعقول من الناحية الاقتصادية. وعندما تضع هذا الهدف نصب عينيك، عليك أن تعيد تقييم سياساتنا في التجارة، والمعونة، وإعانات المزارع، والبيئة، وحقوق المرأة. ولتضفي إثارة مسرحية على التزامك، بإمكانك زيارة أفقر البلدان في وقت مبكّر من ولايتك، وأن تلفت الانتباه وأنت هناك إلى الارتباطات القائمة بين المرض والجوع والفساد والنزاع. زُر مالي لتسليط الضوء على مكان ذي موارد طبيعية قليلة لكنّه يتمتّع بحكومة ديمقراطية نزيهة كرّست نفسها لمساعدة المزارعين في إعالة أنفسهم. استفد من الحركة العالمية لمكافحة الفقر التي تضمّ نجوم روك، وأصحاب بلايين،

وإنجيليين، وطلاباً، ومنتجي "أميركان أيدول" (المعبود الأميركي)*: لا تبخس تقدير قوة حماستهم. إذ يمكن أن تنجز بعض الأعمال على أفضل وجه إذا نفّذها أشخاص يفتقرون كثيراً إلى الخبرة ليعرفوا بالضبط مقدار صعوبة العمل.

ربما تنظر أيضاً في الأفكار الثاقبة لصديق وزميل لي، ورجل لا يمكن أن يوصف إلاّ بأنّه اقتصادي كاريزمي يجمع بين الأضداد. قبل عشرين سنة، وضع هرناندو دي سوتو استراتيجية اقتصادية للبيرو استناداً إلى توسيع الحقوق القانونية لتشمل المشاركين في اقتصاد بلده غير الرسمي؛ أي المزارعين الذين لا يمتلكون صكوك ملكية، ورجال الأعمال الذين ليس لديهم وثائق تأسيس شركة، والأسر التي لا تمتلك البيوت التي تعيش فيها. منح برنامج دي سوتو، بدعم من الحكومة، وضعية قانونية جديدة لأناس يعيشون في مناطق تفتك بها مجموعة "الطريق الساطع" الثورية العنيفة. شكّل نهج دي سوتو الذي أسمي "الطريق الآخر" خطراً على تلك المجموعة فقصفت مكتبه وحاولت اغتياله. واليوم لم يعد للطريق الساطع سوى القليل من الأتباع، ودي سوتو يواجه عدواً آخر: الفقر في كل أنحاء العالم. وأشارك أنا وهو في رئاسة لجنة دولية من الخبراء تنظر في أفضل السبل للتوسّع في تطبيق مبادئ تمكين الفقراء قانونياً.

وكما تعكس أبحاث دي سوتو، تمتلك الأسر التي تعيش في الفقر بالفعل أصولاً تزيد عدة أضعاف عن المبالغ المتلقّاة من خلال المعونة الخارجية. إنّهم يمتلكون ترليونات من الدولارات من الثروة على شكل ماشية وبيوت وشركات صغيرة ومنتجات أعمالهم. وتكمن الصعوبة في أنّ العديد من تلك الأصول توجد خارج الاقتصاد الرسمي القانوني، وبالتالي لا يمكن الاستفادة منها في رأس المال أو الاستثمارات أو القروض. وأكثر من ثلث الناتج الإجمالي المحليّ للعالم يأتي من الاقتصاد الخفي. ومما يثير الانزعاج أنّ هذه النسبة ارتفعت بثبات في العقد الأخير، وحدثت أكبر الزيادات في البلدان الأشدّ فقراً.

رأس المال هو أساس الرأسمالية، والقانون أساس الحصول على رأس المال واستخدامه. مع ذلك قد يكون القانون عدوّ الرأسمالية، حتى في البلدان التي يفترض أن

تمارس فيها حرية العمل. وقد وجد فريق دي سوتو أنّ بعض البلدان تتطلّب أشهراً وربما سنوات للحصول على سند قانوني لملكية بيت أو تسجيل شركة جديدة. وذلك يترك ملايين منظمي الأعمال - سائقو سيارات الأجرة، ودافعو مركبات النقل الصغيرة، والبائعون على جوانب الطرقات، والنساء اللواتي يغسلن الثياب ويكوينها، والمزارعون الصغار - دون قوانين مطبّقة على أعمالهم. بل يفتقر العديدون إلى شهادات ميلاد أو أي إثبات للهوية. وعندما يفتقرون إلى السلطة، يصبحون غير حصينين أمام من يمتلكونها، بمن فيهم المجرمون، والمسؤولون الحكوميون السلابون، والمطوّرون ذوو الهدف الواحد الذين ربما يرغبون في إزاحة الفقراء من الطريق لسبب أو لآخر. شاهدت في إفريقيا مؤخّراً، حياً بأكمله أشير على كل بيت فيه بإكس، ما يعني أنّه آيل للتدمير. لقد بنت الأسر المحلية تلك البيوت بأيديها ومع ذلك ليس لديها ما يثبت ملكيتها، ولا الوسائل القانونية للسعي إلى التعويض أو الإنصاف.

بعد وقت غير بعيد عن تلك الرحلة إلى إفريقيا، دفعني أمر ما إلى تفحّص سند ملكية مزرعتي؛ وهي مكان هادئ على بعد ساعتين عن واشنطن استخدمته عائلتي طويلاً للاسترخاء والاهتمام بالبقر. بدلاً من الكتابة القانونية التي كنت أتوقّعها، كانت اللغة التي تعيّن حدود المزرعة تبدو وكأنّها كتبت قبل مئات من السنين: "تبدأ عند كومة من الحجارة... وتمتدّ فوق الجبل في اتجاه شمالي غربي إلى كومة أخرى من الحجارة... وتتابع وراء الصخور المعلّقة إلى شجرة زان قرب أرومة قديمة؛ وتتجاوز جنوباً شجرة كستناء بلوطي أسود وصولاً إلى مسمار حديدي مثبت على الحافّة الشرقية لطريق خاص". الدرس المستفاد من ذلك أنّ القانون يجب ألاّ يكون معقّداً، وأساسه أن يعكس ما تقوله لنا حواسنا.

مع ذلك فشلت معظم الجهود لتوسيع الحماية القانونية لتشمل المحرومين لأنّها كانت تتطلّب مستويات غير واقعية من التوثيق. يروي دي سوتو أنّه سار ذات مرة عبر حقل للأرز في بالي. لم يكن هناك أوراق رسمية أو معالم مادية تبيّن أي قسم من هذا الحقل الواسع تزرعه هذه العائلة أو تلك، لكنّه لاحظ، في أثناء انتقاله من منطقة إلى أخرى، أنّ

كلباً مختلفاً بدأ ينبح. كانت الكلاب تعرف ما لا يعرفه القانون. علينا إيجاد طرق لمنح الفقراء الحقوق نفسها التي يمتلكها الأغنياء (وهو هدف جيد لك لكي تتبنّاه) ولننظر بعد ذلك في ما سيحدث. قد يتبيّن أن حرية العمل لم تتحقّق لأنّ عدم المساواة عند نقطة الانطلاق جعل المنافسة النزيهة الاستثناء، لا القاعدة.

يحمّل الكثيرون العولمة المسؤولية عن عدم المساواة ومجموعة من العلل الأخرى؛ في حين يراها بعضهم بأنّها نقيض ذلك تماماً: فهي علاج للتخلّف الاقتصادي وسوء الفهم القائم بين الثقافات. كلتا النظرتين لا تصمد عند الفحص. يعرّف قاموس "وبستر" العولمة بشكل حيادي بأنّها "العمل أو العملية أو السياسة التي تجعل شيئاً ما عالمياً في نطاقه أو تطبيقه". لذا يتوقّف كون العولمة سلبية أو إيجابية على ما الذي يُجعل "عالمياً في نطاقه أو تطبيقه": المرض أو الحصول على الدواء؟ استغلال العمّال أو وضع معايير عادلة للعمل؟ السلام أو الحرب؟

ربما يحسّن انتشار تكنولوجيا المعلومات الكفاءة، لكن ذلك فضيلة اقتصادية لا سياسية. أخشى أنّ توماس فريدمان، مؤلّف كتاب **العالم مسطّح** الأكثر مبيعاً، يخطئ عندما يتوقّع أنّه "ما من بلدين يشكلان جزءاً من سلسلة توريد عالمية كبرى، مثل سلسلة شركة دل، سيخوضان حرباً فيما بينهما... لأنّ الشعوب المشاركة في سلاسل التوريد العالمية الكبرى لم تعد تريد خوض حروب الأزمنة القديمة. بل تريد تسليم السلع والخدمات في الوقت المناسب؛ والاستمتاع بما يترتّب على ذلك من ارتفاع مستويات المعيشة".

إنّ مثل هذا التفكير يرفع كثيراً من مكانة منطق المصلحة الذاتية المادية. الحكومات لا تتخذ القرارات على أساس أفضل مستويات المعيشة فحسب. لقد خلصت إحدى الدراسات إلى أنّه "خلافاً للاعتقاد السائد، فإنّ حقبة التكامل الاقتصادي الدولي الأكثر تأثيراً التي شهدها العالم ليست النصف الثاني من القرن العشرين، بل السنوات الممتدة بين 1870 والحرب العالمية الأولى". في تلك الحقبة، دفع الاستقرار السياسي والتغيّر التكنولوجي التجارة إلى التوسّع، والأسواق الرأسمالية إلى التكامل بدرجة غير مسبوقة.

كانت الحال كذلك في أوروبا الغربية على وجه الخصوص، حيث كانت بريطانيا العظمى وألمانيا شريكتين تجاريتين رئيسيتين، وكانت شركة لويدز في لندن تؤمّن النقل البحري التجاري الألماني. مع ذلك فشلت هذه الترتيبات الدافئة في ضبط المشاعر القومية، ما أدّى إلى مستوى لا سابق له من الدمار. لقد سببّت الحرب العالمية الأولى كارثة للمصالح التجارية في كل أوروبا؛ باستثناء صانعي الأسلحة وحجارة القبور.

يفترض بالعولمة أن تجعلنا أكثر تشابهاً، لكنّها يمكن أن تدفع الناس إلى التشبّث أكثر من ذي قبل بالهويات والمعتقدات التي تفصل **نا** عن **هم**. يمكن الآن بثّ الأفكار التي ترفع الروح المعنوية من أحد العقول إلى ملايين العقول الأخرى على الفور، لكن يمكن كذلك بثّ الأكاذيب والتبجّحات والأفكار النمطية والتهديدات. ربما يكون فريدمان وغيره من المتحمّسين للعولمة مصيبين، لكنّني أعتقد أنّ كل جيل حديث آمن بشيء مماثل؛ أنّ العالم الذي يشهدونه أصبح أكثر تقدّماً وأشدّ ترابطاً من ذي قبل. ربما نرجو جميعاً أن تتقدّم البشرية إلى درجة لا يعود معها شيء بعيد المنال، لكن انظر في هذا التوقّع: "من المستحيل أن تستمرّ الأهواء والعداوات بعد ذلك، فقد ابتُكر هذا الجهاز لتبادل الأفكار بين كل أمم الأرض". من المؤسف أنّ النزا ع الدولي لم يتوقّف في ذلك اليوم، من سنة 1858، عندما اكتمل توصيل أول كبل عبر الأطلسي.

الزمن يحمل معه التغيّر، وتقع أحداث مدهشة، وتدفع التكنولوجيا حدود ما يمكن تصوّره إلى الوراء؛ ومع ذلك لا تزال المآسي التي لا يمكن تصوّرها تقع: [معركتا] السوم وبيلو وود؛ والعثمانيون والأرمن؛ و[قصف] غيرنيكا، و[مجزرة] نانكنغ، وبيرل هاربر؛ وأوشفتز وبوشنفالد؛ والغزو الكوري الشمالي و[حادثة] نو غن ري؛ وهجوم رأس السنة الفيتنامية، و[مجزرة] ماي لاي، و[مجزرة] سريبرنتشا، وعيدي أمين، ورواندا، و11/9، ودارفور. لقد تغيّر كل شيء، لكن هل تغيّر أي شيء؟ ربما يكون العالم مسطّحاً أو ربما كروياً، لكن يبدو في بعض الأحيان أنّنا لم نتعلّم شيئاً.

على الرغم من أنّ بلدنا كان السبّاق إلى صنع الأسلحة النووية، والبلد الوحيد الذي يستخدمها، فإنّ الرؤساء الأميركيين طالبوا بالأفضلية الأخلاقية منذ الساعات الأولى

للعصر النووي. لقد طوّرنا مع الاتحاد السوفياتي الوسائل لإنهاء الحياة على الأرض، ومع ذلك قدنا مسعى عالمياً لإبقاء القوة التي لدينا مغمدة تحت الرقابة. أي نوع من القوة؟ لكي لا ننسى، فيما يلي وصفان: الأول شهادة ملاح أميركي على متن طائرة "ذا غريت أرتسيت" (التي قصفت ناغازاكي)، والثاني رواية (تأملية بالضرورة) من زائر لهيروشيما بعد أن تعرّضت للقصف:

> شاهد المراقبون في مؤخر طائرتنا كرة هائلة من النار ترتفع من احشاء الارض... وبعد ذلك شاهدوا عمودا هائلا من النار الارجوانية... اصبنا بالصدمة. وراقبناه وهو يندفع نحو الاعلى كشهاب قادم من الارض بدلا من الفضاء الخارجي، واصبح اكثر نشاطا في اثناء ارتفاعه... ثم انطلق شيء من اعلى سحابة الانفجار الهائلة... اشد نشاطا من العمود، وكان يجيش ويغلي مزبدا ومرغيا... مثل كائن في اثناء تفكك الروابط التي تحفظ تماسكه.
>
> خلال بضع ثوان احترق آلاف الناس الذين كانوا في الشوارع والحدائق في مركز المدينة بموجة الحرارة اللافحة. قتل الكثيرون على الفور، وتمدد آخرون على الارض يتلوون ويصيحون من الالم... وتحجر كل كائن حي في وضع ينم عن معاناة لا يمكن وصفها... بعد نحو نصف ساعة على الانفجار... بدا مطر رقيق بتساقط... ناتج عن الصعود المفاجئ للهواء المفرط السخونة الى ارتفاعات شاهقة، حيث تكثف وسقط على شكل مطر. ثم هبت ريح عاصفة وامتدت النيران بسرعة رهيبة لان معظم البيوت اليابانية مصنوعة من الخشب والقش فقط. وعند حلول المساء بدات النار تخمد ثم انطفأت. لم يبق شيء تلتهمه النار. وزالت هيروشيما عن الوجود.

استتُبقت هذه الانفجارات الرهيبة بالصلوات، وحفّزها الغضب والرغبة الملحة بإنهاء الحرب. وخلال الستين عاماً التالية، خصّص جزء كبير من عمل الرئيس الأميركي للتأكّد من عدم تكرّر ذلك.

تعهّد دوايت أيزنهاور في خطابه "الذرّة من أجل السلام" أمام الأمم المتحدة في سنة 1953، بأنّ أميركا "عازمة على المساعدة في حل المعضلة الذرية المخيفة، وتخصيص قلبها وعقلها بالكامل لإيجاد طريقة لعدم تكريس قدرة الإنسان الفائقة على الابتكار من

أجل موته، وإنما تخصيصها لحياته". وبالروحية نفسها، اقترح جون كنيدي حظر التجارب النووية في الجوّ؛ وصاغ ريتشارد نيكسون حظراً على الدفاعات الصاروخية المضادّة للصواريخ البالستية؛ وأذهل رونالد ريغان مستشاريه بإبلاغ ميخائيل غورباتشيف بأنّ اقتراحه إلغاء الأسلحة النووية "يناسبني تماماً". وعندما انهار جدار برلين، ساعدت إدارة كلينتون في إزالة الأسلحة النووية من أوكرانيا وكازاخستان وبيلاروسيا وأطلقت برنامجاً لتجنّب تسرّب الأسلحة النووية بحماية المواد النووية والخبراء النوويين.

الأهم من ذلك معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، التي تفاوض عليها ليندون جونسون، وصدّق عليها في عهد ريتشارد نيسكون، ووقّعت عليها كل البلدان باستثناء إسرائيل والهند وباكستان. وكانت المعاهدة تستند إلى مقايضة كبرى: وعدت البلدان التي تمتلك أسلحة نووية (الولايات المتحدة، والاتحاد السوفياتي، والمملكة المتحدة، وفرنسا، والصين) بإلغاء مثل هذه الأسلحة مع الوقت. وقد صمدت المعاهدة أكثر من ربع قرن. وأحجمت عشرات البلدان التي كان بوسعها تطوير الأسلحة النووية عن القيام بذلك. وتجمّد عدد البلدان التي تحتوي على أسلحة نووية معلنة عند خمسة؛ وربما إسرائيل السادسة من خارج النظام.

عندما كنت سفيرة في الأمم المتحدة في أواسط التسعينيات، شاركت في المفاوضات لتمديد معاهدة عدم الانتشار إلى أجل غير محدّد. نجحت المحادثات، لكن كان من الصعب الردّ على المزاعم بالنفاق. فقد طالب المندوب المصري أن ندعم منطقة خالية من الأسلحة النووية في الشرق الأوسط؛ وهو اقتراح مغرٍ يرمي إلى إحراج إسرائيل. وكان المفاوضون الهنود غاضبين جداً من عدم رغبة الدول النووية بتدمير أسلحتها. فقد أجرت الهند تجربة نووية في السبعينيات ثم توقّفت عن ذلك، لكن صبرها نفد في نهاية المطاف. وفي سنة 1998، أعلنت الهند أولاً ثم باكستان أنّهما شقا طريقهما إلى النادي النووي؛ على الرغم من عدم قبول قوانين النادي.

ومنذ ذلك الحين أطلق الخوف من إيران المسلّحة نووياً تفاعلاً متسلسلاً في أوساط

الدول العربية، وأعلنت أكثر من ست منها عن خطط لتطوير الطاقة النووية؛ بما في ذلك الإمارات العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية الغنيّتان بالنفط. وقد أعلن عن أنّ البرامج العربية مدنية وتجارية؛ لكن هكذا أعلن عن برنامج إيران.

سهّلت معاهدة عدم الانتشار على الحكومات الاستغناء عن الأسلحة النووية. غير أنّ التطوّرات اللاحقة دفعت بعض البلدان إلى إعادة النظر في ذلك. ويشكو مدير الوكالة الدولية للطاقة الذرية من أنّه ما لم يلتزم العالم باستئصال الأسلحة النووية فسيكون لدينا "هذه البيئة الساخرة التي يحاول فيها اللاعبون في الدوري الصغير الانضمام إلى الدوري الكبير. وسيقولون 'إذا تابع الكبار الاعتماد على الأسلحة النووية، فلماذا لا نعتمد عليها؟'".

على الرغم من أنّ أي درجة من درجات الانتشار تعنينا، تثور أشدّ مخاوفنا عندما تستعدّ الحكومات المعادية لكي تصبح نووية. والمفارقة هي أنّ هذا التهديد يتضخّم بقوّتنا. فالبلدان المعادية قد تجد أنّ الخيار النووي هو الطريقة الوحيدة لردعنا من أن نفعل بها ما فعلناه بالعراق. ووفقاً لهذه الرؤية، لم تتمّ الإطاحة بصدام حسين لأنّ لديه أسلحة دمار شامل، لكن لأنّه لا يمتلكها.

ثمة خطر أيضاً من أنّه عندما تنتج مزيد من البلدان المكوّنات اللازمة للأسحة النووية، فإنّ المجموعات الإرهابية ستشتري جزءاً منها أو تسرقه. وسيضاعف ذلك الخطر لأنّ بعض الإرهابيين يزعمون أنّهم يرحّبون بالموت ومن ثم يتعذّر ردعهم، ولأنّ العديد منهم يفتقر إلى عنوان يمكن توجيه ضربة انتقامية أو استباقية إليه.

لأجل كل هذه الأسباب، عليك أن تستعيد مهنة أميركا كمهندس للسلام. ويعني ذلك الاعتراف بأنّ الأسلحة النووية تهدّد بقاء الجميع؛ لذا يجب التعامل مع مخاوف الجميع. ويكمن لب المشكلة في أنّنا نعظ بما لا نمارسه. وبما أنّه لا يمكن زوال معرفة كيفية صنع الأسلحة النووية، فسنكون متردّدين في التخلّي عن ترسانتنا. ونحن نؤمن بأنّ هذه الأسلحة تساعد في حمايتنا، ومن ثم في حماية العالم، لأنّنا ننظر إلى أنفسنا كمدافعين عن الاستقرار والحقّ. فإذا نزعنا أسلحتنا وغشّ الآخرون، فسنصبح معرّضين للابتزاز

النووي.

في عهد جورج دبليو بوش، تركّزت سياساتنا بشكل ملائم على البلدان المثيرة للمشاكل لكنّنا لم نولِ اهتماماً كبيراً للفعالية الشاملة لنظام عدم انتشار الأسلحة النووية. وبدلاً من محاولة تقوية الوكالة الدولية للطاقة الذرية، اخترنا القتال مع قيادتها. والأسوأ من ذلك أنّ مصداقيّتنا ضعفت باقتراح الرئيس بناء جيل جديد لا حاجة إليه من القنابل النووية المدمّرة للملاجئ الحصينة تحت الأرض. تستطيع إدارتك علاج ذلك بالتخلّي عن تلك القنابل ودعم هدف تحرير العالم من الأسلحة النووية بدلاً من ذلك (حتى إذا كنّا غير واثقين من كيفية الوصول إلى ذلك الهدف). يمكنك من الناحية الدبلوماسية أن تسعى إلى مزيد من التخفيضات في الترسانة الحالية وإلغاء الثغرات في معاهدة عدم الانتشار التي تتيح للبلدان القفز بسرعة من البرامج النووية المدنية القانونية إلى البرامج العسكرية غير القانونية. ومن الناحية المالية، عليك تخصيص مزيد من الموارد لحماية المواد التي يمكن أن تستخدم لبناء القنابل. ومن الناحية العسكرية، عليك أن تزيد من الجهود لمنع تهريب المعدّات والتكنولوجيات الحسّاسة. وفي الكابيتول هيل، عليك أن تسعى للحصول على موافقة مجلس الشيوخ على معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية. ومن الناحية السياسية، ربما تجد من المسعف الاستشهاد بقول رونالد ريغان نفسه: "لا أستطيع أن أصدّق أنّ هذا العالم يمكن أن يستمرّ بعد جيلنا إلى أجيال تالية بوجود هذا النوع من الأسلحة... دون أن يطلق أحمق أو مجنون أو حادثة عارضة الحرب التي تكتب نهايتنا جميعاً".

قبل وقت غير بعيد، دعيت إلى البيت الأبيض إلى جانب عدد من وزراء الخارجية والدفاع السابقين. طلب الرئيس بوش تأييدنا، مشدّداً على أهمية تعزيز الحرية. كنّا جالسين في قاعة روزفلت، وعندما هممنا بالانصراف، دعانا الرئيس إلى زيارة المكتب البيضاوي لنرى كيف أعادت لورا تزيينه. انتهزت الفرصة لأشكر الرئيس وأوبّخه بأدب، حسبما آمل. قلت، "سيدي الرئيس، أصفّق لك عندما تطلب منا دعم الديمقراطية، لكن هل لديك شيء تشكو منه. أحياناً تتصرّف كما لو أنّك ابتكرت الديمقراطية. والحقيقة أنّني

التي ابتكرتها". ضحك بوش. شعرت كرئيسة للمعهد القومي للديمقراطية أنّني قادرة على المزاح مع الرئيس بأنّني صاحبة الحقّ الأول بالمطالبة ببراءة الاختراع. غير أنّ سبب ورود هذه القضية في ذهني هو أنّ بناء الديمقراطية في عهد الرئيس بوش لم يحقّق غرضه. لقد تحدّثت عن الديمقراطية بحماسة في البلدان العربية في عدد من المناسبات مؤخّراً، فوبّخني القادة هاتفين بفزع، "لا نريد أن يصبح بلدنا مثل العراق".

لن تكون في وضع مريح كخلف للسيّد بوش. سيكون الامتناع عن الترويج للديمقراطية بمثابة تقصير من قبل أي رئيس. غير أنّه لا يمكنك تجاهل ما حدث في السنوات الثماني الماضية.

حظي ما أسماه الرئيس بوش "الاستراتيجية المتقدّمة للحرية" بزخم لبعض الوقت. فقد اجتمعت الانتخابات في العراق وأفغانستان وجورجيا وأوكرانيا ولبنان لتوليد موجة مدّية بلغت ذروتها قبل الأوان. فالديمقراطية تشهد في الواقع أسوأ عقد منذ الثلاثينيات، عندما أفضت الانتخابات إلى نتائج سيئة الذكر. عندما زارت كوندوليزا رايس مصر في سنة 2005، أيّدت بشجاعة الإصلاحات الديمقراطية. وعندما عادت بعد سنتين التزمت الصمت حيال القضية نفسها. كان الدرس المستقى في الفترة الفاصلة أنّ العديد من العرب، عندما تتاح لهم حرية الاختيار، لا يختارون ما نحبّه. وبدلاً من اختيار دعاة الحداثة الميالين إلى الغرب، يميلون إلى تفضيل المرشّحين الذين نعتبر آراءهم متطرّفة. وبالتالي فإنّ الإدارة نفسها التي زعمت أنّ الاعتماد على القادة العرب غير المنتخبين من أجل الاستقرار كان خطأً تاريخياً، لجأت إلى قادة عرب غير منتخبين - يسمّون الآن معتدلين - من أجل ذلك الغرض بالضبط.

من الأسباب التي جعلت الإدارة تجد نفسها في تناقض مع خطابها أنّ للحرية أكثر من معنى واحد. الأميركيون يميلون إلى مساواة الحرية بالديمقراطية؛ والعرب يربطونها بإحساسهم بالهوية الشخصية والثقافية. لذا عندما تحدّث الرئيس بوش عن التحوّل الديمقراطي في الشرق الأوسط فيما يحتلّ العراق في الوقت نفسه، فسّر العديد من العرب هذا الائتلاف بأنّه تهديد لاستقلالهم أكثر مما اعتبروه خطة لنشر الليبرالية

السياسية. فللتدخّلات الغربية في الأراضي العربية تاريخ غير مجيد، لذا ثمة ارتياب واسع بالنوايا الغربية. لا يعني ذلك أنّ علينا التخلّي عن دعم الحرية، لكنّه يعني أنّ علينا التعبير عن دعمنا بطرق لا تشكّك في حقّ المجتمعات العربية في تقرير مستقبلها بنفسها. يمكننا أن نعرض الأفكار، لا أن نصدر الأوامر، ولا بد لنا أن نقبل أنّ تغيير العالم العربي ليس مهمتنا.

ثمة مصدر آخر للالتباس، وهو أنّ الديمقراطية تعني أكثر بكثير من اختيار قائد بواسطة صندوق الاقتراع. والاختلاف صارخ في العديد من البلدان التي تقبل الديمقراطية نظرياً لكنّها تقصر ممارستها على إجراء انتخابات يشوبها الاحتيال وتعداد الحقوق التي لا تقدّم لها الحماية بعد ذلك. وتتمرّغ سمعة الديمقراطية بالوحل عندما يفشل القادة الذين يسمّون أنفسهم ديمقراطيين في تنفيذ وعودهم بتطهير الحكومة أو تحسين مستويات المعيشة أو احترام حقوق الإنسان.

في نيجيريا على سبيل المثال، هبط الاقتناع بالديمقراطية من 84 بالمئة إلى 25 بالمئة في السنوات السبع الماضية. وقد حدث ذلك على الرغم من قيادة أولوسيغون أوباسانجو، أفضل رئيس نيجيري حتى ذلك الوقت لكنه مع ذلك مخيّب للآمال من عدة نواحٍ. في نيسان/أبريل 2007، شهدت انتقاء خليفة أوباسانجو في أول انتقال انتخابي من رئيسٍ إلى آخر في تاريخ ذلك البلد. لم يكن ذلك حدثاً سعيداً. فقد فتحت المراكز الانتخابية متأخّرة في العديد من المناطق أو أغلقت باكراً أو لم تفتح البتة. وكانت نسبة المشاركة متدنية بسبب التهديد بالعنف. وقد وجد الغضب وقوداً في اعتقاد الشعب بأنّ السلطات غير نزيهة وغير عادلة. يدلّ على ذلك عدم تشارك المنافع المتأتية من عائدات النفط النيجيري على نطاق واسع. كان الفندق الذي ينزل فيه وفدي شديد البرودة لأنّ التكييف مضبوط على العالي، مع ذلك لا يوجد في البلد سوى القليل من الكهرباء بحيث أطلق الناس لقب "رجاء حمل الشمع" على شركة الكهرباء الحكومية القابضة*. لا يستطيع الصناعيون العمل إذ لا يمكنهم منافسة الواردات الأجنبية بدون كهرباء، وكما اكتشفت، يصبح عدّ الأصوات معقّداً أيضاً. عندما حل الليل في القرية التي كنت فيها، اضطر

المسؤولون المحليون إلى السؤال إذا كان لدى أحد مولد يستطيعون استعارته. تطوّع أحدهم، وراقبته وهو يجلب المكنة ويضيء مصباحاً واحداً للسماح للموظفين بعدّ الأصوات. لا عجب إذاً أنّ المحتجّين أنشدوا في أثناء الانتخابات، "لا عمل! لا طعام! لا ضوء! لا حرية! لا انتخابات"!

مع ذلك يوجد رجاء حتى في نيجيريا. ربما كانت عملية الانتخاب مثبطة للهمة، لكن المحاكم والبرلمان والصحافة مستقلّة. والمجتمع المدني آخذ في النموّ. في إفريقيا ككل، لم يترك المنصب طوعاً أو بعد خسارة الانتخابات سوى ثلاثة رؤساء أو رؤساء حكومات بين عامي 1960 و1990. وفي السنوات التي تلت ارتفع العدد إلى أربعين. ربما لا تسير الديمقراطية قدماً، لكنّها منتصبة تدرأ عن نفسها الحجارة التي ترمى من اليسار واليمين.

يمكنك كرئيس أن تحشد القوى الديمقراطية دون أن تبدو وكأنّك تعيد إنشاء عقلية الحملات المرتبطة بسلفك. وللقيام بذلك عليك تقوية المؤسسات الإقليمية، وحثّ الأصدقاء الديمقراطيين داخل البلدان النامية على تولّي القيادة. عليك أن تكون نزيهاً، وتصرّح بأنّ الحرية السياسية ليست ضمانة للازدهار، وأنّ الانتخابات الحرّة هي مجرّد بداية العملية الديمقراطية. كما أنّ تعزيز الديمقراطية يتلاءم تماماً مع مكافحة الفقر وتحسين المناخ من أجل السلام العالمي. هذا هو جدول الأعمال الملائم لك، وسيساعدك في التعامل مع التحدّيات الأوسع: كيف تلهم العالم بالانضمام إليك وإلى بلدنا في قضية مشتركة.

في كانون الثاني/يناير 1941، واجهت أميركا خياراً حاسماً. كان النازيون يسيطرون على قسم كبير من أوروبا. وكانت بريطانيا تحت الحصار. وقد حذّر تشرشل عبر المحيط، "إذا فشلنا، فإنّ العالم بأكمله، بما في ذلك الولايات المتحدة، وكل ما عرفناه وعنينا به، سيغرق في هاوية عصر مظلم جديد أكثر شؤماً، وربما أطول مدة على ضوء العلوم المنحرفة". غير أنّ أوروبا كانت على بعد آلاف الأميال. وعندما توجّه فراكلين روزفلت إلى الكونغرس لإلقاء خطابه السنوي، كان بوسعه التركيز على الاقتصاد الداخلي الذي لا يزال يتعافى من الكساد. وكان بوسعه الالتزام بالوعد الذي قطعه في

الحملة الانتخابية بالنأي بأميركا قدر الإمكان عن محنة أوروبا الشديدة. وربما كان بوسعه مقايضة هتلر بالقول ضمناً إنّ بوسع ألمانيا الاحتفاظ بالأراضي التي غنمتها دون خوف من التدخّل الأميركي إذا أوقفت تقدّمها. استمع الناس بترقّب في غرف الجلوس وفي الطرقات وفي الملاجئ في كل أنحاء العالم وتساءلوا: ما الذي يمكن أن يقوله روزفلت؟ ما هو الدور الذي تتصوّره أميركا؟ نهض روزفلت عن كرسيه المدولب بالطبع، ورفع العالم معه. لقد تجاوزت رسالته المعايير الضيّقة لمثل هذه الخطابات ليرسم الخطوط العريضة للمبادئ العالمية، الأهداف التي حملت من أجلها أميركا السلاح: قبل نهاية السنة.

تحدّث فرانكلين روزفلت عن عالم قائم على أربع حريات أساسية: حرية الرأي، وحرية الدين، والحرية من العوز، والحرية من الخوف. وأبلغ الكونغرس والجمهور العالمي أنّ تلك ليست "رؤية لألفية بعيدة. إنّها أساس محدّد للعالم الذي يمكن تحقيقه في زمننا وجيلنا. هذا النوع من العالم هو النقيض لما يسمّى 'النظام الجديد' للطغيان الذي يسعى الدكتاتوريون إلى إنشائه على وقع القنابل".

التهديدات الحقيقية للحضارة تأتي من أفكار - مثل الفاشية - شديدة الإغراء وعميقة الضلال. مثل هذه الأفكار تضغط الحياة بأكملها في نمط تبسيطي يحدّد مصدراً مفترضاً للشرّ الذي يجب التوحّد ضدّه، وتنشئ صورة ذاتية متملّقة لغير الراضين عن قدرهم بخلاف ذلك. هذه الأفكار تجيب عن الأسئلة نفسها التي تحاول الأديان الكبرى الإجابة عنها؛ ولذلك فإنّ الدين يمكن أن يلهب المشاعر عندما يفسّر على نحو ضيّق.

للردّ بفعّالية على مثل هذه التهديدات، عليك القيام بأكثر من وضع خطط لمكافحة الفقر أو استكمال معاهدة عدم الانتشار، أو استنباط طرق جديدة لتقسيم الأراضي في القدس. عليك أن تفسّر، كما فعل فرانكلين روزفلت (ولنكولن قبله وجفرسون قبله)، الأساس الذي يجب أن يُبنى عليه المجتمع. وعليك المساعدة في أن تقدّم للعالم ما قال بول تيليك إنّ الأميركيين فعلوه لأنفسهم: العمل على أسس جديدة للوجود عندما تهتزّ الأسس القديمة أو حتى تدمّر.

لا ينتظر أحد منك - أو من أي رئيس - أن تقودنا إلى أرض موعودة ما؛ بل نعتمد عليك لترشدنا إلى الاتجاه الصحيح. من الناحية المثالية، ستظهر خصائص الاستقامة والشجاعة التي تعكس صورة بلدنا في أحسن أحواله. وعليك أيضاً إظهار أفضل ما لدى الآخرين، بدءاً بمن اعتمدنا عليهم منذ زمن طويل والذين يجب أن تستعيد ثقتهم: حلفاؤنا وجيراننا.

الفصل التاسع

أطواق من حديد

خلال أربعة عقود من الحرب الباردة، حاول السوفيات دون نجاح دقّ إسفين بين أوروبا وأميركا. والخطر الآن أنّنا نحن من سنقسّم أنفسنا.

عندما انتهت الحرب الباردة، شعرنا بأنّ أميركا وأوروبا معاً قادرتان على تحقيق أي شيء. بمواجهة الإمبراطورية الشيوعية، أنهينا المواجهة بين القوتين العظميين، وانتزعنا الشريط الشائك من قلب أوروبا، وجعلنا الحلم بقارّة واحدة وحرّة أمراً ممكناً. وعندما كان يجتمع أشخاص من جانبي الأطلسي معاً، لم يكن علينا أن نشرح من نعني عند استخدام كلمة "نحن".

أعاد طوني بلير، في أثناء زيارته واشنطن، التأكيد على أنّه ما دامت أوروبا وأميركا فريقاً واحداً، "فإنّ الأمم العظيمة الأخرى في العالم، والصغيرة، ستتجمّع معاً في مكان واحد، لا في عدة أمكنة". إنّ الافتراض بأنّ الغرب لا يزال يقدّم المبدأ الناظم للعالم مريح (لنا) ويدعمه ما يكفي من الثروة والنفوذ العسكري والمهارة التكنولوجية بحيث لم يعد قابلاً للنقاش. ومن الأمور غير الملموسة بالقدر نفسه ولا يمكن الاستغناء عنها المُثُل المشتركة لاحترام حقوق الإنسان والحرية، والقانون، والإيمان بقوة العقل؛ هذه هي أطواق الحديد التي رافقت الغرب خلال فترات المحنة الشديدة ولا تزال رابطتنا الأشدّ.

تطوّرت الشراكة الأوروبية الأطلسية من تراث مشترك، وتركّزت على التصوّر المشترك الذي تمّ التوصّل إليه على مرّ القرون، للعلاقة المثالية بين الحكومة والفرد. وتمتدّ جذورها أعمق مما تفعله التحالفات العسكرية عادة، لأنّها لم تنشأ لمواجهة عدوّ مشترك أو كمسألة ملاءمة مؤقتة. وقد شخّص جون كنيدي الوحدة بين جانبي الأطلسي بأنّها الهدف الأساسي للسياسة الخارجية الأميركية بعد الحرب، وعبّر الرؤساء الذين تلوه، وصولاً إلى بيل كلينتون، عن مشاعر مماثلة قولاً وفعلاً.

يمكنني أن أشهد أنّ المحافظة على علاقات وثيقة مع أوروبا كانت واسطة عقد

السياسة الخارجية الأميركية في التسعينيات. وحتى عندما كانت تحدث خلافات، كنّا قادرين على العمل عبر حلف شمال الأطلسي أو مع الاتحاد الأوروبي لحلّها. وكما هي العادة، كانت علاقاتنا مع الفرنسيين شائكة؛ فالفرنسيون ميالون إلى انتقاد النزعات الأميركية إلى السيطرة بقدر ما يتفجّعون على فقدان قدراتهم الاستعمارية. مع ذلك صمد التحالف خلال اختبارات مرهقة في البوسنة وكوسوفو، واحتضن الديمقراطيات الجديدة في أوروبا ما بعد الشيوعية، ووسّع غرضه للتعامل مع التهديدات الناشئة خارج المنطقة. ومع أنّ الخوف من الاتحاد السوفياتي تبدّد، فقد صمدت المُثُل الأوروأطلسية وبقي الإحساس بالغاية المشتركة.

جاء جورج دبليو بوش. فوجئ الأوروبيون الذين توقّعوا أن يكون نسخة صغيرة عن والده برفض الإدارة الجديدة الصريح لمخاوفهم بشأن مسائل مثل تغيّر المناخ، والحدّ من الأسلحة، ودور الأمم المتحدة، والمحكمة الجنائية الدولية، وغوانتانامو، والعراق بطبيعة الحال. لم يسبق أن طُلب من الأوروبيين احتضان رئيس جديد يبدو غير مهتمّ جداً بالنصح، وأحادياً جداً في توكيد الامتيازات الأميركية. وجاء الردّ تصفيقاً من القلّة، وحيرة من الكثرة، وكثيراً من النقد؛ بعضه عميق الفكر، وبعضه مفرط.

عندما تسلّم الكاتب المسرحي البريطاني هارولد باينتر جائزة نوبل للأدب في سنة 2005، قال منتقداً: "لقد كانت الجرائم الأميركية منهجية ومستمرّة، وقاسية، وعديمة الشفقة، لكن لم يتحدّث عنها سوى قليل من الأشخاص في الواقع. ومارست النفوذ المجرّد من العاطفة في كل أنحاء العالم في حين أنّها تتقنّع بأنّها قوة للصالح العامّ".

من الصعب فهم زعم باينتر بأنّه "لم يتحدّث سوى قليل من الأشخاص في الواقع" عن العيوب الأميركية. فالانطباع الذي تكوّن لديّ في أثناء تنقّلي في أوروبا أنّ الناس لم يكونوا يتحدّثون كثيراً عن أي شيء آخر. ومع أنّ الأوروبيين أقلّ مغالاة من باينتر، فإنّ حتى أصدقائي المؤيّدين لأميركا يخشون من أنّ الولايات المتحدة أصبحت مأخوذة بالقوة وخائفة من الإرهاب، كما قال أحدهم بحزن، "هل جننتم"؟

الأمر لا يتعلّق بأنّ الأوروبيين لا يقدّرون جرح 11/9، بل بأنّهم احتاروا من اختيار

العراق بمثابة حجر الزاوية لردّنا. إنّهم يعترفون بأنّ صدام حسين شرّير، لكنّه لم يكن يشكّل تهديداً وشيكاً لنا، وهو غير ملام على 11/9. فقد وجدت الحكومات الأوروبية التي تعاونت مع واشنطن في الاعتقالات السرية نفسها في موقف دفاعي لأنّ الموقف الأميركي كنصير للعدالة وحقوق الإنسان تلطّخ. ونتيجة لذلك، بدأت أميركا وأوروبا تتحدّثان بصوتين منفصلين. واعترى الضعف إحساسنا بالهوية الجماعية، كغرب موحّد.

على الرغم من مرور السنين، لم يغفر كثير من الأميركيين للأوروبيين الناقدين لغزو العراق إما لأنّهم عارضوه وإما - وهذا الأسوأ - لأنّهم كانوا محقّين. ولم يغفر كثير من الأوروبيين للأميركيين إعادة انتخاب السيّد بوش. غير أنّ هذه القضايا ليست الوحيدة.

لقد كانت أميركا أوروبية التمركز منذ حقبة جفرسون وفرانكلين. وفي العقود الأخيرة تطوّر السكان في البلد ليصبحوا أكثر لاتينية وآسيوية وإفريقية. عندما أنتقل إلى الجامعات الأميركية اليوم، أجد طلاباً أكثر انشغالاً بأحدث التطوّرات في الصين وجنوب آسيا والشرق الأوسط، والمناطق الساخنة في إفريقيا مما يرشح بين جانبي الأطلسي مباشرة. ولا توجد لدى معظم الأميركيين فكرة واضحة عن طريقة عمل الاتحاد الأوروبي أو ما الذي يرمي إلى تحقيقه. ففكرة فتح الحدود الوطنية واعتماد عملة موحدة والتخلّي عن سلطة سن القوانين إلى هيئة فوق القوميات غريبة عن عقلنا بأكملها؛ ربما بدت معقولة للمستعمرات الأميركية قبل قرنين ونصف لكنّها شيء كريه الآن. كم من مرة سألتك الصحافة القومية في أثناء حملتك عن ترشّح تركيا المثير للخلاف للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي، أو السياسة الداخلية المضطربة في بولندا، أو التوجّه المستقبلي لأوكرانيا؟ في غضون ذلك أدّى تراجع قيمة الدولار إلى جعل زيارة أميركا أكثر جاذبية للأوروبيين، وزيارة أوروبا أكثر تكلفة بالنسبة إلينا، ما أوجد سبباً آخر لتجنّب التعرّف إلى أبناء عمومتنا.

عندما تنخرط أميركا في التفكير عبر الأطلسي، فإنما يكون ذلك عادة للشكوى من أنّ الأوروبيين ليسوا متشدّدين بالقدر الكافي في مواجهة الإرهاب، أو مواجهة إيران، أو تعزيز حلف شمال الأطلسي. فأوروبا بالنسبة إلى العديد من الأميركيين، ولإدارة بوش

بالتأكيد، هي بمثابة شريك صغير، وبالتالي مجبرة على اتباعنا.

أما بالنسبة إلى وجهة النظر الأوروبية، فمن غير المنصف التعميم. ليس هناك وجهة نظر أوروبية واحدة، مثلما ليس هناك أي شخص واحد، بمن في ذلك الرئيس، يستطيع التحدّث باسم أميركا. يأتي الإسكندنافيون في المقدّمة كمواطنين عالميين يقدّمون المعونة للآخرين بسخاء، ومفتتنين بالنهُج المتعدّدة الأطراف. أما دول البلطيق وأوروبا الوسطى، فلا تزال تحمل آثار بقائها مدة عقود خلف الستار الحديدي، وهي أكثر توتّراً تجاه موسكو وأقل انتقاداً لأميركا من نظرائها الغربيين. وعلى نحو ذلك، فإنّ الهولنديين الجسورين، مناصري القانون، انضموا للقتال في أفغانستان والعراق. ولا يشكّون في أنّ الولايات المتحدة تقف إلى جانبهم. ويمكن أن يؤدّي هذا الموقف - الذي يسرّ الأميركيين - إلى إثارة مناقشات في أوروبا. في الفترة العاصفة المؤدية إلى حرب العراق، وقّع قادة عشرة بلدان أوروبية وسطى وشرقية رسالة مؤيّدة للولايات المتحدة. فدفعت هذه الوقاحة جاك شيراك، الرئيس الفرنسي المتسلّط أحياناً، إلى التصريح بازدراء بأنّ البلدان المعنية "فوّتت عليها فرصة السكوت".

حتى عندما يتجادل الأوروبيون بشأن أميركا، فإنّهم ينخرطون في عملية لا نهائية في الظاهر لمعالجة مسألة هويتهم. فقد بلغت التجربة الأوروبية نقطة حرجة؛ أي الالتزام الشديد بالوحدة الذي يجعل التراجع صعباً، والتعلّق الشديد بالتميّز الوطني لتقبّل الوحدة دون توجّس. لقد وُضع تصوّر الاتحاد الأوروبي (السوق المشتركة أصلاً) للحثّ على التكامل الاقتصادي والردّ على الشيوعية والخوف من انبعاث الفاشية ذات يوم. وكانت السوق المشتركة الأولى تضمّ نحو ستة أعضاء؛ واليوم يضمّ الاتحاد الأوروبي سبعة وعشرين عضواً، ما يجعله، تبعاً لرأيك، إما شامل بشكل مثير للإعجاب وإما ثقيل الحركة بشكل ميؤوس منه. ولزيادة تعقيد الأمور، تنتقل رئاسة الاتحاد الأوروبي تقليدياً إلى بلد جديد كل ستة أشهر؛ على الرغم من وجود سعي لتغيير ذلك. ولنأمل أن ينجح. تصوّر مقدار التشوّش الذي يشعر به الأميركيون لو كان الرئيس يتغيّر مرتين في السنة في البيت الأبيض.

لن يهمّك كثير من ذلك كرئيس، باستثناء احتمالين. ربما تنشغل أوروبا كثيراً في المشاجرات الداخلية بحيث لا تستطيع مساعدة أميركا؛ أو ربما تصل إلى الوحدة بتحديد نفسها موازناً لقوّتنا. بالنسبة إلى الأميركيين، تبدو فكرة اتحاد أوروبا من أجل مواجهتنا سخيفة؛ أما بالنسبة إلى بعض الأوروبيين فإنّها تبدو منطقية وضرورية.

عانى الأوروبيون من تجاوزات الطموح من قبل، من قيصر روما إلى ألمانيا هتلر. ويعتقد العديدون أنّه من غير الصحي وجود قوة عظمى واحدة. وقد عزّز العراق هذه الفكرة، لكنّ كثيراً من الأوروبيين لم يكونوا يعتبرون أميركا متحضّرة جداً حتى قبل الغزو الأميركي. ففي النهاية تتصدّر الولايات المتحدة العالم في عدد نزلاء السجون، ومعدّل الجريمة فيها مثير للرعب، وفيها ولع بالأسلحة، ويسود فيها مفهوم غريب (في بعض أنحائها على الأقل) بأنّ على المرشّحين للمناصب العليا أن يثبتوا تشدّدهم بإعدام الأشخاص. وفي حين تتركّز الخرافة الأميركية على دور الفرد البطولي، فإنّ الأوروبي الحديث يُعنى بالمجتمعات التي تتصرّف بإنسانية. الأخلاق الأميركية تتطلّب أن يمنح كل شخص فرصة، وتتطلّب الأخلاق الأوروبية أن يمنح كل شخص حصة مما يقدّمه المجتمع. وتؤمن أوروبا بأنّها تعلّمت دروس القرن العشرين؛ وتؤمن أميركا - كما يزعم منتقدوها - أنّها علّمت دروس القرن العشرين.

عندما كنت طفلة أوروبية تنمو في أميركا، كنت أحبّ أن أفكّر في أنّني لو كنت ذات ساقين طويلتين فقد أضع قدماً في كل جانب من الأطلسي. كنت أشعر أنّ باستطاعتي فهم المكانين. غير أنّني بدأت أشكّك في ذلك عندما ألقيت كلمة في براغ في سنة 1997، عند عودتي إلى مسقط رأسي لأول مرة كوزيرة للخارجية. كانت تلك من أكثر اللحظات عاطفية في حياتي. كان الحضور مليئاً بالأصدقاء، والمكان فخماً، والاستقبال رائعاً، وكانت الكلمة بمناسبة الاحتفال بانتهاء الحرب الباردة، مقرونة بوصف مستقبل أوروبا الباهر. غير أنّ فاكلاف كلاوس، رئيس الوزراء في ذلك الوقت، أعادني إلى الأرض عندما أبلغني أنّه ما من قائد تشيكي يمكن أن يلقي مثل هذا الخطاب؛ لقد كان شديد التفاؤل.

تفاجأت في ذلك الوقت، فمن لا يستطيع أن يكون مفعماً بالأمل في تلك اللحظة؟ وفي

السنوات التالية، بدأت أتقبّل أنّ المواقف الأميركية كانت أكثر تفاؤلاً من المواقف الأوروبية. ربما كانت نظرتنا تجاه التجربة الإنسانية أكثر إيجابية لأنّ بلدنا لم يخضع لاحتلال قوات أجنبية - في الأزمنة الحديثة - ولأنّنا راكمنا الكثير من النفوذ والقوة. وربما أحدثت 11/9 والنكسات العديدة التي حدثت منذ ذلك الحين صدمة كبيرة. لم نعد اليوم واثقين جداً بشأن توقّعاتنا. بل إنّ نسبة الأميركيين الذين يعتقدون الآن بأنّ الجيل القادم سيكون أفضل حالاً تقلّ عن نسبة التشيك، وكذلك البلغار والبولنديين ومعظم سكان العالم النامي. وذلك تغيّر مذهل ومثير للقلق.

تولّى البريطانيون مؤخّراً - أكثر مما ينبغي - مهمّة شرح الولايات المتحدة للأوروبيين وشرح أوروبا للولايات المتحدة. لا يزال الأميركيون يحبون البريطانيين؛ وخاب أمل الأوروبيين من عدم قدرة البريطانيين على إقناع الأميركيين في بعض الأحيان. لقد راهن طوني بلير على أنّه إذا انضمّ إلى بوش فإنّه سيتمكّن من جعل الرئيس أكثر تقديراً لوجهة النظر الأوروبية، لكنّه خسر.

في عهد بلير، قاد البريطانيون أربعة تدخّلات عسكرية كبرى أو انضمّوا إليها - في كوسوفو، وسيراليون، وأفغانستان، والعراق - وفي كل حالة ساهموا في رحيل طاغية. واختُبر غوردون براون، في أيامه الأولى، بمخططات التفجير الإرهابية في لندن وغلاسكو. وعكس ردّه المضبوط الحدّة تغيّراً في شخصية السياسة الخارجية البريطانية. فبراون سيكون - بحكم مصلحته الذاتية وقناعته الشخصية - ميّالاً إلى التشديد على الدبلوماسية والقانون أكثر من التشديد على الإعلانات القتالية والعمل العسكري. ونظراً لأنّ التجربة البريطانية في الخليج أقلقت براون، فإنّه سيبتعد عن المغامرات، وكذلك غالبية أوروبا. لقد سعت أميركا خلال معظم تاريخها إلى تجنّب النزاعات التي حاصرت القارة الأوروبية. واليوم تفضّل معظم أوروبا النأي بنفسها عن الحروب التي تشمل الولايات المتحدة.

كان هيوبير فيدرين، نظيري المتشائم في الخارجية الفرنسية، يحبّ إثارة غضبي بتسمية أميركا "قوة فائقة". انزعجت عندما قرأت المصطلح أول مرة، على الرغم من أنّه لم

يكن بهذا السوء عندما سمعت هيوبير يقوله بالفرنسية. لم أكن أبالي عندما تشير الصحافة الفرنسية إليّ باسم "مادلين الفائقة". في سياسة التحالفات، فرنسا هي بمثابة دولاب صارّ. غير أنّني أعرف من تجربتي أنّ الفرنسيين يكونون معقولين في العلن إذا أتيحت لهم الفرصة للشكوى على انفراد. وعندما يحرمون من هذه الفرصة فإنّهم يُبرزون الخلافات لإثارة الجلبة فحسب. في عهد كلينتون لم نتوقّف قطّ عن التجادل مع الفرنسيين، ولم يمتنعوا البتة عن تأييدنا عندما يكون الأمر مهماً حقاً.

يحنّ الفرنسيون إلى الأزمنة القديمة؛ عندما كان شارلمان أو نابليون يحكمان، وكانت لغتهم تستعمل في البلاطات من لندن إلى بطرسبرغ. في أيار/مايو 2007، عندما أقسم نقولا ساركوزي اليمين خلفاً لشيراك، ركب في موكب للسيارات إلى الشانزيليزيه، وأوقد الشعلة عند ضريح الجندي المجهول تحت قوس النصر، ووضع إكليلاً من الزهر عند تمثال ديغول. غير أنّ سياسة ساركوزي تتطلّع إلى الأمام. لم يتحدّث في حملته عن خطة لاستعادة الماضي المجيد ولكن عن برنامج شبيه ببرنامج كنيدي "دفع فرنسا قدماً". وبتعليمه الشعبي وأسلافه الذين يضمّون جداً يهودياً وجدة يونانية ووالداً هنغارياً، فإنّ ساركوزي لا يشبه أي رئيس فرنسي سابق. وقد شرع بهزّ الحكومة وحضّ بلده على المثابرة في العمل، وأظهر لمسة شعبية. بل إنّه اكتسب لقب "رئيس فائق".

لا يجد ساركوزي حاجة إلى رفع التأييد له في الداخل بالنأي بنفسه عن الولايات المتحدة، خلافاً لشيراك. وإذا استمرّ هذا الموقف فإنّه يفتح أمامك فرصة رفع العلاقات إلى مستوى لم تصله منذ أيام واشنطن ولافايات. ويمكن أن يقدّم الفرنسيون لأسباب تاريخية (ولغوية) المساعدة على وجه الخصوص في التعامل مع لبنان، وسوريا، وأنحاء من إفريقيا، وأحياناً روسيا. لكن لتحريك أوروبا نفسها، فإنّك تحتاج أيضاً إلى تعاون ألمانيا، أكبر بلد في أوروبا.

في سنة 2000، كان نحو ثمانية من كل عشرة ألمان يؤيّدون نظرة الولايات المتحدة. وفي سنة 2007، انخفضت النسبة إلى ثلاثة من عشرة. والسبب بالطبع هو العراق. عندما أعلن الرئيس بوش أنّ البلدان إما أن تكون مع الولايات المتحدة وإما مع

الإرهابيين، اصطف المستشار غيرهارد شرودر مع زميليه في باريس وموسكو لمعارضة الغزو، ما دفع كوندوليزا رايس إلى القول بتكبّر إنّ على أميركا "أن تعاقب فرنسا، وتتجاهل ألمانيا وتسامح روسيا".

يجدر نسيان تلك الأحداث، وهي التصدّع الأشدّ ضرراً في العلاقات الأميركية الألمانية منذ الحرب العالمية الثانية. فلقد أظهرت خليفة شرودر، أنجيلا ميركل العاقلة، ارتياحاً في العمل مع الرئيس بوش. عندما التقيت بميركل أول مرة، كانت لا تزال برلمانية، وبدت هادئة ووادعة. وعندما أصبحت مستشارة ألمانيا، وهي الأصغر في كلا الجنسين منذ ما قبل الحرب العالمية الثانية، أثبتت قدمها بسرعة في المسرح العالمي. وإذا ما تمكّنت من المحافظة على ائتلافها الحاكم، فإنّ لديها ما يلزم لتثبيت ألمانيا كقائدة اقتصادية وسياسية لأوروبا والعمل في الوقت نفسه كوسيط مهمّ بين الولايات المتحدة وروسيا. عليك أنّ تعتمد عليها (إلى جانب بريطانيا وفرنسا) كأسس لاستراتيجيّتك الأوروبية، لكن ستكون هناك حدود من الناحية العسكرية. فألمانيا لا تزال في طور التعافي من الفكر الفاشي بعد الحرب العالمية الثانية. وفي العقد الماضي، بدأت تنشر قوات لحفظ السلام في الأماكن الدولية الساخنة، بما في ذلك أماكن مثل أفغانستان، حيث لا يزال القتال الحقيقي متواصلاً. وما من بلد يستحقّ المديح أكثر من ألمانيا على التعلّم من الماضي والتكفير عنه. عليك أنّ تؤيّد بحرارة ترشيحها لمقعد دائم في مجلس الأمن الدولي. غير أنّنا لم نصل إلى المرحلة التي يُتطلّع فيها إلى جيش ألماني قوي؛ سواء من قبل الألمان أو جيرانهم.

في نيسان/أبريل 2009، سيحتفل حلف شمال الأطلسي بذكرى تأسيسه الستين. ويلوح هذا الحدث في لحظة اختبار حادّة في ميدان القتال وفي أذهان القادة والشعوب على جانبي الأطلسي. هنا أيضاً يدفع العالم ثمناً باهظاً لغرائز إدارة بوش الأحادية، وبخاصة في سنواتها الأولى.

في أعقاب 11/9، استجاب أعضاء حلف شمال الأطلسي كما ينبغي للحلفاء، فلجؤوا إلى أحكام الدفاع الجماعي التي ينصّ عليها ميثاق الحلف، وتعاملوا مع الهجوم على

الولايات المتحدة كضربة موجّهة إلى الجميع. رفض الرئيس بوش هذه المساعدة وقرّر بدلاً من ذلك الاعتماد على القوة الأميركية المعزّزة بالمرتزقة الأفغان، الذين وعدوا بالقبض على بن لادن وقادة طالبان الكبار لكنّهم فشلوا. وظنّت الإدارة، التي تنفر إيديولوجياً من بناء الأمم، أنّ بوسعها إعادة إنشاء أفغانستان بثمن بخس: فالتزمت بتقديم قليل من القوات والأموال. وعندما شُكّك في الاستراتيجية، أبلغت وزارة الدفاع القادة الأفغان بعدم توافر مزيد من الجنود. وسرعان ما اتضح سبب ذلك: لقد كان البنتاغون يخطّط للعراق بالفعل. ولم تطلب الإدارة انخراط حلف شمال الأطلسي بشكل كامل في أفغانستان إلاّ بعد أن أصبح الغزو مريراً. لم يعد التأخير مبرّراً. وليس هناك مبدأ أساسيّ أكثر في الحرب أو السياسة من مواصلة الضغط لكي لا تمنح عدوّك الفرصة لاستعادة عافيته عندما يتراجع. في أفغانستان، في السنوات الأولى من القتال، كان بوسع إدارة بوش تمهيد الطريق للنجاح الدائم لو استغلّت عرض حلف شمال الأطلسي وركّزت مواردها هناك بدلاً من تحويل حصّة الأسد إلى الخليج.

والآن، بعد فوات الأوان، يقاتل حلف شمال الأطلسي حركة طالبان المنبعثة في كفاح لا نهاية محدّدة له ولا يرجّح تحقيق انتصار مبكّر فيه. بالنظر إلى تعرّض أهمية حلف شمال الأطلسي للاختبار، ووجود مصير بلد محوري على المحك، فإنّ على المرء أن يتوقّع ارتفاع درجة الإلحاح في الحزب. لكن بدلاً من ذلك، تراجعت أفغانستان، بسبب العراق، كما لو أنّها عرض ثانوي. وعلى الرغم من أنّ بعض البلدان، ككندا، تستحقّ الشكر على شجاعتها وتضحيتها، فإنّ الحلفاء الآخرين حدّوا قواتهم بالعمليات السلبية. إنّ الوضع يتطلّب قائداً لحلف شمالي الأطلسي يستطيع التأليف بفعالية بين الآراء المختلفة، لكن الاستماع - دون ذكر الائتلاف - ليس من مواطن القوة عند الرئيس بوش. فقد كان أداؤه رديئاً في إقناع شعوب بلدان الحلف بأنّ لديهم أسباباً وجيهة للاهتمام بنجاح التحالف. وبسبب هذه العيوب، تمكّنت طالبان - على الرغم من مبادئها الاجتماعية غير الجذابة - من التقدّم في جنوب أفغانستان. صحيح أنّ حلف شمال الأطلسي يمتلك أفضلية القوة النيرانية، لكن يوجد لدى طالبان كل مزايا القوة المتمرّدة: الوقت، ومعرفة التضاريس،

والحماسة الإيديولوجية، والقدرة على إعادة توليد الذات. كما أنّ لديها عمقاً استراتيجياً، يرجع إلى الدعم الذي تتلقّاه من قبائل البشتون في باكستان المجاورة.

هذه الفوضى جزء مما ورثته، وربما تشكّل قسماً من ميراثك أيضاً. ربما يبقى حلف شمال الأطلسي في أفغانستان عشر سنوات أو أكثر، الأمر الذي سيرهق صبر القوات الحليفة وتسامح الأفغان الذين يكرهون أن يدير بلدهم المسلّحون الأجانب الذين غالباً ما يقتلون الأبرياء. وسيعود إليك أمر المحافظة على تماسك الحلف؛ ووضع استراتيجية لهزيمة طالبان أو مساعدة الحكومة الأفغانية في احتوائها.

يمكنك استخدام الاحتفال بالذكرى الستين لكي تحدّد مسارك. لكنّ الحلف وللأسف يبقى مفتقراً للتناغم والانسجام. فلدى أوروبا ثروة مساوية للثروة الأميركية وعدد مماثل من القوّات المسلّحة، لكنّها لا تنفق سوى نصف ما تنفقه أميركا على الدفاع. ولطالما كان خفض عدم التكافؤ بين القدرات الأميركية والحليفة هدفاً منشوداً، لكن دونه عمل كثير؛ ولم تحدث نكساتنا في العراق وأفغانستان شيئاً لتوليد الحماسة لذلك. ومما يضعف المسعى على أي حال إصرار أوروبا على تطوير ذراع دفاعية منفصلة خاضعة لسلطة الاتحاد الأوروبي. فعندما كنت وزيرة للخارجية كان هدف أوروبا المعلن إنشاء قوة تدخّل سريع قوامها ستون ألف عسكري؛ وسرعان ما تمّ التخلّي عن ذلك المخطّط. وترمي الخطة الحالية إلى إنشاء اثني عشر تشكيلاً أصغر حجماً، يدعى كل منها مجموعة قتالية، وتتكوّن من ألف وخمسمئة عسكري. إذا كانت هذه المبادرة تحسّن القدرة العسكرية الأوروبية، فنعم الأمر؛ غير أنّ النتائج لم تكن مشجّعة حتى الآن، لا للاتحاد الأوروبي ولا لحلف شمال الأطلسي.

في السنوات الثماني الماضية تساءلنا إذا ما كانت الخصومة الأوروبية الأطلسية ناتجة أساساً عن الرئيس بوش أو عن تصادم دائم بين الثقافتين والمصالح. يطمئنني أصدقائي الأوروبيون إلى أنّ المشكلة هي بوش، وأنّ الجميع في الجانب الآخر من الأطلسي توّاقون لرؤية وجه جديد في البيت الأبيض. ربما يخبرونني بما يعتقدون أنّني أودّ سماعه، وربما ما يرغبون هم في اعتقاده. وسنرى الآن.

يجب أن يكون هدفك منذ اليوم الأول التشديد على إيمانك بأنّ الولايات المتحدة وكندا وأوروبا منخرطة في مشروع مشترك. فالمخاطر كبيرة بحيث يجب عدم السماح بأن تصرف الخلافات الثقافية انتباهنا. ستستمرّ الخلافات بالتأكيد بشأن القضايا الصغيرة، لكنّها لن تؤثّر كثيراً إذا كان بوسعنا الاتفاق على المسائل الكبيرة المتعلّقة بالإرهاب والسلام والقانون وحقوق الإنسان.

عليك أن تنأى بنفسك بالتأكيد عن أعمال الرئيس بوش الأحادية التي لا يمكن الدفاع عنها. وثمة مجال يمتدّ من الطاقة إلى البيئة لا بدّ فيه من وجود استراتيجية أوروبية أطلسية منسّقة. فقليلة هي الخلافات التي أضرّت بسمعة أميركا أكثر من المفهوم الذي أحدثته سياسات بوش، بأنّنا أنانيون لا نهتمّ بالجوّ ومتعلّقون جداً بالعادات التبديدية لكي نهتمّ بممارسات الطاقة المستدامة. وهذه المسائل مترابطة بوضوح، لأنّ كبح تغيّر المناخ يتوقّف على خفض انبعاثات غازات الدفيئة، التي تتعلّق بدورها بالمحافظة على البيئة وتطوير موارد الطاقة النظيفة، ووفقاً لدراسات حسنة السمعة: خفض استهلاكنا من لحوم الأبقار من الماشية التي تميل إلى التعرّض لانتفاخ البطن. وترتبط هذه الأمور الضرورية ارتباطاً وثيقاً بالعافية المستقبلية للاقتصاد العالمي والازدهار الأوروأطلسي، اللذين يعتمدان بصورة متزايدة على مورّدي النفط ذوي السياسات المريبة والاستقرار المشكوك فيه. كما أنّ البعد العالمي واضح، بالنظر إلى إمكانية تعرّض مرافق إنتاج النفط إلى هجمات إرهابية، والتأثير المحتمل لتغيّر المناخ على إنتاج الغذاء وموارد المياه والكوارث الطبيعية والأمراض.

لتحقيق الريادة في هذه المجالات، يجب الاعتراف أولاً بأنّ أميركا قد تخلّفت عن الركب. وعليك كرئيس أن تعمل مع الكونغرس لاسترجاع مصداقيّتنا كربّان مسؤول عن البيئة العالمية، ووضع خطط مشتركة في الوقت نفسه مع الاتحاد الأوروبي. يجب أنّ يكون الهدف تنسيق السياسات في العديد من القضايا: من خفض انبعاثات الكربون، إلى تطوير التكنولوجيات ذات المردود الطاقوي المرتفع، إلى التفاوض على اتفاقات تستوعب الاقتصادات الناشئة في الصين والهند والبرازيل؛ دون منحها ترخيصاً غير

مقيّد. وستكون أنجيلا ميركل، وهي فيزيائية سابقة، شريكاً مثالياً.

لقد آن الأوان لتذكير أنفسنا من "نحن" وما الذي يستطيع الأميركيون والأوروبيون تحقيقه معاً. ويستطيع رباعي القادة الأوروأطلسيون - ميركل، وبراون، وساركوزي، وأنت - أن ينشئوا مؤسّسة جديدة للتقدّم العالمي من خلال استعادة الثقة المتبادلة وتنفيذ المشاريع التعاونية. ولكي تكون ملهماً، أشجّعك على الاستشهاد *بالجسر الجوي إلى برلين*؛ لأنّني أخشى أن تكون الرواية قد نسيت، ولأنّ هذه الحادثة ستحلّ ذكراها الستين في السنة الأولى من عهدك.

في أعقاب الحرب العالمية الثانية، عُزلت برلين الغربية بنصف البلد الشيوعي، ولم تعد مرتبطة بسائر ألمانيا الحرّة إلاّ بسكّة حديدية وطريق سريع واحد. وفي حزيران/يونيو 1948، قطع السوفيات طرق المواصلات البرية مع القطاعات التي يسيطر عليها الحلفاء من المدينة، ما جعل السكان بدون مورد للغذاء والوقود. لو لم يفعل الحلفاء شيئاً لأصبحت برلين الغربية جزءاً دائماً من دائرة النفوذ السوفياتية. كان البديل هو محاولة تزويد مليونين ونصف المليون نسمة بالمؤن عن طريق الجوّ، باستخدام طائرات تلك الحقبة الصغيرة نسبياً والبطيئة. لم يكن هناك سابقة مماثلة من قبل، لكنّ ترومان كان عازماً على المحاولة. أطلق على الجسر الجويّ اسم **عملية فيتل**؛ بدؤوا بطائرات سي - 47 الثقيلة التي كانت تدعى القطرس، ولاحقاً سي - 54 المليئة بالفحم والأغذية. كانت هذه الطائرات تطير على الرغم من أجهزتها المتهالكة، وأنوارها المتعطّلة، وزجاجها الذي يتسرب منه الماء، واتصالاتها المشوّشة. كان هناك برجا إرسال روسيان يشكّلان خطراً على الطيّارين في المطار في القطاع الفرنسي. أمر قائد المطار، بعد تحذيرات متكرّرة، بتدمير البرجين. وسرعان ما اندفع ضابط سوفياتي بعد ذلك إلى القيادة الفرنسية صائحاً، "كيف فعلتم ذلك"؟ فجاء الردّ "بالديناميت".

ظلّ الطيّارون المنهكون - أميركيون، وبريطانيون، وأستراليون، وكنديون، ونيوزيلنديون، وجنوب إفريقيون - يحلّقون على مدار الساعة من الصيف حتى الشتاء (مع قافلة بوب هوب بمناسبة عيد الميلاد) والربيع، وبلغت الرحلات ذروتها بموكب الفصح، عندما أنجزت

1398 رحلة في أربع وعشرين ساعة، حيث كانت الطائرات تتحرّك كرفّ من الذباب المجنّح؛ وأثبتت بما لا يدع مجالاً للشكّ بأنّ الحصار لا يمكن أن ينجح. بل اتخذ الجسر الجوّي نشيداً وطنياً صاغه إيرفنغ برلين:

عملية فيتل، سنمضي في طريقنا عما قريب
حاملين الفحم والقمح والتبن، والنداء نجيب
عملية فيتل، عندما نحلّق في السماء
لن ننسى ولن نفقد الرجاء.

أخيراً، في أيار/مايو 1949، بعد نحو 320 يوماً وأكثر من 250,000 رحلة، أذعن السوفيات ورُفع الحصار. لقد رفض الأميركيون، والبريطانيون، والفرنسيون، والألمان، والحلفاء الآخرون الخضوع للترهيب، ولأنّهم اتحدوا معاً، تحدّوا كل الاحتمالات وأنقذوا برلين الغربية. ثمة حاجة إلى مشروع مشترك.

ربما يصبح العالم واحداً في المستقبل، كما تصوّر جون لينون. وحتى ذلك الحين، ستبقى الانقسامات، وسترغب الولايات المتحدة في إشراك معظم أميركا اللاتينية معنا في مشروع مشترك خاصّ بنا؛ بل هي بحاجة إلى ذلك. إنّنا نتشارك تربية استعمارية والتزاماً بالديمقراطية الدستورية يرجعان إلى واشنطن وبوليفار. ونحن أعضاء في منظمة إقليمية منذ إنشاء الاتحاد الدولي للجمهوريات الأميركية في سنة 1890 (حل محله لاحقاً اتحاد البلدان الأميركية، ثم منظمة الدول الأميركية). وقد وقفنا معاً، مع قليل من الاستثناءات، في محاربة الأنظمة الشمولية.

كما أنّنا تجاوزنا فترات من التوتّر الحادّ. في بعض الأحيان اتهمّت الولايات المتحدة باللامبالاة تجاه جيرانها في الجنوب؛ وفي أحيان أخرى بالتدخّل ومحاولة التآمر على الجميع. وكان كلا الاتهامين مبرّراً في بعض الأحيان. والعلاقات حالياً ليست جيدة.

من أسباب ذلك التنوع الإقليمي لموضوع عالمي. الفجوة بين الأغنياء والفقراء في أميركا اللاتينية أعلى مما هي عليه في أماكن أخرى. كما أنّ التنمية الاقتصادية غير متكافئة، فلقد ارتفعت 82 بالمئة بين عامي 1960 و1980، و9 بالمئة فقط بين عامي 1980

و2000، و4 بالمئة فحسب في السنوات الخمس الأولى من القرن الجديد. ويعيش واحد من اثنين من الأميركيين اللاتينيين في الفقر؛ ويعيش واحد من أربعة بأقل من دولارين في اليوم.ولا تزال الظروف بدائية، لاسيما في المناطق الريفية. ويولد الأطفال في هذا العالم باستخدام أساليب وتكنولوجيات عمرها قرن من الزمن. وتتكوّن الرعاية الصحية من عيادات صغيرة مزوّدة ببضع قنانٍ من الأدوية فات تاريخ استخدامها. ويزرع الفلاحون الغذاء بأيديهم العارية، وبمساعدة حمار صغير إذا كانوا محظوظين. لم تكن هذه النتائج الموعودة قبل عقدين من الزمن، عندما انطلقت الثورة الديمقراطية في أميركا اللاتينية، ليحلّ قادة منتخبون محلّ الحكومات العسكرية.

أدّى التحرّر من الوهم إلى ضعف تأييد القوانين الليبرالية للاستثمار والتجارة. ولا يشعر العديد من الأشخاص بأنّ الديمقراطية تحقّق ما وعدت به لأنّهم غير قادرين على رؤية فوائد ذلك في حياتهم. وابتداء من انتخاب الرئيس الفنزويلي هوغو سانشيز في سنة 1998، حقّق القادة السياسيون الذين وعدوا بإجراء تغيير جذري نتائج طيّبة في الانتخابات. فقد شغل السياسيون اليساريون مناصب الرئاسة في الأرجنتين وبوليفيا والإكوادور ونيكاراغوا، في حين فشلوا بهامش ضيّق في المكسيك والبيرو.

لا يمكن لوم الرئيس بوش على منح الأولوية الكبرى للإرهاب في أعقاب 11/9. غير أنّه كان يمكن تجنّب غزو العراق، فقد حرف العديد من نواحي السياسة الخارجية الأميركية والتهم في الوقت نفسه المواردَ التي كان يمكن استثمارها بحكمة أكبر في أماكن أخرى. لقد اتهم الرئيس بوش بيل كلينتون ذات مرة بأنّه أهمل أميركا اللاتينية، لكنّه تجاهل تلك المنطقة في عهده، إلى أن حاول التعويض في نصف ولايته الثانية.

في آذار/مارس 2007، قام بوش برحلة لمدة ستة أيام زار فيها البرازيل وأورغواي وكولومبيا وغواتيمالا والمكسيك. وكان الموضوع زيادة العدالة الاجتماعية؛ وذلك أمر غريب عن إدارته. صوّر الرئيس أمام آثار المايا، وروّج لفوائد الإيثانول، وحمل أقفاص الخسّ أمام الكاميرات، وسعى إلى الحصول على فضل المعونة الأميركية للمنطقة؛ وهي تساوي في سنة ما تنفقه في يوم في الخليج.

أثارت الرحلة - المرحّب بها - ذكريات الحرب الباردة، عندما استخدم الأميركيون القادة الدكتاتوريين لإضعاف الحماسة لأسلوب الثورة الكوبية في أميركا اللاتينية. وقد صمّم مسار رحلة الرئيس بوش لا لمجابهة سياسات كاسترو المريض المناوئة لأميركا، بل شافيز، الفنزويلي المعادي بشدّة لأميركا.

عندما كنت أتولّى منصبي، تعرّفت إلى أسلاف شافيز ووجدتهم مسنّين ومتعبين وغير متابعين للمستجدّات. وقد اجتمعت أنا والرئيس كلينتون بشافيز في نيويورك في أحد اجتماعات الجمعية العامّة للأمم المتحدة. كان ردّ فعلنا الأولي مواتياً؛ بدا شافيز ودوداً ومتلهّفاً لشرح خطته الرامية إلى استخدام عائدات النفط لمساعدة الفقراء. وقد أعجبنا بحيويته، وأقرّ كلينتون بأنّه زميل سياسي طبيعي. لذا خاب أملنا بقراره - الذي اتضح فيما بعد - باعتماد موقف معادٍ للولايات المتحدة وكل من لا يتفق مع آرائه في موضوعين: الحاجة إلى إصلاح جذري، وعصمة هوغو شافيز عن الخطأ.

في سنة 2002، وقعت محاولة انقلابية فاشلة ضدّ شافيز نفّذها أعداؤه داخل الجيش الفنزويلي. وقد فشل الانقلاب، لكن ليس قبل أن يؤيّده الرئيس بوش ضمناً، على الرغم من تعهّد أعضاء منظّمة الدول الأميركية بالتمسّك بالإجراءات الدستورية. وقد مكّنت الواقعة شافيز من وسم بوش بالإمبريالية في منطقة تردّد فيها الأناشيد المعادية للإمبريالية في رياض الأطفال. أضف إلى ذلك مصادر الاستياء المعتادة في العلاقات الأميركية اللاتينية، فيكون لدى القائد الفنزويلي ذخيرة وافرة يطلقها على واشنطن.

يحبّ شافيز التحدّث عن مواضيع الفقر مقابل الامتيازات الواسعة. ويحضّ الأميركيين اللاتينيين على الوحدة في قتال واشنطن التي يصمها بالشيطانية مثل، "الشيطان الذي يمثّل الرأسمالية". ويمتلك شافيز براعة في التعامل مع الجمهور أمام الكاميرا، وأسلوباً ساخراً ينتزع الضحك والهتاف، لاسيما عندما يكون هدفه الأميركيين أو بوش. ويتحدّث عن الفقراء كأنّهم ليسوا مشكلة، وإنّما كأنّهم يرمزون للأخلاق والقيم الوطنية. إنّه لا يعد بالصدقات، بل يعد بالعدالة. ولذلك يحبّيه الناس.

ولشافيز ميزة أخرى، وهي النفط بالطبع. يتساءل المرء عن مقدار المشاكل التي كان

يمكن أن يحدثها فيديل كاسترو لو كانت كوبا تمتلك 6 بالمئة من احتياطات النفط في العالم. وهكذا فإنّ العملاء الدوليين لفنزويلا يضخّون عشرات المليارات من الدولارات سنوياً في الحسابات المصرفية للبلد. ويتيح ذلك لشافيز لعب دور سانتا كلوز في الداخل والخارج. فقد فاز في الداخل بدعم الفقراء من خلال الضوابط على الأسعار وتوسيع الدعم، ومصادرة المزارع الكبيرة، وإنشاء التعاونيات التي تحظى بالتأييد، والرعاية الصحية التي يقدّمها عشرون ألف طبيب وطبيب أسنان ومدرّب رياضي كوبي. ربما يهزأ دعاة الأسواق الحرة، لكنّ هذه السياسات خفّضت الفقر كثيراً. وفي الوقت نفسه، عزّز شافيز سلطته بإعادة كتابة الدستور الفنزويلي، وإضعاف القضاء، وترهيب المعارضة السياسية، ومنح العقود العامّة للمقرّبين، واستخدام أموال النفط لبناء قوات الأمن وشراء السلاح. إنّه متمسّك بالرئاسة بوضوح، وأظهر نيّته الاحتفاظ بها "إلى يفرّقنا الموت".

على الصعيد الإقليمي، قدّم شافيز حزماً من المعونة إلى بوليفيا والأرجنتين وكوبا، في حين زوّد الفقراء في الولايات المتحدة وسواها من الأماكن بالنفط بأسعار مخفّضة. ولجذب الانتباه في أثناء رحلة بوش الربيعية، تعهّد شافيز بالاستثمار في المصفاة النيكاراغوية الوحيدة بمبلغ يفوق إجمالي المساعدة السنوية الأميركية لأميركا اللاتينية بأكملها.

يزعم شافيز أنّه يسترشد بصوت الشعب. ويتقبّل المستمعون إليه رسالته الشعبية، لاسيما عندما تأتي من شخصية باسمة تملك المال وترفع الشعارات المناوئة للأميركيين. غير أنّ هناك علامات على أنّ شافيز لا يعرف متى يجب أن يتوقّف. فقد أثار قراره بإغلاق البرمجة التلفزيونية المستقلة احتجاجات غاضبة. وفشلت حملته في سنة 2006 للفوز بمقعد في مجلس الأمن عندما اعتبر العديد من المندوبين أنّ خطابه التهكّمي في الجمعية العامة يفتقر إلى الاحترام. ودعم خطة بوليفيا لتأميم صناعتها النفطية؛ وذلك تحدٍّ للبرازيل التي يوجد لشركتها المملوكة من الدولة، بتروبراس، استثمارات كبيرة في ذلك البلد. لقد وفّر أسلوب شافيز الكثير التجوال فرصاً كثيرة لالتقاط الصور مع الدكتاتوريين الأجانب، لكنّه لم يفعل شيئاً لمعالجة مشاكل التضخّم والفساد والجريمة في

الداخل. كما أنّ ادّعاءه القيادة اللاتينية لا يلقى قبولاً حسناً على الدوام من زملائه الرؤساء، لاسيما البرازيلي لويز لولا، والكولومبي ألفارو أوريب، وخاصّة فيليبي كالديرون رئيس المكسيك، أكبر بلد ناطق بالإسبانية في العالم.

فاز كالديرون في الانتخابات في سنة 2006 بفارق ضئيل مختلَف فيه على يساري على نمط شافيز. وهو مصلح اقتصادي يتخذ موقفاً متشدّداً من الجريمة والمخدّرات، لذا يجب أن يكون كل رئيس أميركي قادراً على التعامل معه. غير أنّ الشراكة ستختبر بوضعيكما السياسي الداخلي. يواجه حزب كالديرون - يشكّل أقلية في البرلمان المكسيكي - حزبين معارضين قويين يسرّهما أن يفشل. وإذا شعر كالديرون بالحاجة إلى استثارة التأييد الشعبي، فسيجد إغراء في انتقاد الولايات المتحدة، لاسيما في قضيتي التجارة والهجرة. وعلى غرار الآخرين في المنطقة، يشعر كثير من المكسيكيين بأنّ سياسات التجارة الحرة، بما في ذلك نافتا (منظمة التجارة الحرة لأميركا الشمالية)، تضرّ بالمزارعين الصغار. وفي حين يريد المكسيكيون إعادة التفاوض على نافتا لجعل الاتفاقية مواتية أكثر، فإنّ العديد من الأميركيين يشعر بأنّها تميل بالفعل في الاتجاه الجنوبي. وتريد اتحادات العمال في أميركا الشمالية التخلّص من الاتفاقية بأكملها.

في عهد إدارة بوش، كان من الصعب على المكسيكيين تفسير سياسة الهجرة الأميركية. فالرئيس يؤيّد برنامج العمال الوافدين القانونيين وقد تحدّث - بشجاعة كبيرة - لصالح إجراء تغييرات شاملة على الهجرة. بالمقابل، صدّق على قرار الكونغرس، غير الشعبي في المكسيك، ببناء جدار يمتد سبعمئة ميل على طول الحدود الأميركية المكسيكية.

في غضون ذلك، تبقى الهجرة قضية ساخنة في الولايات المتحدة. وقد عبّر جاي لينو عن مزاج بعضهم عندما مزح بأنّ المشاعر المعادية لأميركا مرتفعة في المكسيك وفقاً لاستطلاع حديث للآراء. فنصف سكّان المكسيك ينظرون إلى الولايات المتحدة نظرة سلبية، والنصف الباقي موجودون في أميركا بالفعل".

في أثناء حملتك الانتخابية، اتخذت موقفاً مبدئياً بشأن الهجرة ووعدت بمواصلة

المساعي عندما تصبح رئيساً. إنّني لست حيادية في هذا الموضوع باعتباري مهاجرة ومؤمنة قديمة بالحلم الأميركي. والمتبحّرون في العلم والسياسيون الذين يحاولون إلقاء حلّ مشاكل أميركا على المهاجرين غير القانونيين مضلّلون؛ وهؤلاء النقّاد لا يسدون خدمة إلى دافعي الضرائب أو العمال الأميركيين، ولا يتكلّمون باسم غالبية شعبنا.

يدرك معظم الأميركيين بأنّ بلدنا بناه الأفراد والأسر الذين وصلوا إلى هنا من أماكن أخرى، وبعضهم مقيّدون بالأصفاد؛ وتلك وصمة دائمة لنا. اليوم يؤمن معظمنا بأنّ علينا اتخاذ تدابير معقولة لمنع الهجرة غير القانونية بحيث لا نشهد تدفّقاً. ويجب معاملة الأشخاص الذين يصلون بطريقة غير قانونية ويقبض عليهم بطريقة إنسانية وإعادتهم. ويجب فتح طريق للذين كوّنوا أنفسهم بالفعل نحو الحصول على الجنسية. ويجب أن يحظى الذين يودّون القدوم في المستقبل بفرصة عادلة للقيام بذلك قانونياً؛ مثلما فعل معظم أسلافنا. وعلينا أن نذكر أنّ سبب مجيء معظم المهاجرين إلى الولايات المتحدة - بصرف النظر عن طريقة مجيئهم - هو العمل. إنّهم يؤمنون أيضاً بالحلم الأميركي.

تعتبر المكسيك وبلدان أميركا الوسطى أنّ معاملة شعوبها قضية حقوق إنسان. وثمة اختلاف أخلاقي مهم بين من يرتكب جريمة عنيفة ومن يحاول عبور الحدود بطريقة غير قانونية لتقديم الطعام إلى عائلته. ربما يخرق مثل هؤلاء المهاجرين قوانين الدخول غير المشروع، لكن إذا كان ذلك كل ما يقترفونه، فإنّهم متجاوزون وليسوا مجرمين. إنّهم يستحقّون احترام كرامتهم. إذا قلنا يوجد منافقون بين ظهرانينا فإنّنا نبخس تقدير الأمور. في سنة 2006، طُلب من أحد المرشّحين للكونغرس في أورانج كاونتي سحب ترشيحه بعد إرسال رسالة إلى مقيمين ذوي أسماء لاتينية تقول إنّ المهاجرين الذين يحاولون الاقتراع سيرحّلون. ما اسم هذا المرشّح المسيء؟ تان نغويَن.

عند مقاربة أميركا اللاتينية، على واشنطن الامتناع عن تقديم خيار الكل أو لا شيء بين السوق الحرة دون أي قيود والسياسة الشعبية المركزية على طريقة هوغو شافيز. علينا بدلاً من ذلك دعم الحكومات التي تعطي أولوية كبرى لمكافحة الفقر والتي تفعل ذلك دون تثبيط الاستثمار الخارجي أو تكبّد ديون هائلة. بدلاً من الإصرار على التجارة الحرة

كحلّ لكل المشاكل، علينا العمل لضمان تشارك منافع التجارة الموسّعة والاستثمار الخارجي على نطاق واسع. علينا تشجيع البرامج الاجتماعية المبتكرة، مثل تلك الموجودة في المكسيك والبرازيل، البرامج التي تكافئ الأسر التي تبقي أطفالها في المدارس. وعلينا السعي لثني الحكومات عن الوقوع تحت تأثير شافيز، لا عن طريق تشبيهه بهتلر، كما فعل دونالد رامسفيلد، بل عن طريق السخاء في تقديم المعونة والاعتماد على الشخصيات العقلانية في المنطقة للحؤول دون استمرار الضرر. وبالنظر إلى السياسة الراهنة، فإنّ الطريقة المثلى لإضعاف شافيز (إعلامياً على الأقل) هي تجاهله.

أنت بحاجة كرئيس إلى جدول أعمال إيجابي في أميركا اللاتينية، لكن من الصعب اجتناب مشاكلها في الواقع. فعندما يتجاوز عدد المواليد الجدد عدد الوظائف الجديدة عادة، فإنّ الرياضيات تروي القصة. وعلى الرغم من أنّ السياسات الاقتصادية الليبرالية لم تكن فعّالة دائماً، فإنّ السياسات الجذرية لم تنجح البتة. ومن المرجّح أن يستمرّ توجه الاستياء نحو القوى القائمة، بمن فيها نحن.

الردّ الأفضل هو عدم إنكار ذلك بل الإقرار به والتعامل معه. إنّ آلية قمة الأميركات، التي أطلقها بيل كلينتون في سنة 1994، هي الأداة الصحيحة لإشراك المنطقة في مشروع مشترك. وتركّز آلية العمل على القضايا التي يتفق اليسار واليمين على أهميتها على السواء: التعليم، والتنمية، والحكم الرشيد، والجريمة، والديمقراطية. عليك أن تعلن في وقت مبكّر عن عزمك على حضور القمة الخامسة التي ستعقد في ترينيداد وتوباغو في سنتك الأولى في المنصب. وللإعداد لها، أوصي بأربع خطوات.

أولاً، عليك أن تعيّن مبعوثاً خاصاً إلى الكاريبي؛ ويجب أن يكون شخصاً قريباً منك ويجمع بين الهمّة والذكاء. وعلى المبعوث أن يضمن الإبلاغ عن اهتمامك بالمنطقة ومعرفتك عنها كل يوم.

ثانياً، عليك الاعتراف بأنّ ما يسمّى بالحرب على المخدّرات لا يحقّق نجاحاً. فبعد سنوات من المساعي وإنفاق عشرات المليارات من الدولارات، لم يتغيّر سعر الكوكايين المتوفّر في شوارع نيويورك ونقاؤه. المشكلة غير موجودة لدى مزارعي الكوكا في الأندير

بقدر ما توجد لدينا. فتوقنا إلى المخدّرات غير المشروعة هو أكثر أشكال التدخّل الأميركي إضراراً في الشؤون الداخلية لأميركا اللاتينية. علينا الاعتراف بذلك - والتعامل معه - بتخصيص معظم أموالنا ذات الصلة بالمخدّرات إلى التعليم والعلاج داخل حدودنا. لن يؤذينا تجّار المخدّرات إذا لم نشترِ ما يبيعونه، لكن ما دام هناك خمسة وثلاثون مليون أميركي مدمنين على المخدّرات غير القانونية، فسيجد المجرمون طريقة لتلبية احتياجاتنا.

ثالثاً، علينا اتباع سياسة تجاه كوبا متحرّرة من الخصومة السياسية التي سادت نصف القرن الماضي. ربما أدّى الحظر غايته في الأصل، لكنّه تجاوز الفائدة المرجوّة منه. وهو لا يحظى حالياً بأي دعم دولي، ولا وظيفة له سوى توفير تبرير ملائم لسياسات هافانا القمعية. لا تمتلك الولايات المتحدة رخصة لتملي على كوبا مستقبلها، ولن تؤدّي المحاولات الخرقاء للقيام بذلك سوى إلى التخريب على من يعمل داخل كوبا من أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان. يجب أن يكون نهجنا قائماً على الصداقة تجاه سكان الجزيرة، ودعم زيادة الاتصالات بين بلدينا على كافة المستويات. لا يحتاج إلينا الكوبيون للإشارة إلى أن الكاسترووية ردّ غير كافٍ على مطالب الاقتصاد العالمي. وسيكون عليهم التكيّف حتماً في حقبة ما بعد كاسترو. لنشجّعهم على القيام بذلك من خلال زيادة الانفتاح السياسي، لكن علينا أن نحرم أيضاً خلفاء كاسترو من عذر تنمّر الأميركيين.

أخيراً، عند التخطيط للقمة، رتّب جدول مواعيدك في ترينيداد للاجتماع بالأشخاص بعيداً عن فندقك وخارج فقاعة الحماية التي ينشئها مستشاروك والصحافة. وسيسمح حرّاسك بذلك إذا ما ضغطت بقدر كافٍ. عندما كان الرئيس بوش في غواتيمالا، كان جزء من الترحيب التقليدي يقضي بإلقاء أكواز الذرة الصغيرة عليه وعلى سيارته. بعد أن مرّت حاشيته وتفرّق الناس الذين يملأون الشوارع، ظهرت شخصيات أخرى. انحنوا ليتفحّصوا ما يوجد على الأرض، وظنّوا أنّ الأكواز معدّة للأكل. هذه هي دائرتك الانتخابية سيدي الرئيس. تحدّث إليها بطرق توحي حقاً بالأمل، وستقف أميركا اللاتينية إلى جانبك.

الفصل العاشر
موقع أميركا في القرن الآسيوي

تمتلك أوروبا حلف شمال الأطلسي، ويمتلك نصف الكرة الغربي منظمة الدول الأميركية، غير أنّ البلدان الرائدة في شرق آسيا لم تتجمّع معاً بالطريقة نفسها. فالنزاعات السابقة لا تزال تلازم هذه البلدان، ما يتركها دون رؤية مشتركة للمستقبل، ويعقّد علاقاتنا مع المنطقة. عليك التقدّم بعناية إذ تكون الحساسيات شديدة دائماً حيث يتنافس التقليد والحداثة. فلأميركا مصلحة في تأمين موقعها كقوة في المحيط الهادئ؛ وفيما يمكن أن يدعى القرن الآسيوي. غير أنّ الطريق إلى النجاح لا يمرّ عبر محاولة إصدار الأوامر - وهو ما سيفشل بالتأكيد - بل بالعمل كنوع من الحكم الودّي. ومن مزايا مثل هذه السياسة أنّها تضعنا في موقع مراقبة كل الفاعلين عن كثب.

عندما تزور شرق آسيا، من المرجّح أن ترد الصين في ذهنك في المقام الأول. غير أنّ طوكيو يجب أن تكون وجهتك الأولى. فالحليف الموالي يستحقّ الأولوية. وفي السنوات الستين الماضية، كانت اليابان رائدة بين البلدان الصناعية، وداعماً للقانون الدولي، وشديدة السخاء مع الفقراء. واليابان صديق موثوق للولايات المتحدة، فهي تقدّر إقامة علاقات وثيقة معها لأنّها لا تنسجم جيداً مع جيرانها إلى حدّ ما. ومع أنّ هذا البلد يحظى بالاحترام، فإنّه يثير الامتعاض أيضاً. كان يجب أن تصبح اليابان من الناحية المنطقية عضواً دائماً في مجلس الأمن منذ مدّة طويلة، لكن حالت الصين دون ذلك، وهي ضحية الأعمال الوحشية اليابانية قبل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها.

في السنوات الاثنتي عشرة السابقة لسنة 2001، توالى عشرة رؤساء وزارات مختلفين على حكم اليابان؛ ثم جاء جونيشيرو كويزومي إلى السلطة. وفي حين أطلق على أحد أسلافه لقب "البيتزا الباردة"، فإنّه كان مليئاً بالحيوية وذا أفكار غير تقليدية (وشعر رائع). فأدخل النشاط على اقتصاد ساكن بقلب سياسات حزبه والتحدّث بصراحة عن الحاجة إلى الإصلاحات وصعوبة التكيّف معها. لقد كان كويزومي بليغاً

وعصرياً، خلافاً للسياسيين اليابانيين الذين يثيرون الملل، رغم ثقافتهم، إلى حدّ أنّ أحد الدبلوماسيين الأميركيين اشتكى من أنّه لا يستطيع البقاء يقظاً في أثناء موائد العشاء إلاّ بالجلوس على شوكته.

كانت خصوصية كويزومي الفردية شهيرة في اليابان ولكن ليس بالقدر نفسه لدى الآسيويين الآخرين. وعندما انتهت ولاية رئيس الوزراء التي استمرّت خمس سنوات، لم يكن الصينيون ولا الكوريون الجنوبيون على علاقات ودية جداً معه. فقد كان كويزومي يصرّ على القيام بزيارات علنية إلى ياسوكوني جينجا، وهو مزار للشينتو في طوكيو، حيث تكرّم أرواح من قضوا في خدمة الإمبراطور؛ بمن فيهم أربعة عشر مجرم حرب. تصوّر المعروضات في الموقع المحاربين اليابانيين بأنّهم مدافعون أبطال عن آسيا ومحبّون للسلام. وقد احتجّت جارات اليابان التي تنظر نظرة مختلفة إلى الماضي على تلك الزيارات. وأثارت ضجّة أيضاً بشأن التغييرات التي أدخلت على النصوص المدرسية والتي تقلّل من المسؤولية اليابانية عن الحرب العالمية الثانية.

ردّ كويزومي على مثل هذا الانتقاد باحتقار. وبدلاً من أن يحاول إصلاح العلاقات، ازداد اقتراباً من الولايات المتحدة. وقد دعا الرئيس بوش المفضال رئيس الوزراء كويزومي إلى اختتام ولايته في الحكم بزيارة غريسلند. وهناك ارتدى العازب البالغ أربعة وستين سنة نظارة ألفيس الشمسية، وعانق ليزا ماري بريسلي، وغنى "لوف مي تندر".

حاول آبي شينزو، خليفة كويزومي، إصلاح العلاقات بتبادل الزيارات مع قادة بيجنغ وسيول. ثم أثار الغضب بعد ذلك بالمعاندة في إنكار الأدلّة على إكراه الآسيويات على تقديم خدمات جنسية للجنود اليابانيين في أثناء الحرب. وأثار آبي أيضاً الشكوك في نواياه عندما وقّع اتفاقاً أمنياً مع أستراليا، ورفع مكانة هيئة الدفاع في بلده، وتحدّث بإيجابية عن إعادة كتابة "الدستور السلمي" لليابان بعد الحرب لتقليل القيود على العسكريين. وفي عهد كويزومي، خطت اليابان بالفعل نحو موقف عسكري أشدّ متانة بالمشاركة في الدفاع الصاروخي عن ميدان القتال، ونشر مدمّرات عالية التقانة في المحيط الهندي، وإرسال قوات غير مقاتلة إلى العراق، والموافقة على إنشاء قيادة مشتركة

مع الولايات المتحدة في قاعدة يوكوتا الجوية.

من الأسئلة المطروحة عليك: هل تشجّع اليابان على أن تصبح شريكاً عسكرياً أكثر قدرة وظهوراً؟ لقد أشار مخطّطونا الدفاعيون إلى الواضح: اليابان تمتلك المهارةلكي تصبح حليفاً قوياً في المحافظة على الاستقرار في شرق آسيا. ويضغط اليابانيون، أو بعضهم على الأقل، للتحرّر من قيود ما بعد الحرب. وقد أجبر جدّ شينزو، وكان رئيساً للوزراء أيضاً، على الاستقالة لأنّه اقترح أن تصبح اليابان شريكاً أمنياً كاملاً للولايات المتحدة.

لماذا يجب ألاّ نؤيدفكرة الدستور الجديد ونرحّب بتطوير قوة عسكرية حديثة لليابان؟

ثمة أسباب عديدة. فنادراً ما ناقش أحد، حتى الصينيون، التواجد العسكري الأميركي في المحيط الهادئ. ويرجع ذلك إلى أنّ الفضل في كبح اليابان يعود إلى قواتنا؛ على الرغم من وجودها في آسيا لحماية اليابان. ومن المرجّح أن يحفز رفع القيود عن الجيش في ذلك البلد الصين إلى البناء السريع لقوتها العسكرية، ويدفع الكوريتين إلى علاقة أوثق مع بيجنغ. كما أنّنا لا يمكن أن نفترض أنّ الجيش الياباني المستقلّ سيكون متجاوباً دائماً مع المصالح الأميركية. فقد كانت النقطة الرئيسية لتسويق وضع دستور جديد تستند إلى الوطنية أكثر من استنادها إلى التحالف، فالدستور الجديد كما أكّد سيحلّ محلّ الدستور الذي فرضه الاحتلال الأميركي على البلاد.

إنّ رغبة آبي في أن تصبح اليابان أكثر حزماً على الصعيد الدولي تتوافق مع ضحالة مهاراته السياسية الداخلية. وفي أيلول/سبتمبر 2007، أجبر على الاستقالة بسبب عجز حكومته وهزيمة حزبه الكارثية في انتخابات منتصف المدّة. لذا عندما تصل إلى اليابان، سيستقبلك ياسو فوكودا، وهو قائد ياباني من الطراز القديم ذو صلة قوية بالسياسة ونهج أكثر احتراماً تجاه الصين. ثمة توقّع واسع النطاق بأن ترتدّ اليابان في حقبة ما بعد كويزومي إلى عاداتها في حقبة ما قبل كويزومي، ما يعني تعاقب القادة الذين يرضون رغبات الفئات النافذة بدلاً من التعامل مع المشاكل الاقتصادية الهيكلية. مع ذلك يمكنك أن تتوقّع ترحيباً حاراً في اليابان، ومباحثات شديدة التنوّع مع رئيس

الوزراء وقادة كبار على درجة عالية من الذكاء. احرص على رسم ابتسامة على وجهك عندما تصل، واحمل هدية في يدك، وشوكة في جيبك.

لم تنتهِ الحرب الباردة بعد في شبه الجزيرة الكورية. فمركز القتال والشريط الشائك لا يزال يفصل بين الشمال والجنوب على طول خط العرض الثامن والثلاثين. إنّنا نودّ أن تتحوّل كوريا الشمالية - اسمها الرسمي جمهورية كوريا الشعبية الديمقراطية - إلى عضو بنّاء في مجموعة آسيا والمحيط الهادئ، لكنّنا نفتقر إلى القدرة على فرض تلك النتيجة؛ بغياب المخاطرة بسفك دماء غزيرة. وهكذا فإنّ على صانعي السياسة في واشنطن وسيول التمسّك بمهمّة السياسة الخارجية الكلاسيكية الصعبة التي تقضي بالتوفيق بين الأهداف والقدرات. وأفضل ما يمكننا أن نأمل به بواقعية في المستقبل القريب، هو كوريا شمالية لا تهدّدنا أو تهدّد جيرانها. وذلك يجب أن يكون هدفك الرئيسي.

منذ البداية، يحمل التحالف بين الولايات المتحدة وكوريا الجنوبية زواجاً قائماً على المصلحة أكثر من العواطف. فالموقف الأميركي التقليدي هو أنّ كوريا الجنوبية يجب أن تكون ممتنّة لنا لإنقاذها من الشمال. بعضهم ممتنّون. يتذكّر بان كي مون، الأمين العام للأمم المتحدة، أنّ الجنود الأميركيين أعطوه بسكويتاً وشوكولاته ولباناً، ويضيف بأنّ "أميركا كانت تقدّم لنا كل ملابسنا". وقد قتل أكثر من ستة وثلاثين ألف عسكري وعسكرية في أثناء الحرب الكورية، ونُشر عشرات الآلاف هناك منذ ذلك الوقت، ساعين لتجنّب النزاع.

غير أنّ الكوريين الجنوبيين يذكرون جوانب أخرى من الماضي لا نذكرها على العموم. على سبيل المثال، واجهت جهود الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر لفتح كوريا أمام التجارة مقاومة، فتسبّب ذلك في اصطدام يسمّيه الكوريون "الغارة البربرية في سنة 1871". وفي سنة 1906، تلقّى تيودور روزفلت جائزة نوبل للسلام للمساعدة في تسوية الحرب بين روسيا واليابان؛ وبذلك العمل قدّم مباركة أميركا للاحتلال الياباني لكوريا. وعندما ناصر وودرو ويلسون في سنة 1919 قضية تقرير المصير الوطني، اعتقد

الكوريون أنّه سيصرّ على تحرير بلدهم؛ لكنّه لم يفعل، وتواصل الاحتلال. ويلوم بعض الكوريين واشنطن أيضاً على تقسيم بلدهم بعد الحرب العالمية الثانية. فقد كان المفاوضون الأميركيون والسوفيات هم الذين قسّموا شبه الجزيرة، ولم يكن للكوريين رأي في ذلك.

يفخر الكوريون الجنوبيون اليوم بأنّهم بنوا الاقتصاد الحادي عشر الأكبر في العالم وينوون التوقّف هناك. وهم عازمون على التأكيد على هوية قومية منفصلة عن الولايات المتحدة والبلدان الآسيوية الأخرى. وهم لا يزالون يقدّرون تحالفهم مع واشنطن لكنّهم لا يرغبون في أن يخضعوا للرعاية. في السنوات الأولى من عهد بوش على وجه الخصوص، أثارت الخلافات بشأن التكتيكات في التعامل مع الشمال مشاعر معادية لأميركا، حيث خلص الكثيرون في الجنوب إلى أنّ الولايات المتحدة أشدّ خطراً على السلام من بيونغ يانغ. وهكذا فإنّ الرئيس رو مو هيون اعتبر أنّ من المفيد في حملته الانتخابية في سنة 2002 القول بأنّه لم يزر الولايات المتحدة قطّ. فقد قال، "ليس لدي أي مشاعر معادية لأميركا، لكنّني لن أخضع للأميركيين".

كوريا الشمالية دولة مارقة بالنسبة إلينا. وهي دولة مارقة بالنسبة إلى الكوريين الجنوبيين، يشترك مواطنوها معهم في التاريخ والنسب. في العقود السابقة، كان الكوريون الجنوبيون معادين للشيوعية دون تحفّظ، وأكثر ميلاً حتى من واشنطن في اعتماد موقف قتالي من كوريا الشمالية. أما في السنوات الأخيرة، فقد تلطّفت المواقف. فالشمال يبدو أقلّ تهديداً لأنّه معزول، على الرغم من أنّه يمتلك سلاحاً نووياً. ولا يرغب الكوريون الجنوبيون في فرض عقوبات أو جعل حياة السكان المحرومين في الشمال أكثر صعوبة. كما أنّ الحماسة قليلة للتوقّع - الذي يرجوه بعض الأميركيين - بأن تنفجر حكومة كيم يونغ إيل الدكتاتورية من الداخل. وبعد أن راقب الكوريون الجنوبيون إعادة توحيد ألمانيا، فإنّهم لا يعتقدون أنّ بوسعهم تحمّل إعادة توحّد مفاجئة مع نصفهم الشمالي. وتأمل سيول بدلاً من ذلك إلى تشجيع التطوّر التدريجي في كوريا الشمالية ما يجعل أي إعادة توحيد نهائية غير عنيفة وأقل تكلفة.

الرؤية الرسمية في الجنوب هي أنّ الشمال سيبقى خطراً على الأرجح إذا شعر أنّه مهدّد، ومن المرجّح أن يصبح بلداً أكثر التزاماً بالقانون إذا عومل على أنّه كذلك. وهكذا انتهج الجنوب، في العقد الماضي ما يدعوه *"سياسة الشمس المشرقة"* تجاه الشمال، وقد تميّزت بالمشاريع الصناعية التعاونية والسياحة وإعادة لم شمل الأسر والشراكات الأولمبية واجتماعي قمة وديّين.

رحّبت إدارة كلينتون *بسياسة الشمس المشرقة* لأنّنا نؤمن أيضاً بأنّه يجب التعامل مع بيونغ يانغ، إذ إنّ كيم يونغ إيل ليس على وشك التقاعد أو الاختفاء. وفي عهد كلينتون، أقنعنا كوريا الجنوبية بتجميد برنامج أسلحتها النووية وتعليق تجاربها على الصواريخ الطويلة المدى. وقد قمت بتجربة زيارة العاصمة الكورية الشمالية في سنة 2000، على أمل تحقيق تقدّم إضافي. ونظراً لاحتمال أن تتوجّه إلى هناك بنفسك - في مرحلة ما من رئاستك - دعني أتوقّف دقيقة عند ما وجدته هناك.

بيونغ يانغ مدينة الأنصاب التي تكرّم أسوأ حكومة على وجه الأرض. استادات رياضية وتماثيل وأبراج تستخدم في الاحتفال بكيم يونغ إيل، القائد العزيز كما يدعى، ووالده المتوفّى، كيم إيل سونغ، مؤسّس جمهورية كوريا الشعبية الديمقراطية. تشهد المدينة قليلاً من الحياة التجارية وفيها القليل من السيارات أو الدراجات النارية الخفيفة؛ بل إنّ الدراجات النادرة تبدو مخلّعة وفي حالة مزرية. لا توجد كلاب أو قطط في الشوارع، أو حتى طيور مغرّدة على الأشجار، إذ لم أسمع شدوها البتة. في البحيرة الموجودة خارج منزل الضيافة الذي نزلت فيه، كان يوجد بطة واحدة. وبغياب أنوار الشوارع، كان موكب سياراتي يوجّه نحو الطريق الصحيح بزوج من العصي الفلورية اللتين يلوّح بهما شرطي لا يظهر جسمه في الظلمة. إنه مكان غامض وكئيب تصفّق فيه الحشود كأنّها روبوطات في الاحتفالات المعدّة، بل يرقص الصغار في سنّ الخامسة في تناغم تامّ.

يتكيّف الكوريون الشماليون - منذ أن يصبحوا في عمر يمكّنهم من تقبّل أي فكرة - على وهب قلوبهم وعقولهم لفكرة خيالية. ومن الأكاذيب التي يتعلّمونها أنّ أرضهم تحرّرت

في الحرب العالمية الثانية من اليابان بفضل مقاتلي الحرية الكوريين الشماليين بقيادة كيم إيل يونغ الشجاع؛ ويزعم أنّ القوات الأميركية لم يكن لها دور في دحر اليابان. أما بالنسبة إلى الحرب الكورية، فإنّها نتاج هجوم وحشي غير مستفزّ؛ شنّه الجنوب على الشمال.

يمنح القائد العزيز ووالده مكانة كليّ المعرفة وكلّي الرعاية. وتروى قصص ذات طابع توراتي عن أعمال الزعيمين الرحيمة. وعلى غرار ذلك، يعزى كل ابتكار - من كلمات النشيد الوطني، إلى تصميم طاولات الصفوف الدراسية - إلى الرجلين العظيمين. وعلى نحو معظم الأديان، تضع الخرافة الكورية الشمالية الخير مقابل الشرّ، ويتجسّد الشرّ في هذه الحالة باليابان وحليفته أميركا. وتلك حقيقة بالنسبة إلى الكوريين الشماليين. ويتّهم من يعتقدون خلاف ذلك بالتفكير الملوّث ويستحقّون إرسالهم إلى معسكرات إعادة التثقيف على طراز الغولاغ؛ أو الموت.

حكم كيم إيل سونغ مدّة ثمانية وأربعين عاماً. ومن المفارقة أنّ مبدأه للاعتماد الوطني على الذات استمرّ من خلال الاعتماد على معونة الكتلة السوفياتية والصين. أدّى انتهاء الحرب الباردة إلى جعل الشمال يعتمد على نفسه حقاً، وأثبت أنّه غير قادر على ذلك. واليوم، يفتقر البلد إلى الوقود والمخصبات والمعدات الحديثة. وأدى هذا الفقر إلى درجة من اليأس جعلت البلد أشدّ خطراً. ومن أسباب قيامه بصنع الأسلحة الاتجار بها. فالصواريخ والأسلحة المتقدّمة هي بمثابة محاصيله النقدية. وسنستفيد إلى جانب كوريا الشمالية إذا تمكن ذلك البلد من تدبر أموره دون بيع وسائل الدمار لمن يدفع ثمنها.

في اجتماعاتنا في بيونغ يانغ، وجدت كيم يونغ إيل عقلانياً وذكياً وواسع الاطلاع. إنّه رجل قصير مكوّر إلى حدّ ما، يسعى إلى إعطاء انطباع بأنّه أطول قامة بارتداء أحذية خاصة ونفش شعره. وعلى غرار شخصية الأمير هال في مسرحيات شيكسبير، كان لعوباً في شبابه ومعروفاً بشرهه ومقايضة الجنس بالأدوار كمنتج سينمائي. وخلافاً لوالده، يفتقر كيم إلى مؤهّلات العسكري البطل. فقد ورث السلطة على الرغم من العقيدة الشيوعية التي تدين تقديس الشخصيات والقيادة الوراثية. وللمحافظة على بقائه اضطر

إلى التلاعب بالقوات المسلّحة والنظام الحزبي بحيث يتقاتل المنافسون المحتملون بعضهم مع بعض فيما يحتفظون بولائهم له؛ أو يخشون من تحديه. ولأنّه ابن شخصية جعلت تبدو أكبر من الحياة، فقد تشوّهت حياته بالامتياز، ما تركه غافلاً عن معاناة الشعب الكوري الجنوبي. وكشخص، يمكن أن يكون شهماً، كما عرفت في أثناء عشاء رسمي عندما أمر السقاة عن الكف عن صب الخمر في كأسي، وبالتالي وقاني من العادة الكورية الشمالية حول التنافس في الشرب.

في اجتماعاتنا، مزجت أنا وكيم الحديث عن حقوق الإنسان والنوايا العسكرية بالمناقشات الفكرية لأسباب افتقارنا المتبادل للثقة. وقد أقرّ بأنّه ربما من غير المساعد تعليم الأطفال الكوريين الشماليين وصف الأميركيين بأنّهم "الأميركيون الأوغاد". واتضح لي كلما طال حديثنا أنّ كيم مستعد لمقايضة التنازلات العسكرية بمزيج من المساعدة الاقتصادية والضمانات الأمنية. كان يشعر بأنّ إقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع الولايات المتحدة ستضع حكومته على قدم المساواة مع الجنوب وتصدّق على ميراث أبيه وقيادته. وكانت القضية الأصعب التي لم تحل هي التثبّت من الوعود العسكرية. لم يكن كيم يوافق على أي تشكيك في أمانة كوريا الشمالية، في حين أوضحت صراحة أنّنا لا نصدّق إلا ما نراه.

عندما غادرت منصبي، كنت أتوقّع أن تتابع إدارة بوش من حيث انتهيت، كما أشار وزير الخارجية القادم كولن باول. لكن الرئيس بوش رفض أن يفعل ما فعله كلينتون، لا لسبب إلا لأنّ كلينتون فعله. كان ذلك الموقف الأساسي (كل شيء إلا كلينتون)*. وبدلاً من التفاوض مع كوريا الشمالية، تقاتلت الفئات داخل فريق بوش بعضها مع بعض. في البداية رفضوا تماماً التحدّث مع الشمال؛ ثم أرسلوا دبلوماسيين منعوا من قول أي شيء سوى "انزعوا سلاحكم وإلاّ". ردّت كوريا الشمالية بطرد مفتّشي الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وإخراج البلوتونيوم من ثمانية آلاف قضيب وقود مستنفد، وبناء رؤوس نووية، وأجرت تجربة نووية في 7 تشرين الأول/أكتوبر 2006.

هزّت هذه الحادثة الأخيرة الإدارة وجعلتها تتبع نهجاً دبلوماسياً جاداً مع كوريا

الشمالية. وكانت النتيجة اتفاقاً تجمّد بموجبه كوريا الشمالية برامجها النووية وتسمح للمفتشين بالعودة، مقابل المساعدة في تلبية احتياجاتها من الطاقة. وقد أعاد ذلك الوضعَ إلى حيث تركته إدارة كلينتون، باستثناء إتاحة الفرصة للشمال لتوليد يورانيوم يكفي لصنع ثمانية أو تسعة رؤوس نووية إضافية. وتتواصل المساعي للحصول على ضمانات بشأن الأسلحة النووية لكوريا الشمالية وتفكيك قدرتها على إنتاج المزيد. وتقع المهمّة الصعبة للتعامل مع كيم يونغ إيل على عاتقك الآن.

سيطلب منك ناشطو حقوق الإنسان والمسيحيون الإنجيليون، كرئيس، أن تنظر إلى كوريا الشمالية على أنّها أكثر من مشكلة أمنية. فقد أرهقت سنوات الاحتلال والحرب والحكم الشمولي الكوريين الشماليين، وهم يستحقّون المساعدة. وسيقال لك إنّ من غير الأخلاقي أن تقدم على أي شيء يضفي الشرعية بأي طريقة على حكومة كيم يونغ إيل أو يقوّي قبضتها على السلطة. عليك على الأقل أن تؤمّن التزاماً بحرية العبادة وفرصة لعمل الجمعيات الدينية الخيرية.

يرى الناشطون المسيحيون، وأعتقد أنّ كيم يونغ إيل يخشى أن يكون ذلك صحيحاً، أنّ أجل الدكتاتورية يحين عندما تواجه خرافة القائد العزيز تحدياً من طريقة قوية أخرى لتفسير العالم. والإنجيل يوفّر هذا البديل. فكوريا الجنوبية في النهاية موطن العديد من أكبر الكنائس المسيحية في العالم، وكانت بيونغ يانغ تعرف ذات يوم باسم أورشليم كوريا. بل إنّ كيم إيل سونغ تربّى على الإيمان، وتلك حقيقة رأى أن من الضروري أن ينكرها، على الرغم من أنّه أنهى مقدّمة مذكّراته بكلمات "الصلاة من أجل أرواح الثوريين الراحلين". وكما لاحظ الصحافي برادلي مارتن، مؤلّف إحدى الدراسات الضخمة عن كوريا الشمالية، لا يمكن أن يكون الارتباط عرضياً بين الثالوث المقدّس المسيحي و"كيم الأب وكيم الابن والروح القدس" للاعتماد على الذات. ولدرء النقّاد، سمحت كوريا الشمالية للإنجيليين المسيحيين، وتحديداً الأب بيلي غراهام، بالقيام بزيارات قصيرة. غير أنّه لا يوجد دليل على السماح بأي شيء يشبه الحرية الدينية في البلد.

من الواضح أنّه ليس بوسع الولايات المتحدة أن تقيم علاقة تقليدية مع كوريا الشمالية

ما دامت حكومتها شمولية. وعلى إدارتك أن تضغط لإحراز تقدّم بشأن حقوق الإنسان. السؤال الصعب هو هل يمكن الدفاع عن ترتيب أمني يخفّض خطر المواجهة النووية ويفيد كيم أيضاً؟ عندما تنظر في ذلك، لا تغفل عن أنّ خفض خطر حرب مدمّرة يحمل قيمة أخلاقية بالتأكيد، وأنّ عدم تحقيق تلك الغاية لا يقدّم أي ضمانة بأن يلطّف كيم يونغ إيل سياسته. بعبارة أخرى، إذا رفضنا على أسس أخلاقية التفاوض بشأن المسائل الأمنية مع الكوريين الشماليين، فقد ننتهي إلى عدم تحقيق أي تحسّن في الأمن أو حقوق الإنسان على السواء؛ ومن غير المحتمل أن ترغب في تلك نتيجة.

قبل خمس وسبعين سنة، كتب نو يونغ بارك، أقرب مكافئ صيني لدي توكفيل، أنّ الأميركيين "يدرسون التاريخ لتسقط أخطاء أسلافهم فحسب، لكي لا يكرّروا الأخطاء نفسها... لقد كان الصينيون المتمسّكون بالتقاليد القديمة يبجّلون أسلافهم كثيراً لدرجة تقديسهم، ويخشون الإقدام على أي شيء لم يفعله أسلافهم... تقوم فكرة التقدّم الصينية على الكفاح للحاق بآبائهم، في حين تقوم الفكرة الأميركية على فعل شيء لم ينجز من قبل".

هل لا تزال هذه المقارنة صالحة؟ لا أعتقد ذلك. لا يزال الأميركيون يتطلّعون إلى المستقبل، لكن الحنين إلى الماضي يضغط بقوة أيضاً. وغالباً ما نشير إلى أسلافنا بعبارات متوهجة؛ لاحظ مثلاً انبهارنا بالجيل المؤسّس وتبجيلنا أبطال الحرب العالمية الثانية. أما بالنسبة إلى نو يونغ بارك فسيصاب بالذهول. لم يعد قومه يكافحون للحاق بآبائهم؛ بل إنّهم يسابقوننا ويقتربون منّا بدلاً من ذلك. يرتبط استخدام النعت "ناهض" بشكل روتيني بالصين بحيث يبدو كأنّه كجزء من الاسم. في سنة 2007، أفاد تقرير بأنّ الصينيين أكثر تفاؤلاً بالمستقبل من أي من ستة وأربعين شعباً تمّ مسحهم، ومن المؤسف أنّ اليابانيين كانوا الأقل تفاؤلاً.

على الرغم من أنّ نيكسون توجّه إلى الصين، فإنّ العلاقات الدبلوماسية الرسمية لم تقم إلاّ في إدارة كارتر. كان العداء الصيني السوفياتي في أوجه، لذا كانت سياسة الحرب الباردة الشغل الشاغل في ذلك الوقت. غير أنّ العولمة كانت المعنى الضمني.

عندما أصبح دنغ كسياو بنغ أول زعيم صيني شيوعي يزور واشنطن في سنة 1979، أبلغ كارتر عن خططه الخاصة بفتح اقتصاد البلاد. وألقى تبعة تخلّف الصين على قرار أسلافه بإغلاق أبوابهم على الغرب. وعمد دنغ، وهو ممن لا يتمسّكون بالتقاليد القديمة، إلى تفكيك "البيت الذي بناه ماو" بشكل منهجي، وتخلّى عن التشدّد الشيوعي مدخلاً ما أسماه "اشتراكية السوق".

زرت جمهورية الصين الشعبية في السنة الماضية، وكنت قد زرتها من قبل برفقة وفد من مجلس الشيوخ الأميركي برئاسة إدموند موسكي، رئيسي السابق. في ذلك الوقت، كانت بيجنغ مدينة الدرّاجين السريعين والمشاة الرشيقين. أما اليوم، وكدليل على التقدّم، فإنّ طرقاتها تختنق بالسيارات المتوقّفة تقريباً. فقد نما الاقتصاد الصيني منذ ثبات الأسواق التنافسية بمعدّل ثابت لم يجارِه أي بلد في التاريخ. وتراجع الفقر المدقع بشكل حادّ، واتسعت الطبقة الوسطى، وأصبحت المراكز الصناعية الصينية تجتذب المستثمرين الأجانب. لا يرجع نجاح الصين إلى كثرة العمالة ذات الأجر المتدنّي. فالصين تنتج أعداداً متزايدة من العلماء والمهندسين؛ في سنة 2003، أصبحت ثالث بلد يطلق إنساناً إلى الفضاء؛ وموازنتها البحثية تنمو باطراد؛ وتجري تجارب على تصميمات جديدة في مجالات مثل التكنولوجيا البيئية، والطاقة النووية المدنية، والهندسة البيولوجية.

غيّر هذا التحوّل الاقتصادي النظرة السياسية الصينية. فالنموّ بحاجة إلى وقود، والصينيون يجوبون السوق الدولية للحصول على النفط والخشب والمعادن. وقد أقاموا علاقات توريد جديدة في كل قارة. ومن بين شركائهم حكومات إيران والسودان وبورما وفنزويلا؛ ليس رباعياً مستساغاً. كما تسعى الصين إلى إثبات حضورها الدبلوماسي. فقد سافر الرئيس هو جنتاو على نطاق واسع، وغالباً ما لقي استقبالاً أشدّ حفاوة من استقبال الرئيس بوش. لكي تبرز الصين استقلاليتها، بدأت تساعد في عقد اجتماعات إقليمية تستبعد عنها الولايات المتحدة: قمة إفريقية، ومؤتمر لشرق آسيا، ومنظمة شانغهاي للتعاون؛ وهي هيئة تنسّق سياسة الطاقة وتجري تمارين عسكرية، تضمّ روسيا، وقد طالبت بسحب القوات الأميركية من آسيا الوسطى. يؤكّد الزعماء الصينيون

بذكاء على هوية مزدوجة. فعندما تطرح قضايا مثل التجارة الحرة أو تغيّر المناخ على طاولة البحث، يصرّ الصينيون على أن يعاملوا معاملة خاصة لأنّهم لا يزالون بلداً نامياً. وعندما تكون القضايا سياسية، يطالبون بمشاركة الصين في صياغة القوانين العالمية؛ بما يليق بقوّة كبرى. وذلك ليس ادعاء غير معقول في الواقع، فالصين بلد نامٍ، بكل المقاييس، وبلد كبير.

سترحّب كرئيس بدمج الاقتصاد الصيني، فيما سيثور قلقك بشأن تأثير صعودها في نهاية المطاف على السلام والديمقراطية، وعلى قيادتنا.

تبدأ المخاوف من أنّ الفجوة في المكانة الدولية التي كانت قائمة بين الولايات المتحدة والصين قد ضاقت كثيراً. في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية، كانت معظم البلدان الآسيوية تشعر بأنّها أقرب إلى أميركا مما هي إلى الصين الشعبية الفقيرة والمضطربة. وقلّة من الأشخاص شعروا بالحسد من الجنون الدموي للثورة الثقافية أو قفزات ماو الكبرى إلى الأمام التي فشلت. اليوم ترتبط الصين بالنجاح، بل إنّها تجتذب أعداداً متزايدة من المهاجرين (القانونيين وغير القانونيين) الذين يرون فيها أرضاً للفرص. ويعود الفضل إلى الحكومة في تحسين التوقّعات الاقتصادية لشعبها، وذلك يعتبر أكثر أهمية بالنسبة للفقراء الكثيرين من حقّ الاستماع إلى خطابات الحملات الانتخابية والانتخاب. لقد شعر الأميركيون على مرّ التاريخ أنّنا قدّمنا مثلاً للعالم عن كيفية الحكم. واليوم تعتبر الصين أفضل من الولايات المتحدة في نظر مزيد من الشعوب في مزيد من البلدان.

ستحلّ الذكرى العشرين لمجزرة ساحة تيانانمين في حزيران/يونيو في السنة الأولى من عهدك، لكن ما أهميّتها؟ لقد تجاهل الزعماء الصينيون المصمّمون على منع تجدّد الانتفاضة الديمقراطية الالتماسات المتكرّرة، داخلياً ودولياً، بالسماح بنظام سياسي أكثر تراخياً وتنافسية. فدروس تيانانمين واضحة بالنسبة إليهم: الاستقرار هو الخير المطلق. وسيتمّ سحق الحركات المعارضة. ولن يسمح للانتقادات الخارجية بتعريض النظام الداخلي للخطر.

لا شكّ في أنّ انفتاح البلد الاقتصادي أدّى إلى مزيد من التوسّع في التعليقات

الاجتماعية والسياسية في غرف الدردشة على الإنترنت وفي الصحافة. وقد شعرت القيادة بالحاجة إلى اعتماد لغة الديمقراطية بمساواتها بالنظام الصيني الراهن. ثمة تنافس كبير داخل الحزب الشيوعي، بما في ذلك تحديد الولايات والانتخابات، لكنّ المعارضين يعتقلون أيضاً، والحرية الدينية مقيّدة، والتنظيمات السياسية محظورة، وشبكة الإنترنت خاضعة للرقابة.

عندما كنت في بيجنغ مؤخّراً، كنت أتابع الأخبار في الفندق عبر التلفزيون الكبلي، أعلن المذيع عن بدء جلسة استماع بشأن الصين والإنترنت؛ فانقطع الإرسال على الفور. واتفق أن أحد أصدقائي فتح باباً غير محدّد في فندق آخر في الصين فشاهد صفاً من الشبان المشدوهين أمام الشاشات يتجسّسون (عبر كاميرات مخفية) على الضيوف في غرفهم. الأخ الكبير* يحتاج إلى قوة عاملة كبيرة، وفي الصين لديه مثل هذه القوة.

من المقلق أنّ تراجع سمعة أميركا خفّف الضغط على الصين لتحسين سجلّها. عندما كنت وزيرة للخارجية، سافرت ليلاً لإلقاء خطاب عن الصين أمام لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان في جنيف. وقد غضب المندوبون الصينيون جداً من ملاحظاتي بحيث غادر معظمهم القاعة؛ وكان الاستياء المقولة الوحيدة التي لديهم. أما اليوم فلا حاجة للصينيين سوى إلى الملاحظة بأنّ الأميركيين ليسوا في موقف إلقاء الدروس على الآخرين، حتى تهزّ الرؤوس موافقة.

يلقى نظام الحكم الصيني الإعجاب على وجه الخصوص لدى القادة الذين يريدون أن يجدوا بيئة ملائمة لبلدانهم في الاقتصاد العالمي، لكنّهم لا يريدون المخاطرة بفقدان سلطتهم. ويحصل هذا النموذج على دعم بتمويل صيني، يساعد الحكومات في إفريقيا، على سبيل المثال، على القيام بمشاريع رأسمالية دون نوع المساءلة التي يطالب بها البنك الدولي. والأوروبيون يسمّون ذلك معونة مارقة.

القيادة في الصين متعدّدة الرؤوس. فقد أصبح هو جنتاو الأمين العام للحزب الشيوعي في سنة 2002، ورئيساً للصين في السنة التالية، ورئيساً للجنة العسكرية الصينية في سنة 2004. ومع أنّه لم يظهر رؤية دنغ كسياو بنغ بعد، لكنّه أثبت براعة في

ارتقاء سلّم السلطة والمحافظة على القمة. ولم يكن تقدّمه متصلاً بما فعله بقدر اتصاله بما لم يفعله: الدعوة إلى أفكار جديدة أو إثارة استياء الفئات القوية مثل الجيش. بل إنّه الآن، بعد مرور سنوات على تولّي منصبه، يبدو فنياً أكثر مما هو منظّر إيديولوجي؛ وخطاباته تنهل من شعارات أسلافه. وهو يدعو البلد إلى بناء مجتمع منسجم، وذلك موضوع يحاكي كونفوشيوس وكارل ماركس والدكتور فيل. ولعل حذره نابع من مأزقه: الصين كبيرة وتتحرّك بسرعة كبيرة بحيث تستحوذ القيادة على كل الوقت والاهتمام الذي يمكن أن يقدّمهما المرء.

ليس هناك قانون بأنّ النموّ الاقتصادي، لاسيما عندما يكون سريعاً ومتفاوتاً، سيؤدّي إلى الرضا الاجتماعي. وعلى الرغم من أنّ الفجوة المتوسّعة بين الأغنياء والفقراء مشكلة عامة، فإنّها تصطدم في الصين بحدّة مع القيم الاجتماعية التي تشدّد على المساواة. ثمة انقسام كبير بين المناطق الحضرية التي ازدهرت، والمناطق الريفية التي لم تزدهر. وعدم المساواة تنتج الاستياء، وبخاصة عندما يشتبه الناس بأنّ الأغنياء لم يحصلوا على ثرواتهم بالجدّ والإبداع، بل عبر الفساد الرسمي. ويشعر الناس بالغضب أيضاً من التلوّث، وبالمرارة من المشاريع الصناعية التي تدفعهم إلى الخروج من أراضيهم، وبالخوف من انتشار الأمراض غير المسيطر عليها.

الأهم أنّ الصين تتّجه إلى أنّ تصبح منطقة عدم طيران ديمغرافي. فمنذ سنوات تتراجع نسبة المواليد في شعبها في حين أنّهم يعمّرون مدة أطول، ما يؤدي إلى زيادة مطردة في متوسّط الأعمار. وبعد عقد أو اثنين من الآن، قد يجد العامل المثالي - وهو الابن الوحيد - أنّ عليه إعالة أطفاله ووالديه وجديه في الوقت نفسه. ويمكن طمأنة من يخشون من تحوّل ثروة الصين المكتسبة حديثاً إلى الجيش بأنّ جزءاً منها على الأقل سيخصّص للأدوية وشباشب غرف النوم وألعاب ماه جونغ وخزّانات الأكسجين. فالصين ستشيخ قبل أن تصبح ثرية.

يحتاج البلد فيما ينمو إلى أكثر من احترام الأجداد لكي يحافظ على تماسكهُ. وعلى القيادة الشيوعية أن تبقى سبّاقة وتسعى إلى منع مظاهر التعبير الصغيرة عن الرفض

من التحوّل إلى احتجاجات كبيرة. وللنجاح، عليها أن تجيب عن سؤال واضح: كيف يشرح حزب شيوعي يضمّ رأسماليين ويرأس سوقاً مالية قوية ما الذي يقوم به؟ لقد أجاب القادة الصينيون ببراعة وأوضحوا بإسهاب فلسفته التي تكافئ المشاريع الحرة (إلى حدٍّ ما) والوطنية (دون إفراط) والاستقرار.

بالنسبة إلى أي رئيس أميركي، تكمن المعضلة في التعامل مع الصين في أن السياسة الداخلية تدفع باتجاه، وتدفع الرغبة في الدبلوماسية المثمرة في اتجاه آخر. في أثناء الحملة الانتخابية، وجدت أنّ مهاجمة الصين تستقطب تصفيق معظم الأميركيين، باستثناء رجال الأعمال والاختصاصيين في السياسة الخارجية وعسكريينا. غير أنّك في البيت الأبيض ستحاول تجنّب الاستياء لأنّ الصين أصبحت مهمة جداً؛ فهي تمتلك ثلاثمئة مليار دولار على شكل سندات خزينة، وهي عضو دائم في مجلس الأمن، ولديها نفوذ سياسي في أماكن ليس فيها نفوذ، وإذا كنت تصدّق منتقدي السياسات الاقتصادية الصينية، فإنّ لديها سلطة الحياة والموت على ملايين الوظائف الأميركية.

قبل اجتماعك الأول مع هو، ستتلقّى نصائح متضاربة بشأن القضايا التي يجب أن تشغل الأولوية في جدول أعمالك. سيشدّد الدبلوماسيون على الحاجة إلى مساعدة الصين في كبح الانتشار النووي. وسيسعى البنتاغون إلى الحصول على ضوء أخضر لإجراء مزيد من الاتصالات مع العسكريين الصينيين. وسيُعنى رجال الأعمال بقوانين الاستثمار الخارجي وحماية الملكية الفكرية. وستصرّ المجموعات الناشطة على أن تعالج القضايا التي تهمّها بالدرجة الأولى: حقوق الإنسان، والديمقراطية، ومعايير العمّال، والحرية الدينية، والبيئة، والتيبت، وفالون غونغ.

وعندما تجلس مع هو في النهاية، ستجده مصراً على سماع تطميناتك بشأن تايوان. وإذا لم تقدّم له ذلك، ستصبح المسائل الأخرى ثانوية. فعلى الرغم من أنّ تايوان لديها من الثروة والتنظيم ما يمكّنها من الازدهار كبلد مستقل، فإنها غير معترف بها كدولة - وتخضع للضغط لكي لا تعلن عن نفسها كدولة - لأنّ بيجنغ تصرّ على أنّ تايوان جزء من الصين. ومنذ انفتاح نيكسون، أقرّت الولايات المتحدة بمطالبة الصين دون أن ترفضها أو

توافق عليها. لقد كانت تايوان جزءاً من الصين بين منتصف القرن السابع عشر ونهاية القرن التاسع عشر، عندما احتلها اليابانيون. ويزيد ذلك من إصرار الصين على استعادة الجزيرة، مع أنّ اليابانيين رحلوا منذ مدة طويلة. ويلقّن من يخدمون في الجيش الشيوعي الصيني، الذي أنشئ في أثناء الحرب العالمية الثانية لتحرير البلاد من اليابان، أنّ إعادة تايوان إلى البلد الأم هي الجانب الأخير غير المتحقّق من مهمّتهم.

لا تزل تايوان قائمة منذ مدة طويلة بحيث ربما نفترض أنّها لن تنفجر البتة. وثمة أكثر من مليون رجل أعمال تايواني وعائلاتهم يعيشون الآن في برّ الصين، ويديرون المصانع والشركات التي استثمروا فيها. ويطمئننا من يؤمنون بأنّ المصلحة الاقتصادية الذاتية تحدّد كيف يتصرّف القادة السياسيون والعسكريون بأنّ النزاع على تايوان مستحيل لأنّه لن يكون مربحاً.

مع ذلك، كادت الولايات المتحدة والصين تتواجهان بعد أن منحنا تأشيرة للرئيس التايواني الذي توجّه إلى جامعة كورنل (الجامعة التي تخرّج منها) حيث ألقى ما اعتبرته بيجنغ خطبة مثيرة للغضب. ردّت الصين بإطلاق الصواريخ وإجراء تدريبات عسكرية قرب الجزيرة. حفّز ذلك إدارة كلينتون على إرسال حاملتي طائرات إلى خليج تايوان. وبعد بضعة أسابيع من التوتّر، هدأ الوضع. يقال إنّ القادة الصينيين تراجعوا لأنّهم لا يعتقدون أنّ بوسعهم الانتصار في مواجهة مع الولايات المتحدة، لكنّهم وعدوا قواتهم المسلّحة بالموارد اللازمة لتحقيق النصر إذا ما وقعت أزمة مماثلة في المستقبل. وبعد عقد من الزمن نصبت الصين تسعمئة صاروخ على ساحل فوجيان المقابل لتايوان. والقوات المسلّحة الصينية مجهّزة بطائرات مقاتلة، ومدمّرات مزوّدة بصواريخ موجّهة، وغوّاصات هجومية، وهي في طور تعلّم كيفية شنّ حرب معلومات. وعلى الرغم من أنّ الجيش الصيني لا يزال أضعف بكثير من الجيش الأميركي، فإنّ الصين تتقدّم ولديها حالة طارئة وحيدة تشغل تفكيرها، في حين أنّ قواتنا المسلّحة تخضع لضغوط شديدة.

غالباً ما أدى بروز إمبراطورية جديدة إلى الحرب على مرّ التاريخ، سواء نشبت بسبب رغبة تلك القوة بالتمدّد أم محاولة أعدائها خنقها في مهدها. لا حاجة إلى أن يقود

بروز الصين إلى حرب، لكنّ ذلك لا يعني أنّ الحرب أو الصدامات العنيفة الأخرى لن تقع.

الولايات المتحدة غير ملتزمة رسمياً بإنقاذ تايوان في حال تعرّضها لهجوم لأنّنا لا نريد أن يطمئنّ التايوانيون جداً إلى حمايتنا بحيث يستفزّون بيجنغ. وعلى نحو ذلك، لا نريد أن يعتقد الصينيون أنّ بوسعهم مهاجمة تايوان والنجاة بفعلتهم. الوضع يشبه المواجهة الثلاثية الجوانب في نهاية فيلم "الطيّب والشرير والبشع"، لكن قبل أن يبدأ إطلاق الرصاص. ما دمنا هناك يحدّق بعضنا ببعض، لن يلحق الأذى بأحد.

من الواضح أنّ جزءاً من استراتيجية الصين العسكرية يقوم على دفعنا - وتايوان - إلى التفكير مرتين بشأن التحرّكات الفجائية. وعلينا اتباع استراتيجية مماثلة. وبعبارة الباحثة الصينية سوزان ل. شيرك:

> انّ المحافظة على انتشار القوات الامبركية فى منطلقة اسيا المحيط الهادئ لردع اي اعتداء محتمل ضروريه جدا اذا ما ادركنا الضغوط الداخلية التى يمكن أن تحمل القادة الصينيين على التصرف بتهور. نريد عندما يُواجه صانعو القرار الصينيون بأزمة ما ان ينظروا الى المحيط الهادئ ويروا القوة العسكرية الأميركية التى تمتلك الاراده والقدرة على الدفاع عن تايوان، وحلفاءنا فى اليابان وكوريا الجنوبية. وغيرهما من اصدقائنا الآسيويين.

الأخبار السارّة أنّ القيادة الصينية تبدو صبورة. وليس هناك ما يدعوك إلى توقّع أن توقظ ذات صباح على أخبار اجتياح الجيش الأحمر منافذ المصانع والفنادق ذات الأربع نجوم في تايوان. وعلى الرغم من أنّ كل خليفة لماو يحبّ أن يذكر بأنّه وحّد البلد، فإنّ الرئيس هو لم يظهر أي ميل إلى سلوك طريق سفك الدماء. ويجب أن يكون الوضع الراهن مقبولاً لبيجنغ حالياً، وعليك إقناع تايبيه بالتعايش معه أيضاً.

تستند العلاقة الأميركية الصينية إلى توازن حذر للمصالح. وعلى الرغم من أنّ الصداقات الشخصية قد تكون كثيرة، فليس هناك الكثير منها على طريق المحبّة أو الثقة بين بلدينا. إنّنا نرى، على العموم، فرصة إقامة علاقة تفيد البلدين، لاسيما في مجالات مثل التجارة والانتشار النووي. مع ذلك، لا نزال نشعر بالتوتّر تجاه الصين لأنّنا لا نعرف

ما هي الحدود العليا التي سيتخذها نفوذها. لقد كان البلد القوة الرائدة في منطقته، وأكبر اقتصاد في العالم طوال معظم الألف سنة الماضية. وإذا ما تبيّن أنّ القرن العشرين ما هو إلاّ استثناء لذلك، فأين يمكن أن يتركنا ذلك؟ إنّنا لا نخشى الصين القوية، لكنّنا لا نريد أن تسيطر بيجنغ على شرق آسيا؛ وتبتزّ تايوان لتجبرها على الاستسلام، أو ترهب جيرانها الكثر، أو تهدّد أمن اليابان. يفسّر الصينيون عدم ارتياحنا (ليس دونما سبب) بأنّه رغبة في احتوائهم. ويعتقد بعضهم أنّ خطتنا ترمي في نهاية المطاف إلى تغريب بلدهم أو تقسيمه. وبالتالي يعتقد أنّ انتقاداتنا الموجّهة للسياسات الداخلية لبيجنغ تقوم على الكلبية، وأنّها جزء من استراتيجية لتخويف الصين ودفعها إلى ارتكاب الأخطاء نفسها التي أدّت إلى تفكّك الاتحاد السوفياتي. وأعرف من تجربتي أنّك إذا طرحت أسئلة عن التيبت، ستجد أن الدبلوماسيين الصينيين يمكن أن يتحوّلوا إلى حمر؛ على الرغم من أنّهم لم يعودوا شيوعيين حقيقيين.

تستند السياسة الخارجية الصينية إلى مبدأيْ السيادة وعدم التدخّل في الشؤون الداخلية للآخرين. ولا يهتمّ زعماؤها بأفكارنا عن الأخلاق أو في تأييد معايير عالمية. فمن المستحيل على سبيل المثال تصوّر أنّ بيجنغ تصدر تقارير سنوية تقيّم ممارسات الحكومات الأخرى في مجالات مثل حقوق الإنسان أو حظر المخدّرات أو الإرهاب أو التهريب أو الحرية الدينية. وذلك اختلاف مهمّ بين الصين والولايات المتحدة، وميزة كبيرة للصين من الناحية الدبلوماسية.

لا أتوقّع بروز حالة عدائية بين بلدينا في السنوات العديدة القادمة. فالتوتّرات ستجيش على نار هادئة، دون أن تغلي. ويرجّح أن ينطبق الأمر نفسه على المنطقة بأكملها.

سينعم شرق آسيا بالاستقرار شريطة ألاّ يحاول بلد ترهيب الآخر. لا يبدو أنّ الطموحات الإمبريالية تستحوذ على الصين أو اليابان، لكن لن يرضى أي منهما على أن ينظر إليه بأنّه الدولة الأصغر. وتتطلّع كوريا الشمالية إلى طريقة لإدامة خرافتها المهلهلة بالاعتماد على الذات. ولا تزال تايوان تواجه خياراً بين ضبط النفس وخطر استفزاز

الصين؛ وذلك ترتيب غير عادل لكنّه لا يشكّل عقبة أمام ديمقراطيتها وازدهارها.

يجب أن تستفيد السياسة الأميركية من انشغال البلدان الآسيوية بعضها ببعض بالدرجة الأولى. الصين تريد كبح جماح اليابان، وكذلك الكوريون والجميع تقريباً. وقد خضعت فيتنام ومنغوليا لحكم الصينيين في الماضي وسيقاتلان قبل أن يخضعا ثانية. وستحاول البلدان الصغيرة تجنّب الاضطرار إلى الاختيار بين الولايات المتحدة والصين، لذا ستعمد إلى الحفاظ على علاقات جيدة مع كليهما. إذا نظر إلى الولايات المتحدة بأنّها تحاول المحافظة على استقرار التوازن في المنطقة، فستحظى بصورة إيجابية؛ وإذا نظر إلينا بأنّنا نحاول سنّ قوانين يجب أن يلتزم بها الجميع، فسنوجِد مشاكل من الأفضل لنا أن نتجنّبها بالنظر إلى المتاعب التي نواجهها في أمكنة أخرى. علينا أن نشجّع بلطافة على تطوير إطار عمل أمني إقليمي نشارك فيه. وعلى الرغم من أنّ الظروف غير ملائمة لإقامة تحالف مماثل لحلف شمال الأطلسي، فستكون هناك قيمة لوجود وسائل رسمية لبناء الثقة، وتشارك المعلومات، وتنظيم البعثات الإنسانية، وحل الخلافات باكراً، قبل أن تؤدّي الكلمات القاسية إلى حروب ساخنة.

الفصل الحادي عشر
الكبرياء والتحامل في روسيا وجنوب آسيا

غالباً ما يشار إلى أميركا، منذ انتهاء الحرب الباردة، بأنّها القوة العظمى الوحيدة المتبقية في العالم. ويشعر معظم الأميركيين بالارتياح لهذه التسمية، ويعتقدون أنّ على الآخرين الارتياح إليها أيضاً. في النهاية إذا لم نكن في قمّة الهرم العالمي، فمن سيكون؟ مع ذلك ننسى في بعض الأحيان أن الكبرياء خطيئة تنتشر على نطاق واسع على غرار معظم الخطايا. تحتكّ كبرياؤنا بكبرياء الآخرين، ما يحفز كثيراً من القادة الأجانب على الإصرار على تصوير العالم بدلالة متعدّدة الأقطاب لا أحادية القطب. ربما يكون الفرنسيون والصينيون الأكثر تحديداً، لكن ثمة بلدان أخرى ترغب - لأسباب الماضي المجيد، والطموح الحالي، والآمال المستقبلية - في المطالبة بمكانة أعلى لنفسها. ومن بين من ستواجهم روسيا الناهضة، والهند المزدهرة، وباكستان المتظلّمة والمتّهمة.

رأى مؤلّفو دراسة مجلس العلاقات الخارجية لسنة 2006 أنّ "روسيا الأكثر ديمقراطية وانفتاحاً وشفافية ستتصرّف بطريقة مختلفة في العديد من القضايا". وعلى وجه التحديد، ستكون روسيا هذه أكثر إفادة في وقف انتشار الأسلحة النووية، وأكثر توافقاً مع الولايات المتحدة في الشرق الأوسط، وأكثر ترحيباً بالقوى الديمقراطية في آسيا الوسطى والقوقاز، وأكثر ميلاً لصياغة سياساتها الطاقوية بما يلائم الاحتياجات الغربية.

أتمنّى لو كان ذلك صحيحاً. فلدينا السبب الذي يدعونا إلى الأسف للاعتقاد بتراجع روسيا عن الديمقراطية، وليس هناك ما يدعونا إلى الاعتقاد بأنّ المقترعين فيها يتشوّقون إلى انتهاج سياسات أكثر إرضاء للغرب. بل يمكن أن نتوقّع أن يكون أداء القوميين المتطرّفين وربما الشيوعيين أفضل بكثير في الانتخابات من أداء الإصلاحيين الليبراليين؛ أو المحافظين المتعاطفين فيما يخصّ ذلك. لم يكن من الواقعي التفكير أنّ بوسعنا، عن طريق تقديم المساعدة الكافية والعناق، تحويل روسيا إلى بلد أوروبي نموذجي مفرط

الحجم. لنعد إلى التاريخ: أقامت روسيا صلات مع الغرب أحياناً لكنّها لم تكن جزءاً منه البتة.

لقد تطوّرت روسيا الحديثة عبر ثلاثة تحوّلات: الأول من إمارة موسكو إلى إمبراطورية متوسّعة؛ والثاني من إمبراطورية مضمحلّة إلى قوة عظمى شيوعية؛ والثالث من قوة عظمى منحدرة إلى كيان جديد ذي طبيعة لا تزال في طور التحديد.

كان مهندس التحوّل الأول بطرس الأكبر، وهو قيصر من القرن الثامن عشر مزج بين الطغيان والإعجاب بما هو أوروبي. عند عودته من جولته القارية الأولى، قصّ بنفسه لحى النبلاء المرافقين له وأمرهم بتغيير قبعاتهم المخروطية وعباءاتهم وارتداء ملابس أوروبية. ولكي يرمز لروسيا الجديدة، بنى (بمساعدة مئات الآلاف من الأقنان) عاصمة متلألئة جديدة، سان بطرسبرغ. وينسب إلى القيصر تغيير شعار أرضه الريفية من "احرسوا كنز الماضي جيداً" إلى "لا تخشوا التغيير؛ اسعوا لأن يكون الغد أفضل من اليوم".

افتتن بطرس بأشياء كثيرة في أوروبا، لكنّه أعجب بأسلحتها على وجه الخصوص. بنى أول بحرية روسية وأرسل جيوشاً حديثة التسليح في كل الاتجاهات، حيث اصطدم بالقبائل الآسيوية في سيبيريا، وكاثوليك بولندا، ولوثريي السويد، ومسلمي فارس وتركيا. وللمحافظة على وحدة أراضيه، شدّد الرقابة على نبلاء روسيا، وأنشأ شبكة أمن داخلي ذات نفوذ واسع، وأقام تحالفاً وثيقاً مع الكنيسة الأرثوذكسية، وحظر المعارضة السياسية. قبل بطرس، لم يكن الروس، بمن فيهم المتعلّمون، يعرفون الكثير عن العلوم الحديثة أو عصر النهضة أو عصر الاستكشافات. وفي أعقاب بطرس، أصبحت روسيا مشاركاً كامل المشاركة في مكائد الدبلوماسية العالمية، وتطوّرت لتصبح واحدة من القوى الكبرى في العالم.

لم تكن مصادفة عندما استضافت روسيا اجتماع مجموعة البلدان الثمانية لأول مرة. إذ إنّ فلاديمير بوتين اختار أن يفعل ذلك في بطرسبرغ، مسقط رأسه. إذا كانت ستنهض إمبراطورية روسية جديدة، فيجب أن تقوم على الأركان نفسها التي قامت عليها الإمبراطورية القديمة. وستتميّز أيضاً بحكومة مركزية قوية، وجيش حديث، وتحظى بدعم

رجال الدين، والضوابط الداخلية الشديدة. وستأخذ أيضاً أفضل ما في الغرب فيما تحافظ على الهوية الروسية، وستضغط للتمدّد إلى الخارج؛ إذا لم يكن بالسيف فبوسائل أخرى.

ستجد كرئيس أنّ روسيا الجديدة ليست صديقاً مضموناً ولا عدواً أكيداً؛ بل هي قوة فريدة وعنيدة تستحقّ الاحترام، لكن لا يمكننا الثقة بها تماماً لأنّ عدم الثقة بنا من أقوى غرائزها. ويرجع ذلك إلى أنّ القادة في موسكو ذوو ميول شكّاكة بطبعهم، ولما شهدته روسيا أيضاً في العشرين سنة الماضية.

قبيل انهيار الاتحاد السوفياتي، شاركت في مسح للمواقف السوفياتية من الديمقراطية والمشاريع الحرة. فوجدنا شعباً متبرّماً من الشيوعية لكنّه لا يعرف سوى القليل عما تقتضيه الديمقراطية. كان الاعتماد على الدولة عميق الجذور، ولم يكن الناس يعرفون شيئاً عن الأسواق التنافسية، في حين بدا مفهوم مكافأة العمل المنتج بأجر مرتفع غريباً. ولم تكن حرية الصحافة مألوفة، وكان الشعب منقسماً انقساماً عميقاً وفقاً للإثنية ومستوى التعليم والجيل والجنس.

كان استنتاجي أنّ ميراث سبعة عقود من الشيوعية لا يمكن أن يسقط مثل معطف بالٍ، وأنّ المؤسسات الديمقراطية ستتطوّر ببطء. ولم يساعد أنّ السنوات الأولى لروسيا الجديدة كانت بمثابة كارثة، إذ ركبت البلاد قاطرة التغيير في اتجاه واحد؛ إلى أسفل. قليلة هي المجتمعات التي انهارت بشكل أقوى وأسرع بدون حرب.

في نهاية التسعينيات، كانت الحكومة المركزية في روسيا لا تكاد تجمع الضرائب، ونضبت الاستثمارات الخارجية، وأصبح قسم كبير من الاقتصاد يعمل على أساس المقايضة. وقلّ عمل الروس، وتزايد مرضهم، وتراجعت أعمارهم. في غضون ذلك كان المحظوظون المطلّعون يحقّقون ثروات بشراء الشركات الحكومية بأسعار رخيصة، فيصفّون الأصول ويودعون الأرباح في حسابات مصرفية خارجية. وجاءت الأزمة المالية الآسيوية بمثابة ضربة قاضية إذ أدّت إلى تراجع أسعار النفط، المورد الأساسي للعملة الصعبة في البلاد. وبدأ بعضهم في الصحافة الروسية يشيرون إلى بلادهم، قبل أن

يصبح السيد بوتين رئيساً، باسم "قولتا العليا المزوّدة بصواريخ".

اجتمعت ببوتين بعد بضعة أسابيع من تسلّمه السلطة. فاجأني بأنّه متوقّد الذكاء ومتلهّف للسيطرة على أموال موسكو. تحدّث بلغة لقيت منّي الترحاب عن الحاجة إلى تطبيق العقود، وكبح الفساد، وزيادة المُساءلة. غير أنّه لم يظهر رغبة كبيرة في إرضائنا في القضايا الأخرى. فالسياسات الأميركية برأيه ترمي إلى إبقائنا في موقع متدنّ. لقد فضّلنا غورباتشيف على بريجنيف، ففكّك غورباتشيف الاتحاد السوفياتي. وفضّلنا يلتسين على غورباتشيف، وترك يلتسين منصبه وقد بلغت نسبة التأييد الشعبي له 8 بالمئة. وأيّدنا الحظر على الصواريخ المضادّة للصواريخ البالستية عندما كان الاتحاد السوفياتي قوياً؛ والآن نريد - بعد أن أصبح ضعيفاً - استكشاف طرق لبناء مثل هذه الأسلحة. وكان بوتين منزعجاً على وجه الخصوص من تصريحاتنا عن حقوق الإنسان في الشيشان وآسيا الوسطى. وقال إنّ المنطقة بأكملها واقعة تحت حصار الإرهابيين ولن يعيدها إلى السيطرة إلاّ اتخاذ إجراء لا يقبل التسوية. وحذّرني قائلاً، "لا تحاولوا الضغط لإخراج روسيا من هذه البلدان، وإلا سينتهي بكم الأمر إلى إيران ثانية في أفغانستان".

لم يتسنَّ لي الوقت حينما كنت وزيرة للخارجية للاحتفاظ بسجل منتظم، لكنّني حاولت في أثناء الرحلات الطويلة كتابة بعض ملاحظاتي؛ وفيما يلي انطباعاتي الأولى عن بوتين:

من الموضوعات الكبرى في أوساط وزراء الخارجية والرؤساء من هو بوتين؟ إنّه يخضع للدرس والتحليل أكثر من أي قائد جديد آخر. ونتفق جميعاً على أنّه مختلف عن يلتسين الطنّان والمثير للإعجاب، والذي لا يعرف المرء ما سيصدر عنه. بوتين صغير الحجم، باهت اللون، وبارد جداً كأنّه من الزواحف. من الواضح أنّه شخص معقّد، شخص أراد أن يكون عميلاً للكي جي بي منذ كان في السادسة عشرة أو السابعة عشرة. وقد أثّرت عليه كثيراً خدمة أبيه العسكرية في الحرب العالمية. كان في ألمانيا الشرقية عندما انهار جدار برلين، وقال إنّه يدرك لماذا كان لا بد أن يحدث ذلك - الموقف

الذي يُبنى على الجدر والفواصل لا يمكن أن يصمد - لكنّه توقّع أن يظهر شيء مكانه ولم يقترح شيئاً. ترك السوفيات كل شيء ورحلوا. وقال إنّه كان يمكن تجنّب الكثير من المشاكل لو لم يغادروا بهذه السرعة. يبدو لي بوتين روسياً معتداً بنفسه، ويشعر بحرج شديد مما حدث لبلده، ويدعوه ذلك إلى الإصرار على استعادة عظمته.

انتُقد بوتين منذ ذلك الحين لأنّه أنشأ "ديمقراطية موجّهة". وبعبارة أخرى، لا توجد ديمقراطية حقيقية على الإطلاق. توجد أحزاب سياسية، وتُقام الحملات الانتخابية، وتُجرى الانتخابات، ويُنظر في التشريعات، ويقدّم القضاة آراءهم؛ لكنّ الحكومة تربح دائماً. وطوال ثماني سنوات، اقتطع بوتين من سلطات الحكّام الإقليميين، والبرلمان، والمحاكم، والقطاع الخاص، وأضاف ما اقتطعه إلى سلطاته المفرطة بشكل منهجي. ومما يثير القلق زجّ العديد من منتقديه في السجون بتهم مريبة، أو مقتلهم في ظروف لا تزال دون تفسير. قد يكون ذا هدف واحد وبارعاً في التلاعب بالسلطة؛ وربما كان - ولا يزال - شيئاً أسوأ بكثير.

كان أداء بوتين جيداً وفقاً للعديد من القياسات، أياً تكن تكتيكاته. فقد تراجع الفقر والبطالة كثيراً، وازداد ثراء الطبقة الوسطى، وتضاعفت الاحتياطات من النقد الأجنبي، ويتمتّع بوتين بتأييد شعبي محلي أكثر مما يتمتّع به معظم نظرائه الغربيين الكبار. صحيح أنّه استفاد من ارتفاع أسعار النفط، لكنّه استحوذ على مزاج روسيا وصنع الكثير لإحياء ثقة بلده بنفسها.

المشكلة بالنسبة إلى السياسة الخارجية الأميركية أنّ روسيا الواثقة هي أيضاً روسيا الميّالة إلى إثبات نفوذها، وروسيا التي تشعر بالمرارة إلى حدّ ما. لقد تحدّثت أميركا عن حلم أوروبا الديمقراطية الموحّدة، لكنّ روسيا تصرّ على النظر إلى أوروبا باعتبارها مكاناً للمنافسة يكون الربح فيها لطرف على حساب خسارة الطرف الآخر، مكان تسعى فيه البلدان الكبرى إلى إدخال البلدان الصغيرة في دائرة نفوذها. وهكذا رأى الروس أنّ توسيع حلف شمال الأطلسي محاولة من قبل الولايات المتحدة لزيادة نفوذها على حسابهم. وقد أهمل حلف شمال الأطلسي اعتراضات يلتسين في التسعينيات عندما

واجه ميلوسوفيتش، وتجاهل تحذيرات بوتين في العقد الحالي عند غزو العراق. وانتشرت القوات الأميركية والحليفة منذ 11/9 في أفغانستان المجاورة. ولمحاربة الإرهاب، أقامت الولايات المتحدة قواعد عسكرية في أوزبكستان (مؤقّتة) وقرغيزستان المجاورتين. ولدعم الديمقراطية، شاركنا في جهود ضمان نزاهة الانتخابات في أوكرانيا وجورجيا وأذربيجان، فيما سعينا لتقوية المجتمع المدني داخل روسيا نفسها. واحتراساً من إيران، أعلنت إدارة بوش عن خطط لنصب صواريخ مضادّة للصواريخ البالستية في بولندا وجمهورية التشيك. باختصار، عندما كان الروس ينظرون من نافذة غرفة جلوسهم في السنوات الأخيرة، كانوا يرون العمّ سام ناشطاً في فنائهم الأمامي دون دعوة (منهم على الأقل).

في شباط/فبراير قرّر بوتين الاعتراض صراحة على مساعينا. ففي حديث أمام مؤتمر أمني في ميونيخ اتهم أميركا بتجاوز حدودها، وإثارة سباق جديد للأسلحة النووية، وتقويض المؤسسات الدولية، وإساءة التعامل مع الأزمة في الخليج، ومحاولة تقديم مصالحها الخاصة عبر قناع دعم الديمقراطية. وقال إنّ واشنطن مسؤولة عن "الاستخدام المفرط وغير المضبوط تقريباً للقوة في العلاقات الدولية"، ومحاولة إنشاء عالم ذي "مركز واحد للسلطة، ومركز واحد للقوة، ومركز واحد لاتخاذ القرار... وسيّد واحد وحاكم واحد". وأضاف لاحقاً نقطة تعجّب لا حاجة إليها بمقارنة السياسات الأميركية بسياسات هتلر.

استجابت إدارة بوش بهدوء وبدأت تحاول ترقيع العلاقة، عبر الدبلوماسية الهادئة. وقد استنتج الرئيس بالفعل أنّ انتقاد سياسات بوتين الداخلية علناً يفتقر إلى الحكمة، ناهيك عن أنّه مثير للسخط لأنّ الرئيس كوّن انطباعاً إيجابياً عن روح بوتينفي وقت مبكّر من عهده. غير أنّ موسم استياء بوتين لم يتبدّل، حتى بعد زيارة دارة عائلة بوش في كنيبنكبورت. فأصرّ على إيجاد الأخطاء في السياسات الأميركية بشأن الدفاع الصاروخي وكوسوفو، ثمّ قرّر إرسال القاذفات النووية الروسية في طلعات جوية منتظمة.

يفرض الدستور على بوتين ترك منصبه، مع ذلك فإنّه سيجد طرقاً لمواصلة ممارسة

السلطة، سواء أكان رئيساً أو رئيساً للوزراء أو لاعباً فاعلاً في الكواليس. يعني ذلك معارضة أي تحرّكات أميركية في جوار روسيا؛ مثل دعوة أوكرانيا أو جورجيا إلى الانضمام إلى حلف شمال الأطلسي. يمكنك محاولة التهرّب من المشكلة بالإذعان لموسكو، لكنّ ذلك يخون الوعود التي قطعت لجيران روسيا ومن المرجّح أن يؤدّي إلى مزيد من المصاعب لاحقاً. وفقاً لرأي بوتين، "كان انهيار الاتحاد السوفياتي كارثة جيوسياسية كبرى". ولا تشاركه في هذا الرأي عواصم مثل تالين وفلنيوس وتبليسي ووارسو. لذا إذا أصرّ الكرملين على مساره الأخير، فسيكون هناك اختبار دائم للجرأة. وأخشى أن يحفر خطّاً جديداً يفصل الغرب عن الشرق، خطاً يذكّر بالتار الحديدي، وإن لم يكن صارخاً جداً مثله. ويمكن أن يتعمّق مثل الانقسام بسهولة مع الزمن، فيضخّم انعدام الثقة ويفاقم التوتّرات عند كل تدريبات عسكرية أو انتخابات متنازع فيها.

ستتمتّع روسيا بمزيتين في أي مواجهة دبلوماسية. الأولى، أنّ عضويتها الدائمة في مجلس الأمن تمنحها القدرة على إحباط محاولاتنا العمل من خلال تلك الهيئة. والثانية، أنّ روسيا لديها نفط وغاز على غرار فنزويلا. وقد حثّت أميركا وأوروبا موسكو على السماح بمزيد من الاستثمارات الخارجية في صناعاتها النفطية وفتحها أمام العالم دون قيود. غير أنّ الكرملين تحرّك في الاتجاه المعاكس، فركّز السيطرة في شركات كبيرة تديرها الدولة. وعمد بوتين إلى فتح حنفية الغاز الطبيعي الروسي وإغلاقها ليذكّر الأوروبيين أنّ بوسعه قطع الإمدادات في أي وقت. وأصبحت الشركات الروسية رائدة في صناعة المفاعلات النووية المدنية، وهي صناعة بدأت تزدهر بسبب الخوف من تغيّر المناخ. وإذا ما عادت روسيا إلى مكانة القوة العظمى، فسيكون ذلك بسبب احتياجات العالم إلى الطاقة التي تمتلكها موسكو.

ليس من مصلحتنا، ولا من مصلحة روسيا، العودة إلى الحرب الباردة. وليس أمامك كرئيس أي خيار سوى استيعاب كبرياء روسيا، والتعامل بشكل صحيح - إن لم يكن بحرارة - مع بوتين وبدلائه. من الناحية الرسمية، يجب أن يتمكن بلدانا من صياغة جدول أعمال مشترك بشأن الأمن العالمي؛ أي محاربة الإرهاب، وخفض ترسانتينا النوويتين،

وثني الآخرين عن تطوير أسلحتهم النووية. ولتقليل المشاحنة، عليك تشجيع التعامل الحكومي الدولي والأكاديمي والثقافي مع روسيا في موسكو وفي مناطق أخرى. إلاّ أنّ عليك أن تكون حازماً في الإصرار على امتناع روسيا عن تحدي استقلال جيرانها. وعليك أن تكون يقظاً من انبعاث الدبلوماسية الروسية في الشرق الأوسط، محفّزة بالصفقات التجارية ومبيعات الأسلحة. ويجب أن يشغلك أيضاً قيام موسكو وبيجنغ بوضع خلافاتهما الماضية جانباً في مسعى لموازنة القوة الأميركية.

أما بالنسبة إلى الوضع الداخلي في روسيا، لدينا الحقّ في الخوف من وقف المكاسب الديمقراطية، وتركّز السلطة في أيدي حفنة قليلة، وسياسة البطش التي يتبعها نظام بوتين تجاه المنتقدين. عليك ألاّ تتردّد في إدانة هذه الاتجاهات، والبحث عن طرق ملائمة لدعم دعاة الديمقراطية وحقوق الإنسان داخل الحدود الروسية. وقد يكون عليك في الوقت نفسه الإقرار بأنّ هناك حدوداً لما يمكن أن نفعله بالفعل. قبل سنوات، عندما بدأت الحرب الباردة، كان جورج كينان يتطلّع إلى الأمام إلى نهاية الحقبة الشيوعية وولادة روسيا جديدة. وتوقّع في ذلك الوقت أن يحاول من يتمنون الخير في الغرب مساعدة الروس في تطوير المؤسسات الديمقراطية ويفشلوا. فقال ناصحاً: "امنحوهم الوقت؛ دعوهم يكونون روساً؛ دعوهم يحلّون مشاكلهم الداخلية على طريقتهم. فالطرق التي تتبعها الشعوب للتقدّم نحو الكرامة والتنوير في الحكومة أشياء تشكّل أعمق العمليات وأشدّها حميمية في الحياة الوطنية. فما من شيء يعجز الأجانب عن فهمه بالقدر نفسه، وما من شيء يمكن أن يكون التدخّل الخارجي فيه أشدّ إساءة".

لا يسعني تقبّل هذه النصيحة عندما أتحدّث كمتمنّية الخير للشعب الروسي والديمقراطية، لكن عليك كرئيس أن تدرك أنّ كينان - بنظرته المتواضعة إلى قدرة أميركا على تحويل الآخرين - كان مصيباً في بعض الأحيان.

تمتلك الهند كل عناصر العظمة الوطنية، ومع ذلك لم يعترف بأنّها قائدة في العالم منذ ذروة الإمبراطورية المغولية قبل ثلاثة أو أربعة قرون. وقد حصلت على اهتمامنا الآن. في الحرب الباردة، رفضت الهند الانضمام إلى أي من الجانبين، ولعبت دوراً مستقلاً

انسجاماً مع رؤية رئيس وزرائها المؤسس جواهرلال نهرو، الذي وضع تصوّر حركة عدم الانحياز وتزعّمها. وبعد بضع سنوات على سقوط جدار برلين، أعادت الهند التأكيد على استقلالها عندما أصبحت قوة نووية.

وفي عقد التسعينيات نفسه، أدرك قادة البلد ما توصّل إليه دنغ كسياو بنغ باكراً في الصين: من المستحيل الازدهار في القرن الحادي والعشرين باقتصاد تسيطر عليه الدولة. تشمل الميزة التنافسية التي يتمتّع بها القطاع الخاص الذي انطلق مؤخّراً في الهند فائضاً من المتعلّمين الناطقين بالإنكليزية، ولكثير منهم قدرات هندسية. اليوم، تحصل أكثر من نصف شركات مجلة "فورتشن" الخمسمئة الأميركية على بعض معلوماتها من الهند، و30 بالمئة من مهندسي البرمجيات في وادي السيليكون من أصول هندية. كما أنّ اقتصاد هذا البلد لا يتقدّم بسرعة تماثل سرعة الصين (8 بالمئة في السنوات الخمس عشرة الماضية)، بل يتقدّم أيضاً بتوازن وتنوّع. عند مقارنة الهند بالصين، نجدّ أنّها تفرض قيوداً أقل من القيود الصينية على المعلومات، وتقدّم فرصاً أكبر للتعبير عن المشاكل وحلّها عبر النقاش. كما أنّ الهنود أفتى بعدّة سنوات في المتوسّط من الصينيين وبالتالي يتحمّلون أعباء أقلّ في رعاية السكان المسنّين.

ومن ثمّ يوجد شعور طيّب لدى الهند تجاه نفسها. فماذا يعني لنا ذلك؟

زار كل من الرئيسين كلينتون وبوش الهند في فترته الثانية؛ عليك أن تزورها في فترتك الأولى (وأن تجد الوقت لزيارة تاج محل، خلافاً لبوش). وزعم سلفاك أنّهما "فتحا فصلاً جديداً" في العلاقات مع الهند. عليك أن تتصرّف بالروحية نفسها ولكن بشعار مختلف؛ ربما بالتشديد على الدور الجديد لهند "كشريكنا الاستراتيجي".

في سنة 2006، تفاوضت إدارة بوش على اتفاق اعترف بمكانة الهند كدولة نووية ذات حقوق كاملة في تطوير الصناعة النووية السلمية، والمحافظة في الوقت نفسه على برنامج عسكري غير خاضع للتفتيش. كان هذا الترتيب نكسة من وجهة نظر معاهدة عدم الانتشار. فقد رفضت الهند التوقيع على معاهدة عدم الانتشار، وطوّرت سلاحاً نووياً واختبرته، وها نحن اليوم نقبلها في النادي النووي دون عقوبة. وبالنظر إلى أنّ الصين قد

تتوصّل إلى اتفاق مماثل مع باكستان، وأنّ منع كوريا الشمالية وإيران من الحصول على أسلحة نووية هو من أولى أولويات أميركا، فإنّ الاتفاق يبدو كارثة؛ ومع ذلك فإنّه كسب موافقة أولية سريعة من الكونغرس، وصدّق عليه أعضاء الحزبين.

من أسباب ذلك أولاً، تزايد نفوذ الهنود الأميركيين في السياسة الأميركية؛ إذ تضمّ المجموعة الهندية في الكونغرس أكثر من 175 عضواً. ثانياً، ترى الصناعة النووية الأميركية في الهند سوقاً مربحة، وللأموال صوت مدوّ في واشنطن. ثالثاً، الولايات المتحدة بحاجة إلى أصدقاء، ولا نرغب في دفع الهند باتجاه روسيا أو الصين. وبدلاً من ذلك حاجّت الإدارة لصالح الاتفاق على أساس أنّ الهند ستصبح شريكنا الاستراتيجي مقابل ذلك.

إنّ تسمية بلدٍ ما ما شريكاً استراتيجياً لا يجعله كذلك بالطبع. ففي أثناء إدارة كلينتون، كان المسؤولون في مجلس الأمن القومي يشيرون إلى الصين في هذا الإطار لإرضاء الصينيين؛ وربما لإغرائهم لكي يصبحوا كذلك. ويستخدم الأسلوب نفسه الآن مع الهند، ولكن ثمة أسس أكبر للتفاؤل.

الهند والولايات المتحدة هما المثالان الرائدان على الديمقراطية المتعدّدة الإثنيات؛ كما لا ينفك داعمو العلاقة بينهما عن القول. وقد نسج رجال الأعمال لدينا والعلماء والباحثون شبكة معقّدة من الاتصالات. وكلانا يعتمد على النفط المستورد، وبالتالي نريد المحافظة على توافر الإمدادات والأسعار المعقولة. كما أننا نشترك في الرغبة بأن يحلّ الاستقرار في أفغانستان، وبمعارضة الإرهاب، وبالأمل بألاّ تتقدّم الصين كثيراً لتشكّل تهديداً لتقدّم الآخرين. كما أنّ الهنود والأميركيين يحبون بعضهم بعضاً على العموم. عندما يفكّر الأميركيون في الهند، نتصوّر غاندي والملابس الزاهية والطعام العظيم، إلاّ عندما تنصرف عقولنا إلى تلزيم الأعمال إلى الخارج الذي نلقي تبعته على الشركات المتعدّدة الجنسيات، لا إلى الأصوات الشابة الجادّة على الطرف الآخر من الهاتف. وقد كشف مسح حديث للهنود أنّ 59 بالمئة منهم لديهم رأياً مواتياً عن الولايات المتحدة.

كل هذا حسن، لكنّه قد لا يعني قدر ما ترغب فيه. فالهند لم تقدّم التزامات محدّدة

بشأن ما تقتضيه الشراكة الاستراتيجية. ونظراً لأنّها ديمقراطية، فإنّه لا يمكن توقّع أن تتغاضى حكومتها عن الرأي العام، ما يعني أنّها تحتاج إلى أسباب وجيهة للتصرّف بشكل مختلف في المستقبل عما كانت عليه في الماضي. لقد رفضت الهند بالفعل الشكاوى الأميركية بشأن مشروع خط أنابيب الغاز المقترح الذي تقدّر تكلفته بعدّة مليارات من الدولارات مع الحكومة الإيرانية، ولا تزال نيودلهي تنادي بصداقتها مع إيران بصوت عالٍ. كما أنّ الحزب الشيوعي داخل الائتلاف الحاكم في الهند أدان الاتفاق النووي باعتباره اعتداء على سيادة الدولة.

يحبّ بعض الاستراتيجيين الأميركيين تصوير الهند كنوع من بريطانيا عظمى آسيوية، يمكننا الاعتماد دائماً تقريباً على أفعالها وسياساتها لدعم سياساتنا. من الصعب تصوّر دور أقل ملاءمة للهنود الذين يرون بلدهم نصيراً للعالم النامي، وقوة رائدة بحدّ ذاتها؛ وليست دولة بديلة لأحد بالتأكيد.

علينا أن نتذكّر، فيما تتزايد أعداد الأميركيين القلقين بشأن فقدان أعمالهم، أنّ مئات الملايين من الهنود لا يزالون قلقين بشأن الحصول على ما يكفيهم من الطعام. ربما يبدو ذلك البلد رابحاً كبيراً في الرهانات على العولمة، لكنّ الواقع ليس مرضياً كثيراً؛ إذ لا تزال الهند اليوم أفقر بكثير من الصين. في الغرب، يستطيع الأثرياء في الغالب إبعاد أنفسهم عن مشاهد البؤس. لكن، ذكّرتني زياراتي للهند أنّه لا مفرّ من عقد مقارنة بين الغنى والفقر. فالبلد يضمّ أكبر طبقة متوسّطة في العالم، لكنّ أعداد الفقراء والأميين فيه تفوق ما يوجد في أي بلد آخر. ومن المؤلم بالنسبة إلى المسافرين العالقين في زحمة السير رؤية الأطفال يتحلّقون حول السيارات ويشيرون إلى أفواههم. وينبَّه الزوّار إلى عدم خفض زجاج السيارة خوفاً من التسبّب بحدوث شغب أو عدم الخروج. وهكذا تتقدّم السيارات ببطء وهي محاطة بالأطفال.

على الرغم من كل الحرية في الهند، فإنّها بلد أبوي ذو وعي طبقي أيضاً. من الناحية الرسمية، يزيد تعداد المسلمين في البلد عن تعدادهم في أي بلد آخر باستثناء إندونيسيا؛ أما في الواقع فمن المحتمل أنّها تضمّ ضعف عدد المسلمين الذي تقرّ به.

وتتمسّك الحكومة بأسطورة عدم تغيّر نسبة المسلمين منذ الاستقلال؛ وذلك غير محتمل بالنظر إلى معدّلات الولادة عند المسلمين. وأياً تكن أعداد المسلمين الهنود، فإنّهم يميلون إلى التموضع عند الطرف الأدنى من الطيف الاجتماعي والاقتصادي. ومما يثير قلق الولايات المتحدة على نحو خاص أنّ العديد في الغالبية الهندوسية يظهرون احتقاراً شديداً لجيرانهم المسلمين في باكستان.

هنا نصل إلى معضلة. إذا كانت الهند شريكتنا الاستراتيجية، ماذا تعتبر باكستان؟ عدوّ شريكي عدوّي بالتأكيد؟ لا، باكستان حليفة أيضاً وأكثر حيوية في بعض النواحي من الهند؛ على الرغم من أنّها أكثر تعقيداً. ففي باكستان وعاصمتها إسلام أباد تجتمع كل مسبّبات الصداع في القرن الحادي والعشرين: الأسلحة النووية، والإرهاب، وعدم نجاح الديمقراطية، والفساد، والفقر.

لم يجد صانعو السياسة الباكستانيون أو الأميركيون وصفة فعّالة لهذه التشكيلة من العلل. لقد تحدّث فرانكلين روزفلت عن سخطه فيما كان يتعامل مع "البحرية"، وقارن ذلك بلكم فراش من الريش. ومنذ 11/9 على وجه الخصوص، قدّمت الولايات المتحدة مليارات الدولارات وعشرات المحاضرات إلى باكستان، لكنّ المشكلة التي ستواجهها كرئيس - ملاذاً للإرهابيين في شمال غرب البلاد الوعر - لا تتراجع بل تزداد حدة.

يلوم كتّاب الافتتاحيات الصحفية في الولايات المتحدة بانتظام برويز مشرّف على هذا الخطر، وهو الجنرال الباكستاني الذي تولّى رئاسة البلاد في سنة 1999 على الطريقة القديمة، عبر انقلاب عسكري. مشرّف شخصية معقّدة لا يعبأ بالتواضع الشخصي، ولا يرى اختلافاً بين رفاه باكستان وطموحه الشخصي. يعترف مشرّف في مذكّراته بأنّه لطيف مع الأطفال الصغار، وغير قابل للفساد، ووطني، ولا تثنيه الضغوط، ومحبوب من قبل جنوده. وقال إنّه قرّر الاستيلاء على السلطة بعد تردّد كبير لأنّ الوضع كان يدعو إلى اليأس، ولأنّ الشعب الباكستاني يتطلّع عادة إلى الجيش في الحالات الطارئة.

مشرّف ليس بطلاً سوى في مذكّراته ورأيه. لكن من المشكوك فيه أن يكون أي قائد باكستاني آخر في موقف يتيح له قتال القاعدة بمزيد من الشدّة، أو بمزيد من النجاح

الفوري. وقد تعرّض مشرّف لأربع محاولات اغتيال منفصلة. وفي سنة 2004، أرسل ثمانين ألف جندي - قتل منهم ستمئة - إلى الأقاليم الوعرة قرب حدود باكستان مع أفغانستان في مسعى للقضاء على القاعدة. نفّذت المهمة بمهنية لكنها لم تكن حاسمة. وأحدثت استياء واسعاً لدى السكان المحليين والجيش الباكستاني، الذي شعر أنّه طلب منه التضحية بجنوده بأمر من الولايات المتحدة.

للقرويين والرعاة الذين يقطنون المناطق القبلية التي تدار بطريقة فيدرالية في باكستان عاداتهم ولغاتهم وقواعدهم الخاصة بالشرف، وهم أكثر ولاء للعائلة والدين من ولائهم للحكومة في إسلام أباد. عندما أنشئت باكستان في سنة 1947، ضمّت هذه المناطق الجبلية إليها؛ لكنّها لم تخضع سوى للسيطرة الاسمية. ولهذا السبب إلى حدّ ما نجد أنّ الخدمات الاجتماعية رديئة، والرعاية الصحية بدائية، ونسبة الإلمام بالقراءة والكتابة 17 بالمئة. والحدود بين باكستان وأفغانستان خط تقسيمي غير طبيعي، لا ينسجم مع أي معلم طبوغرافي أو ديمغرافي. فقد رسمه البريطانيون بغية تقسيم قبائل البشتون التي تقطن الإقليم منذ مدة طويلة، وبالتالي إضعافها. وهكذا لم تعترف أفغانستان بالحدود بشكل رسمي البتة. والانسلال من جانب من الحدود إلى الجانب الآخر سهل مثل التنفّس للذين يعرفون تلك المنطقة.

ذلك أمر مهمّ إذ غالباً ما يكون الذين يعبرون الحدود من الإرهابيين. وضمّت المراكز السكانية في الجانب الباكستاني معسكرات تدريب القاعدة وطالبان. وتنطلق عمليات التمرّد من باكستان إلى أفغانستان، حيث يقاتل حلف شمال الأطلسي إلى جانب القوات الحكومية. وفي محاولة من مشرف ليوقف بالدبلوماسية ما عجز عن إيقافه عسكرياً، تعهّد في سنة 2006 بسحب الجيش من بعض المناطق مقابل وعد من الزعماء المحليين بوقف تسلّل المقاتلين إلى أفغانستان. وقد تبيّن أنّ الاتفاقات، على الرغم من حسن نيّتها، غير دائمة ولا يمكن تطبيقها. وقد استمرّ انتشار وجود القاعدة، ما أدى إلى جولات جديدة من القتال كانت نتائجها أقل من مرضية.

عند تحليل الأحداث في المنطقة، يجب أن تدرك الاختلاف الذي لا يميّزه الناس في

الغالب بين المختلف والخطر. القبائل الريفية في باكستان تمارس نوعاً متشدداً من الإسلام لا ينسجم تماماً مع مفهومنا لحقوق الإنسان. ذلك لا يجعلهم إرهابيين دوليين، بل على العكس، لقد عاشوا وفقاً لتقاليدهم قروناً عديدة دون أن يزعجوا من لم يزعجوهم.

المشكلة بالنسبة إلينا وإليهم وإليك هي أنّ التسييس الحالي حرّض المحاربين الإيديولوجيين ضدّ الزعماء القبليين. ويضمّ المنظّرون الإيديولوجيون أعضاء من القاعدة - قد يكونون باكستانيين أو أوزبكيين أو شيشانيين أو عرباً - وبقايا طالبان، وهم من الأفغان بالدرجة الأولى. في السنوات العديدة الماضية، تنافس المقاتلون مع التقليديين في السيطرة على القرى وعقول الشبان. فورّط ذلك الزعماء في كفاح يتجاوز حدود مخاوفهم. وليس لمعظمهم مصلحة في مقاتلة أفغانستان، ولا في مهاجمة الأميركيين، لكنّهم يعارضون أي تواجد عسكري أجنبي. في أثناء زيارة إلى واشنطن، أبلغني الوزير الأول للإقليم الحدودي الشمالي الغربي أنّ الكثير من شعبه يعتقدون أنّ أميركا غزت العراق لأنّه مسلم ويُعتقد أنّه يمتلك أسلحة نووية، وهما معياران يصفان باكستان أيضاً. وقال إنّ على الولايات المتحدة، وهي بلد مهم، ألاّ تتسرّع في استخدام القوة. وشدّد على أنّ شواغله الرئيسية داخلية؛ أي كيفية تقديم التعليم، والرعاية الصحية، والقانون، والنظام لشعبه. لكن الحروب للأسف قد تكون صعبة على الفئات التي تريد أن تترك وشأنها. وهكذا قُتل مئات من الزعماء المحليين لأنّهم فشلوا في تهدئة المتطرّفين العنيفين في أوساطهم.

لكنّ العزاء هو أنّ باكستان ككل مريضة بالعنف، ولا تدعم المبادئ المتشدّدة للقاعدة أو طالبان. وقد رفض الناخبون الباكستانيون الأحزاب السياسية المتشدّدة، مؤخّراً على الأقل، كلما سُمح لمرشّحي التيار السائد بالمنافسة. غير أنّ الباكستانيين لديهم شكاوى من الغرب، ولا يشعرون أنّهم عوملوا بعدالة.

في سنة 1948، عمل والدي كعضو في لجنة الأمم المتحدة للهند وباكستان. وفي أثناء أداء واجباته، سافر إلى كلا البلدين، بما في ذلك رحلة لمدة أسبوعين إلى أراضي كشمير الخلابة جغرافياً والكئيبة سياسياً. كانت مهمة اللجنة التوسّط في نزاع على

وضع كشمير الناشئ عن استقلال الهند حديثاً. في ذلك الوقت، كانت كشمير إمارة منفصلة يحكمها مهراجا هندوسي. وكان حكّام الهند وباكستان يرغبون بالسيطرة على المنطقة، وسرعان ما غزاها رجال القبائل الباكستانيون في محاولة لحل القضية بالقوة. لم يكن المهراجا يريد الانحياز إلى أي من البلدين، لكنّه أيّد في النهاية نيودلهي مقابل الدعم العسكري. أثار ذلك احتجاجات غالبية سكان كشمير المسلمين، واشتدّ القتال. نجحت لجنة الأمم المتحدة في التوصّل إلى وقف لإطلاق النار قسّم المنطقة على طول ما أصبح يعرف باسم خطّ المراقبة. وفي سنة 1949، دعا مجلس الأمن إلى استفتاء لتحديد الوضع النهائي للإقليم، لكنّ الهند عارضت إجراء مثل هذا التصويت ولم يتمّ البتة. استمرّت التوتّرات. وفي لحظة شاعرية أبدى والدي حزنه، "موطن المهراجا البعيد حيث كانت مساكب التوليب الزاهية تحيط بالنوافير المتدفّقة في حدائق شاليمار تحوّل بفعل طفرات الأزمنة الحديثة إلى تهديد موحش... للسلام".

كان ذلك قبل ستين عاماً تقريباً. وقد توفي والدي منذ مدة طويلة، وتقدّم بي الزمن ولم يتغيّر شيء. وعلى الرغم من أنّ كشمير اليوم نادراً ما تكون موضع اهتمام العناوين الرئيسية، فإنّها لا تزال قطعة رئيسية في الأحجية الباكستانية. ومؤخّراً، في سنة 2000 اندلع قتال كبير على طول خط المراقبة، في حين لا تزال حوادث تبادل إطلاق النار المعزولة أمراً روتينياً. تشكّل كشمير لكلا البلدين رمزاً للهوية الوطنية. فتزعم باكستان أنّ السيادة الهندية على مسلمي الإقليم غير مشروعة، في حين ترفض الهند أي صلة للدين بالموضوع. ويشير القادة في نيودلهي إلى الحوار المستمرّ مع باكستان بشأن كشمير، ويصرّون على أن لا شأن للمجتمع الدولي حتى في بحث الموضوع. وبما أنّ الباكستانيين مستاؤون من الوضع الراهن، فإنّهم يدافعون عن موقف مناقض، بأنّه على العالم أن يضغط على الهند لكي تكون أكثر تعاوناً. وطالما ولّد الاستياء بشأن كشمير الدعم للمجموعات المتطرّفة العنيفة داخل قوات الأمن الباكستانية. ومن مصلحة أميركا، وكذلك الهند وباكستان، أن تسوّى المشكلة بحيث لا توفّر ذريعة وطنية للمتشدّدين الباكستانيين. هنا تستطيع الهند، إذا شاءت، الوفاء بدور الشريك الاستراتيجي. ربما

كانت كشمير قضية محلية ذات يوم، لكنّها الآن في قائمة الشكاوى القصيرة التي تذكي ناراً عالمية. لا يعني ذلك أنّ على الهند الموافقة على الموقف الباكستاني، لكن عليها أنّ تتجاوز خطوات بناء الثقة التي اتخذتها في السنين الأخيرة (لحماية حقوق الإنسان وفتح الطرق أمام الحافلات) والبحث عن طريقة عادلة لكي يكون للمقيمين الصوت المقرّر في تحديد مستقبلهم.

شعرت باكستان بخيبة الأمل من علاقاتها الثنائية مع الولايات المتحدة بعد أنّ صُدّت في كشمير. فخلال الحرب الباردة، كانت حليفاً للولايات المتحدة، وعضواً في منظمة المعاهدة المركزية (سنتو)، خلافاً للهند. وفي الثمانينيات، شكّلت منطقة تجمّع للمساعي الأميركية لطرد السوفيات من أفغانستان. وعندما نجحت تلك المساعي، كان يجب أن يتمكّن بلدانا من أن ينعما بالرضا المتحقّق من النجاح في تأدية المهمة. لكن بدلاً من ذلك، فرض بوش الأب عقوبات على حليفنا بسبب برنامجه للأسلحة النووية.

غضب الباكستانيون، وشعروا أنّ واشنطن انتظرت حتى انتهاء الحرب الباردة لكي تدير لهم ظهرها. فعندما لم يعد السوفيات يشكّلون خطراً، خفّضنا مبيعات الأسلحة، وأوقفنا المعونة الاقتصادية، وبدأنا نعامل بلدهم كأنّه دولة منبوذة. من وجهة النظر الأميركية، كانت هذه التدابير ضرورية لدعم هدف عدم الانتشار. أما من وجهة نظر إسلام أباد فإنّها ردّ غير منصف على سعي البلد لحماية نفسه من الهند. وتفاقم الخلاف بتخلّي أميركا الفعلي عن أفغانستان بعد طرد السوفيات منه. فأوجد ذلك فراغاً، حيث كان الناس يمتلكون السلاح بدون أعمال. وتقاتل أمراء الحرب عدة سنوات فيما بينهم، واقتطع كل منهم جزءاً من أفغانستان، ما أدّى إلى فرار أربعة ملايين لاجئ. وأنتجت الفوضى التالية طالبان التي استضافت القاعدة فيما بعد.

تُستحضر هذه الخلفية كلما دخل الأميركيون مكتباً في إسلام أباد مطالبين باتخاذ إجراء ضدّ الإرهاب. فالباكستانيون غير ملومين من وجهة نظرهم، بل العالم ملوم بشأن كشمير وتصاعد التطرّف والإرهاب.

يستحقّ الشعب الباكستاني قادة أفضل مما لديه. فقد خضع منذ الاستقلال لحكم

العسكريين أو المدنيين، ولدى معظمهم سمعة مستحقّة بالفساد. ومنذ سنوات نجح مشرف بمقولته إنّ البلاد لا تستطيع، في أوقات التهديدات المحدقة، أن تخاطر بوجود قيادة ضعيفة ومنقسمة. وباستخدام تلك الحجّة، نكث عدة وعود بالتخلّي عن السلطة، فيما انخرط في سلسلة من النزاعات المريرة مع القضاء والأحزاب السياسية المعارضة والصحافة. يجب عدم التقليل من تقدير دور المال في كل ذلك. فالجيش الباكستاني، على غرار الجيش في الصين وعدد من البلدان الآسيوية والإفريقية والأميركية اللاتينية، شركة أعمال أيضاً لديها استثمارات كبيرة في القطاع الخاص (بما في ذلك مصانع تعبئة الماء في قنانٍ، ومصانع الإسمنت، والعقارات) ومصلحة كبيرة في منح العقود الحكومية. ويمكن إرجاع جانب كبير من العداوة بين الجيش والقادة المدنيين في باكستان إلى التنافس على خدمات الحكومة وأعمالها.

في نهاية المطاف ارتدّت محاولات مشرّف الخرقاء باحتكار السلطة عليه وهوت شعبيّته. فالباكستانيون يحترمون القادة الأقوياء، لكنّهم ينظرون بجدية إلى الدستور. وقد أدّى قرار مشرف في أواخر سنة 2007 بفرض الأحكام العرفية إلى نشوء مشهد مثير للإعجاب ظهر فيه المحامون الأنيقون وهم يعتقلون ويزجّون في السجون لوقوفهم إلى جانب القانون، وتحدّي الحكومة العازمة على تجاهل المعايير القانونية.

من المرجّح أن يتواصل عدم اليقين السياسي سنوات سواء أكانت الحكومة الباكستانية مدنية بالاسم، أم يسيطر عليها العسكريون. فالقوات المسلّحة لا تثق بالسياسيين المدنيين، مثل بنظير بوتو، وهي رئيسة وزراء سابقة، وبدون دعم القوات المسلّحة لا يمكن أن تنجح أي حملة ضدّ معاقل القاعدة. وبسبب مشرّف، تراجعت شعبية الجيش، وأصبح أقلّ ثقة بأنّ لديه الإجابات الشافية عن العلل الباكستانية. وتواجه الولايات المتحدة اليوم مشكلة الإقرار بأنّ تراجع شعبية مشرف لا يرجع إلى تحدّيه رغباتنا، وإنّما إلى صورته بأنّه دمية تابعة لواشنطن.

لا يزال قادة باكستان والولايات المتحدة عالقين في الورطة التي وقعنا بها منذ 11/9. فالمتطرّفون يستفيدون عندما تتراجع الحكومة للمحافظة على موقعها السياسي.

ويستفيدون أيضاً عندما يستجيب الجيش للضغط الأميركي بمهاجمة الإرهابيين. لذا يحظى بن لادن بشعبية نسبية في باكستان لا لأنّ الباكستانيين معجبون به، بل لأنّهم يكرهون أن تبدو حكومتهم بمظهر من يأتمر بأوامر قوة خارجية. ويتساءلون، لماذا يساعدوننا؟ ما الذي فعلناه من أجلهم؟ لم يكن مشرف أول دكتاتور عسكري تدعمه الولايات المتحدة بل الرابع. وإذا كان الحال كذلك، كيف نجرؤ على تصوير أنفسنا بأنّنا نناصر الديمقراطية؟

يبلغ عدد سكان باكستان نصف عدد سكان الولايات المتحدة. وغالبية شعبها أكثر اهتماماً في ولوج الاقتصاد العالمي من التصارع معه لصالح قضية سياسية. غير أنّ لديهم تصميماً لا يقل عن تصميم غيرهم على احترام حقوقهم وكرامتهم. في الماضي، فشلت الولايات المتحدة في أخذ النظرة الباكستانية العالمية في الحسبان. ولا يمكننا تحمّل إخفاق آخر، حتى عندما نسعى وراء أهداف ملحّة وجوهرية. فإذا حدّدنا شراكتنا الاستراتيجية مع الهند بحيث تصوّر باكستان عدوّاً، أو إذا سمحنا للهند بفعل ذلك، فسنوجد عدوّاً لا يسعنا احتمال وجوده. وإذا كنّا نعتقد أنّ حل التطرّف في باكستان يتمّ عن طريق المطالب والتهديدات، فسيخيب ظنّنا، وقد خاب بالفعل.

لقد كنّا حلفاء باكستان في الماضي عندما كان الاتحاد السوفياتي معادياً، وإمبريالياً وملحداً. والأمر أصعب الآن، عندما يوجد العدوّ داخل باكستان، ويزعم أنّ الله إلى جانبه. ذلك يضفي أهمية أكبر على علاقتنا، لكنّه يجعلها أكثر دقّة أيضاً. عليك أن تحاول بناء الثقة المتبادلة انطلاقاً من نقطة متدنية. وأقترح عليك أولاً، أن تعترف بالأخطاء الماضية؛ فذلك سيساعد، لاسيما أنّك لست المسؤول عن تلك الأخطاء. ثانياً، شدّد على ما يمكننا أن نقدّمه إلى باكستان لا على ما يمكن أن تقدّمه باكستان إلينا. ركّز على التعليم العام، وعلى القضايا الاقتصادية (وخاصة منح أفضليات تجارية للأقمشة الباكستانية)، وعلى تحسين الخدمات المقدّمة في الأقاليم الحدودية. ثالثاً، شجّع على الحوار بين الأديان استناداً إلى الالتزام بالسلام المشترك بين الهندوسية والديانات الإبراهيمية؛ وثمة مبادرات جارية في هذا الشأن وهي مفيدة لأنّها تتعامل مع القضايا الجوهرية. رابعاً،

من ناحية البروتوكول، تعامل مع الهند وباكستان على قدم المساواة في الاحترام. وعندما تتوجّه إلى جنوب آسيا، خصّص الوقت نفسه لكليهما وعبّر عن مشاعر متماثلة. ربما تظنّ أنّ ذلك يزعج الهند، لكن على الشريك الاستراتيجي أن يدرك الحاجة إلى التوازن.
خامساً، اطرح قضية الإرهاب على الملأ كمشكلة مشتركة يتمّ التعامل معها على أساس متعدّد الأطراف، تتمثّل فيه أيضاً أوروبا وأفغانستان وإيران والهند والمملكة العربية السعودية وروسيا والصين. ولا تصوّرها كمواجهة بين البشتون والولايات المتحدة.

ربما تشعر بإغراء تولّي الأمور بنفسك وتأمر بتوجيه ضربات عسكرية في المناطق الحدودية، دون تقديم إشعار مسبق طويل للسلطات الباكستانية. أنا لا أستبعد هذا الاحتمال، لاسيما إذا كان لدينا معلومات استخبارية فورية تتعلّق بأهداف مهمة. غير أنّه يجب مقاومة إغراء شنّ حملة عسكرية أميركية واسعة في باكستان. فمن المستبعد على الأرجح أن تنجح مثل هذه المبادرة في القضاء على القاعدة وطالبان، في حين أنّها ستوجِد بالتأكيد آلاف الأعداء الجدد للولايات المتحدة. النهج الأكثر ذكاء هو التراجع إلى الوراء وطرح بعض الأسئلة الأساسية: ما الذي يريد الباكستانيون أن يكون عليه بلدهم بعد خمس أو عشر سنوات من الآن؟ ما الذي يرونه عقبة أمام تحقيق طموحاتهم؟ كيف يمكننا مساعدتهم في تحقيق أهدافهم، تاركين عداوتهم مع الهند جانباً بشكل مؤقّت؟

لا يقع على عاتقنا اختيار قادة باكستان. غير أنّ علينا أن نكون صريحين بشأن رغبتنا في أن يتطوّر في باكستان نظام سياسي ديمقراطي خاضع للمساءلة ومتحرّر من أمراض المحاباة وسياسة المال. في السنوات الخمس الماضية، قدّمنا إلى باكستان نحو 10 مليارات دولار من المعونة، استُخدم 9 بالمئة منها فقط لأغراض اجتماعية واقتصادية. وذلك يعكس مفهوماً ضيّقاً جداً للأمن. لن نكسب ولاء الجيش الباكستاني برشوته. ولن نكسب تأييد الشعب الباكستاني بتقديم المعونة للجيش. لقد طلبنا من الحكومة الباكستانية منذ 11/9 أن تكون حليفتنا في قتال القاعدة. وعليك كرئيس أن تكرّر ذلك الطلب فيما تشدّد على رغبة أميركا في أن تكون صديقاً حقيقياً للشعب الباكستاني. وبعمل ذلك، عليك أن تدرك أنّ هذا هو الدور الذي ينتظرك. علينا تثقيف

أنفسنا عن ماضي باكستان وحاضره، ومنح هذه العلاقة الأولوية الاستثنائية التي تستحقّ. إذا كان الباكستانيون والأميركيون يريدون أن يكونوا حلفاء حقيقيين وفعّالين في إلحاق الهزيمة بالقوى التي تهدّدنا كلينا، فإنّنا بحاجة إلى التحالف مع البلد بأكمله، لا إلى اتفاق مؤقّت مع قلّة محظوظة، أو زواج مصلحة مع دكتاتور.

الفصل الثاني عشر
عراق واحد يكفي

هل رأيت مباشرة الدمار الذي يحدثه الزلزال؟ لقد شهدته في تركيا قبل عقد من الزمن. لم تكن الأرض حيث يجب أن تكون. وتمزّقت البيوت وتناثرت السيارات نصف المحطّمة، وتشوّهت معالم الطرقات. بدا احتمال إعادة الإعمار مستبعداً. بحيث تسأل نفسك، من أين نبدأ؟

لننظر الآن في السياسة الأميركية تجاه الشرق الأوسط. منذ دبلوماسية هنري كيسنجر المكوكية النزيهة في أوائل السبعينيات، تعاملت أميركا مباشرة مع كلا الجانبين للتوصّل إلى سلام عربي إسرائيلي، وساعدت في النهاية مصر والأردن في إيجاد تسوية مع الدولة اليهودية. وجمعنا بين إسرائيل والفلسطينيين في حوار حول احتياجات كل منهما، ودفعنا سوريا باتجاه الاتفاق، لتتراجع بسبب التنازع على شريط من الأرض الساحلية لا يزيد اتساعه عن نصف ميل. وعملنا كشركاء مع الحكومات العربية لاحتواء الأنظمة المعادية في ليبيا والعراق وإيران. وساعدنا إسرائيل في أن تصبح قوية بالقدر الكافي لردع العدوان، فيما حضضنا قادة ذلك البلد على التفاوض استناداً إلى مبدأ الأرض مقابل السلام. وسعينا إلى إيجاد طرق لتحقيق الطموحات المشروعة للفلسطينيين. وأجهد بيل كلينتون نفسه وكل من حوله في محاولة لإيجاد صيغة للتسوية. لم ينجح، لكنّ الطرفين اقتربا أكثر من ذي قبل. وما من شخص نزيه يستطيع القول في أثناء رئاسة كلينتون إنّ أميركا لم تكن تهتمّ بالشعب في جانبي النزاع.

اعتقد جورج دبليو بوش أنّ لديه نهجاً أفضل. فازدرى القادة الفلسطينيين، ولم يكتفِ باحتواء صدام حسين فحسب، بل باشر - مقتنعاً بأنّ القوة الأميركية تستطيع إقامة الديمقراطية على الفور - بتنفيذ خطة أحادية لتحويل الشرق الأوسط بأكمله. وبذلك العمل، أحال الهيكل الأمني غير المثالي إلى حطام.

في الشرق الأوسط، يشكّل تأثير كرة البليار في الشؤون الدولية خطراً كبيراً.

فالكرات لا تصطدم الواحدة بالأخرى فحسب، بل عند ضربها بقوة كافية، تنفجر وتشعل الكرات الأخرى إذا التفّت بشكل خاطئ. ومن ثم تحلّل غزو العراق إلى حرب أهلية متعدّدة الأطراف، فاقمت التوتّر بين المسلمين السنّة والشيعة، وزادت نفوذ إيران، وأوصلت تركيا إلى شفير نزاع مع الأكراد العراقيين، ومنحت القاعدة حياة جديدة. انقلب الرأي العام في أماكن كثيرة من العالم ضدّ الولايات المتحدة، في حين احتل القادة الذين يتحدّون الولايات المتحدة (وإسرائيل) بشكل مباشر قوائم الشعبية في أوساط المسلمين. وقد حاولت إدارة بوش متأخّرة أن تبطل الضرر بالهبوط بالمظلة على النزاع العربي الإسرائيلي لتجد أنّ إطار العمل الذي دعم ذات يوم عملية السلام بحاجة إلى إعادة بناء من الصفر.

لقد قامت البراعة الأميركية في التعامل مع مخاطر القرن العشرين على دعامتين: القيادة الأميركية والمشاركة التامة لشركائنا في الحلف. ولن نستعيد موقعنا في الشرق الأوسط والخليج إلا إذا وضعنا أولاً جدول أعمال يدعمه حلفاؤنا ويمكن التوفيق بينه وبين احتياجات البلدان الرئيسية الأخرى. وحتى عندئذ سنكون في نقطة البداية، إذ علينا استعادة ثقة الموجودين في المنطقة. ولكسب تلك الثقة، علينا أن نحسن فهم ما يريده الشعب في الشرق الأوسط، ولماذا يقومون بما يقومون به. لن نستطيع إقناع أحد إذا لم ننجح في فهم رأيهم بأنفسهم وبنا.

إذا وضعت في الغرفة نفسها طبيباً عراقياً ومعلّماً فلسطينياً ومزارعاً إسرائيلياً ورجل أعمال لبنانياً وطالباً إيرانياً وجندياً أميركياً، فمن المرجّح أنّ تكتشف أنّهم يرون الخطأ والصواب بطريقة مختلفة، ولكن بمنطق متماثل بالنظر إلى الاختلافات في أماكن عيشهم وما الذي شهدوه. والإقرار بذلك لا يعني الموافقة على النسبية الأخلاقية - كما قد يوحي المنظّرون الإيديولوجيون - بل أول خطوة نحو نهج دبلوماسي متماسك تجاه الشرق الأوسط.

ستجد كرئيس أنّ الصراعات في هذه المنطقة، بصرف النظر عن قدسية أرضها، ليست بين الملائكة والشياطين. ولا يمكنك الجلوس وانتظار أن تسوّي صاعقة قويمة من

السماء كل الخلافات؛ كما أنّ انتظار المعركة الفاصلة بين الخير والشرّ ليس سياسة خارجية. ستكون مهمّتك عملية جداً: مساعدة الناس الذين يقتل أسلافهم بعضهم بعضاً منذ أجيال على التعايش معاً. وسيتطلّب ذلك ترك العديد من أخطاء الماضي دون تصحيح، واعترافاً من جانبك بأنّ القوة - رغم عدم القدرة على اجتنابها أحياناً - ترتدّ في الغالب ونادراً ما تحلّ شيئاً لمدة طويلة. لن تجد حلاً عسكرياً حاسماً لأي من النزاعات الراهنة أو المحتملة في المنطقة. ولا يكمن الخيار الحقيقي - أمامك وأمام القادة الآخرين - بين النصر الدائم أو الهزيمة، لكن بين مستقبل يستطيع الأطفال أن يلعبوا فيه دون خوف وحلقات متكرّرة من العنف تجعل الأطفال العرب واليهود على السواء يرسمون صوراً للنعوش.

في صباح يوم 18 تموز/يوليو 1921، تجمّع ممثّلون عن اليهود والمسيحيين والمسلمين في فناء الحاخام الأكبر في بغداد لتحية حاكمهم الجديد وسماع كلمته. كان هؤلاء أبرز الرجال في البلد؛ فلقد كانوا قادة سياسيين ووزراء حكوميين ورجال دين. جلسوا في صفوف وهم يعتمرون العمائم ويرتدون الملابس التقليدية، فيما راقب الأطفال والنساء من الشرفات المحيطة والنوافذ المفتوحة للغرف العالية. تركّز اهتمام الجميع على رجل متوسّط الطول ذي لحية مهذّبة ووجه وقور. كان اسمه فيصل بن الحسين، وهو من سلالة النبي محمّد (صلعم)، والمؤتمن على أسرار لورنس العرب، وسرعان ما سيصبح ملكاً. قدّم الحاخام الأكبر، المضيف الكريم، إلى ضيفه كتاب توراة كبيراً، فقبّله فيصل. ثمّ قدّم إليه بعد ذلك نسخة جيّدة التجليد من التلمود ونسخة مذهّبة من الوصايا العشر. عندما دعي العربي إلى الكلام، قال للمستمعين: "لا معنى لكلمات يهود ومسلمين ومسيحيين في مصطلحات الوطنية، هناك بلد يدعى العراق وكلنا عراقيون. إنّني أطلب من مواطنيّ أن يكونوا عراقيين فحسب لأنّنا جميعاً أبناء أرومة واحدة، أرومة جدنا سام؛ كلنا ننتمي إلى العرق السامي، ولا فرق بين مسلم ومسيحي ويهودي".

لم ينصّب فيصل ملكاً بدعوة من الزعماء المحليين، بل بدعوة من البريطانيين الذين حرّرت قوّاتهم المنطقة من مضطهديها الأتراك. وكان البريطانيون يعوّلون على فيصل لبثّ

روح الوحدة الوطنية بإقامة نسيج عراقي من الخيوط السنية والشيعية والكردية والمسيحية واليهودية. كان البريطانيون يخطّطون "لتحضير" العرب والاستفادة من نفطهم، لكنّ العراقيين أصرّوا على السيناريو الخاصّ بهم، فتقاتلوا بعضهم مع بعض وتمرّدوا على إملاءات لندن. وخلال أربعة عشر شهراً، كتب المسؤول البريطاني عن العراق، ونستون تشرشل، إلى رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج يشكو إليه بيأس:

> انني قلق جدا بشأن العراق. لقد اصبحت المهمّة التي عهدت بها الي مستحيلة حقا.. ليس هناك اي صحيفة - محافظة او ليبرالية او عمالية - ليست معادية لبقائنا في هذا البلد... إنّني أعتقد الان أن علي أن اوضح بجلاء، لا لفيصل فحسب بل للجمعية التأسيسية، الموقف... إذا لم يكونوا مستعدين لحثنا على البقاء والتعاون بكل الطرق، فانني سانسحب. وذلك هو الحل على أي حال... اننا ندفع حاليا ثمانية ملايين دولار في السنة من اجل امتياز العيش فوق بركان لا يقرّ بالجميل ولا يمكن أن نحصل منه في أي ظرف على أي شيء يستحق ان ناخذه.

بعد أكثر من ثمانية عقود، ستكون فكرة الاجتماع في بيت الحاخام الأكبر مستغربة، ولا يعتقد بدرجة أقل بقليل أنّ القادة المسيحيين سيكونون مناسبين. لكن ما لم يتغيّر هو أنّ الغرب لا يزال يعتقد بأنّ "هناك بلداً يدعى العراق وكلنا عراقيون"، فيما المتواجدون في ذلك البلد لا يزالون يتبعون سيناريو آخر. وتتماثل أيضاً العلاقة الخرقاء بين قوة محتلة تعبت من مهمتها وحلفاء محليين سئموا من التهويل لكنّهم يخشون أيضاً ما سيحدث إذا ما انسحبت القوات الأجنبية. وقد أصبح بركان ونستون تشرشل الناكر للجميل لك الآن.

قلت في كتابي الأخير **الجبروت والجبار**، "يمكن في النهاية أن يكون غزو العراق - وما تلاه - من أسوأ كوارث السياسة الخارجية في التاريخ الأميركي، على الرغم من أنّ علينا أن نأمل بحرارة خلاف ذلك". ومنذ ذلك الحين، كرّرت تلك الجملة على المستمعين في كل أنحاء أميركا وذهلت من الردّ: التصفيق. في البداية لم أتمكّن من فهم الأمر. لماذا يصفّقون؟ لقد أملت أن أكون مخطئة. ثم تبيّن لي أنّ الناس يصفّقون لأنّني قلت ما توصّلوا إليه قبل ذلك بوقت طويل: الحرب غلطة، وعلينا إيجاد أفضل طريقة للخروج.

لست ممن قدّموا الحجة لصالح الانسحاب المبكّر لكل القوات الأميركية من العراق. وأعتقد أنّ الرئيس بوش كان مصيباً عندما زعم أنّ الانسحاب المتهوّر يمكن أن يؤدّي إلى كارثة، ومخطئاً في الافتراض بأنّ وجود قواتنا سيحول دون وقوع الكارثة. غالباً ما أُسأل في أثناء المقابلات إذا ما كان بقاء أميركا في العراق إلى أن يعود إليه الاستقرار واجباً أخلاقياً تجاه شعب المنطقة. وكنت أردّ بأنّ ذلك صحيح، ولكن لدينا أيضاً واجب تجاه قواتنا. فيجب تقييد مهمّتنا العسكرية، بقدر ما نحافظ عليها، بما نستطيع تحقيقه. المصداقية الأميركية مهمة، لكنّها لا تتعزّز باعتماد استرتيجية لا أمل لها بالنجاح ثم الإصرار عليها.

ستجد كرئيس أنّه لا يوجد خيارات جيّدة في العراق، سواء غادرت قواتنا على الفور أم ببطء أم لم تغادر البتة. والسبب أنّنا لا نمتلك النفوذ لتحديد النتيجة في العراق؛ وقد اتضح ذلك منذ سنوات. مسؤوليتك هي الحدّ من الضرر.

ثمة ثلاثة كوابيس على وجه التحديد قد تلازم رئاستك. يمكن أن تصبح المنطقة التي يسيطر عليها السنة في العراق، نظراً لافتقارها إلى المؤسسات الحاكمة الشرعية، ملاذاً آمناً ومنطقة تدريب وتجنيد للقاعدة. ثانياً، قد يظهر خنوع الحكومات العراقية القادمة أمام إيران التي تزداد قوة، فتتقاسم معها المعلومات الاستخبارية، وتتعاون في المسائل العسكرية، ما يهدّد إسرائيل. ثالثاً، قد يصبح العراق شديد التصدّع بسبب النزاع بحيث يشعل حرباً تشمل المنطقة. إذا كنت أنت وفريقك محظوظين قد تتمكّنون من تجنّب كل من هذه الكوابيس، وإذا لم تكونوا كذلك فقد تقع ثلاثتها.

الحظ مهمّ لأنّ مستقبل العراق لا تحدّده أفعالنا فقط. فحتى عندما كانت مستويات قواتنا في ذروتها لم نسيطر على البلد لأنّنا لم نستطع إقامة الأمن، ما يعني أنّ اللوم وقع علينا لما نتج عن اضطراب الكهرباء، والنشاط الاقتصادي، وسلامة الناس. الميزة الوحيدة التي نمتلكها الآن هي أنّ لدى الآخرين كوابيس تشبه كوابيسنا. فما من حكومة في المنطقة تؤيّد القاعدة؛ وليس بينها - باستثناء إيران - من يريد أن تسيطر إيران على العراق؛ وليس منها أحد متلهّف للحرب.

علينا الاستفادة من هذه الأصول إلى أقصى حدّ، إذ ليس هناك نقطة توقّف طبيعية للعنف. ويمكن أن تتدخّل إيران وسوريا والمملكة العربية السعودية والأردن ومصر وتركيا إذا تعرّض العراقيون الذين يشاركونهم الدين أو الإثنية لخطر الذبح. وتشعر الحكومات بالقلق أيضاً من أن تؤجّج أعمال القتل في العراق مشاعر السنة في سوريا، والشيعة في الكويت والمملكة العربية السعودية والبحرين، والأكراد في تركيا وإيران وسوريا. وفي أسوأ الحالات نسرّع دورة القتل والتخريب التي تؤدّي إلى إعادة رسم الحدود، ومزيد من الدمار الاقتصادي، وتدمير المزارات الدينية التي لا يمكن استبدالها؛ ما يولّد عطشاً للثأر لا يروى له غليل. أما بالنسبة إلى القاعدة، فمن يشكّ في أنّها ستستغلّ كل فرصة؟

لقد أدّى العنف الطائفي بالفعل إلى سقوط عدد هائل من المدنيين وإلى واحد من أكبر النزوحات السكانية في تاريخ الشرق الأوسط الحديث. فقد هجر أكثر من مليوني عراقي منازلهم بحثاً عن أحياء أكثر أمناً، أو فرّوا عبر الحدود إلى سوريا والأردن وإيران. وكلّف هذا الخروج العراق نواة من العاملين المهرة الذين يحتاج البلد إلى مواهبهم. كما أنّ نزوح السكّان يميل إلى إطالة القتال بدلاً من تبريد النزاع، إذ ينتظم النازحون لاسترجاع بيوتهم. وما لم تمارس رقابة شديدة على مناطق اللاجئين، يمكن أن تتحوّل إلى قواعد للميليشيات ومعسكرات للتلقين، حيث تحثّ المنافي المريرة الجيل التالي على خوض معارك خسرها الجيل السابق. لقد شهدنا ذلك لدى الفلسطينيين لمدة ستة عقود، ورأيته بنفسي في إفريقيا الوسطى، حيث أطلق اللاجئون من رواندا جولة إثر أخرى من سفك الدماء.

ستشير من موقعك الممتاز في البيت الأبيض - كما فعل فيصل - إلى أنّه لا يوجد رابحون في الحروب الأهلية. غير أنّ العراقيين لا يتطلّعون إلى أميركا لكي ترشدهم إلى مصلحتهم، بل يتخذون أحكامهم بأنفسهم. وما لم يروا قيمة بناء بلد موحّد، فإنّ الحكومة المركزية ستظل ضعيفة. وبمرور الوقت، سيسلك الأكراد بالتأكيد طريقهم المنفصل (وهم يعقدون بالفعل اتفاقات نفطية خاصة بهم ويحظرون عرض العلم العراقي). وسيسعى السنّة، الذين ما زالوا يؤمنون بأنّهم الحكام الشرعيون للعراق، إلى استعادة موقعهم

الأول السابق. وسيحاول الشيعة - وهم الغالبية ومصمّمون على تعزيز مكاسبهم - اقتطاع أكبر شريحة ممكنة من الأراضي، في حين يتقاتلون فيما بينهم على من سيتولّى السلطة.

قد يكون السبيل الوحيد للمحافظة على اجتماع العراق هو السماح بانقسامه؛ لا بشكل رسمي أو كامل، بل بقدر كاف يتيح إنشاء حيّز للعيش للشيعة في الجنوب، وللأكراد في الشمال، وللسنة في ما بينهما. يجب أن يحدث ذلك نتيجة لسياسة معلنة لأنّ العراقيين قطعوا شوطاً نحو التقسيم. ويجب أن يكون هدفك، بالتشارك مع من يرغب من القادة العراقيين، تثبيت استقرار العملية بحيث تتمّ سلماً ودون القضاء تماماً على مفهوم العراق الوطني. فما من سبب يدعو شخصاً ما على سبيل المثال يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعائلته ومعتقده أولاً ألاّ يحافظ على بعض الولاء للهوية الوطنية أيضاً. لبنان ليس نموذجاً جيداً للكثيرين، لكنّه يحافظ على بقائه كبلد على الرغم من الصدوع على الطريقة العراقية. ويجب أن تكون بغداد مكاناً يستطيع فيه السنة والشيعة (وغيرهم) الاختلاط معاً. وذلك يعني وجوب وقف حملات التطهير العرقي التي تشنّ من شارع إلى آخر. وعلى الحكومة العراقية، سواء بقيادة جديدة أو لا، أن تتفق على ترتيبات تقاسم السلطة والنفط، والتي تكون مقبولة من الفئات الرئيسية هامشياً على الأقل. على الأكراد، الذين ليس لديهم منفذ على البحر أو كثير من الأصدقاء، التوصّل إلى أنّ الاستقلال الذاتي داخل عراق قابل للحياة أفضل من الاستقلال داخل منطقة تسودها الحرب. وقد رأينا أنّ فرض حلول سياسية أو عسكرية في العراق أمر يتجاوز قوّتنا، لكن بالمساعدة الفاعلة من جيران العراق يمكن تصوّر التوصّل إلى توازن هشّ. لن تكون النتيجة بلداً سوياً بقدر ما ستكون ثلاثة إقطاعات، لكل منها ميليشيا، ولكن كل منها يحترم أيضاً منطقة نفوذ الآخرين. وهذا العراق المفدرل أمر سيئ في أحسن الظروف، لكن عندما يلحق الدمار الشديد ببلد ما، فإنّ الأسلاك والشرائط اللاصقة ستظهر.

عندما كنت وزيرة للخارجية، واجهنا نزاعاً إثنياً في البلقان. ومن المعروف تاريخياً أنّ لكل فئة في المنطقة حليفاً خارجها، تحصل منه على السلاح والدعم السياسي. رأينا أنّ

الحلّ قد يكون في دفع كل البلدان التي لديها مصلحة في البلقان إلى العمل معاً، لذا أنشأنا أداة دبلوماسية أسميناها مجموعة الاتصال، تضمّ ممثّلين من ستة بلدان، وحرصنا على تنسيق سياساتنا. نجح هذا الأسلوب وقلت (أنا وآخرون) قبل حرب الخليج الثانية وبعدها إنّه يجب تجربة شيء مماثل هناك. ولكنه لم يجرّب وكان الفشل ذريعاً. ربما بدأت أميركا النزاع، لكن لجيران العراق وحلفائنا مصلحة كبرى في إنهائه. وكان بوسع الإدارة اجتذاب المساعدة بالاعتراف بأخطائها وعرض تشارك المسؤولية في اتخاذ القرار. أصرّ المسؤولون الأميركيون بدلاً من ذلك على أنّ الائتلاف يستطيع تحقيق الغلبة بمفرده. وفي أيار/مايو 2003، رفضوا عرضاً من إيران بإجراء مفاوضات شاملة استناداً إلى فكرة عراق ديمقراطي وغير ثيوقراطي. لم توافق الولايات المتحدة إلاّ في سنة 2007 على اعتماد الدبلوماسية الإقليمية، وفي ذلك الوقت أصبحت عملية حرية العراق ترتبط بإنقاذ ما يمكن إنقاذه أكثر من ارتباطها بالحرية.

كان فشل إدارة بوش في العراق متوقّعاً لكن ليس محتوماً تماماً. فربما كان يمكن دفع التدخّل الأميركي، أياً كان سوء تصوّره، إلى نهاية شبه ناجحة لو كانت المعارضة محصورة بالتمرّد السني. علينا ألاّ ننسى أنّ ملايين العراقيين خاطروا بحياتهم، ومات الآلاف منهم، وهم يحاولون إنجاح الديمقراطية. كان الناس متحمّسين للاقتراع في قسم كبير من البلاد واستمتعوا بفرصة صياغة الدستور، وتشكيل الأحزاب السياسية، والمشاركة في حكومة ذاتية. كما أنّ القادة الشيعة أظهروا لمدة ثلاث سنوات شجاعة وضبطاً للنفس يستحقّان الثناء في وجه العنف السني. كان الشيعة يأملون ببناء سلطة شرعية عبر الانتخابات، فيما يعتمدون على الولايات المتحدة لإلحاق الهزيمة بالمتمرّدين السنّة.

لم تعمد الميليشيات الشيعية إلى الهجوم إلاّ في شباط/فبراير 2006، عندما دمّر الإرهابيون مرقد سامرّاء، حيث يرقد اثنان من أئمة الشيعة من القرن التاسع. وعندما تحوّل القتال إلى حرب أهلية، وجد الائتلاف الذي تقوده أميركا أنّه يحاول حماية كل الأطراف من العنف الذي تمارسه كل الأطراف. لم يكن الأميركي الذي يجوب الشوارع

يعرف على من يطلق النار إلى أن يتعرّض لإطلاق النار؛ وذلك موقف يصعب الدفاع عنه. تتراجع الميزة العسكرية الأميركية إلى الحد الأدني في قتال الشوارع، حيث يبدو الحلفاء والأعداء متماثلين، والمدنيون موجودون في كل مكان، بل إنّ المكاسب العسكرية غالباً ما تكون مصحوبة بنكسات سياسية. ومن الصعب كسب المعارك عندما ترتدي بدلات لا يرتديها أعداؤك، أو الفوز بالقلوب والعقول عندما توقف السيارات وتطرق على الأبواب فيما تلوّح بالأسلحة وتنشر الكلاب الكاشفة للقنابل في ثقافة تعتبر الكلاب غير طاهرة.

إلى جانب تعقيد المهمّة الأميركية، شلّت العداوة السنية الشيعية مساعي بناء جيش وطني فعّال، وشرطة مهنية، وإنشاء حكومة مركزية فعّالة. وبدلاً من جمع كل الفئات معاً، شاركت الوزارات الرئيسية التي يسيطر عليها الشيعة في الحرب الأهلية، مستخدمة الغطاء الرسمي لقتل أعدائها السنة وتعذيبهم وسجنهم. ولا تنجح الديمقراطية ما لم تحترم الغالبية المنتخبة خصومها لتعهد إليهم بحقوقهم، والتمثيل السياسي المنصف، ودور في توفير الأمن. وذلك أحد أسباب جعل إنشاء ديمقراطية بين ليلة وضحاها شبيهاً بمحاولة جري الماراتون في اليوم التالي على التمرين. تبدأ بشكل جيد، لكنّ جسمك غير جاهز، لذا تصاب بالإنهاك باكراً وتنهار.

لاحظ فيليب زيليكوف، وهو مستشار كبير سابق لكوندوليزا رايس، أنّ "العراق لا يشهد حرباً واحدة. بل هناك خمس أو ست حروب مختلفة في البلد نفسه، ولكل منها قوى محرّكة مختلفة ومتحاربون مختلفون". بالنظر إلى هذا الواقع، من الإفراط توقّع أن نتمكّن من منع الفئات العراقية من تمزيق بعضها بعضاً إذا اختار أفرادها القيام بذلك. ويجب ألاّ يطلب من قواتنا المحاولة. بل يجب أن يكون هدفنا محاولة التخفيف من حدّة القتال إذا أمكن وإبقاءه ضمن حدود العراق. وإذا كان هناك وحدات محدّدة من القاعدة تعمل داخل العراق، ومقاتلون أجانب يتسلّلون، وأوضاع إنسانية نستطيع تقديم المساعدة فيها، فعلينا أن نبذل ما بوسعنا. وبخلاف ذلك، يجب أن يتوقّف دورنا العسكري وأن تحتل الدبلوماسية مركز مسرح الأحداث.

يجب أن تكون تلك الدبلوماسية - دبلوماسيتك - واقعية جداً. فليس لديك القدرة على

فرض إرادتك. وكممثّل لأميركا، ستُحَمَّل المسؤولية عن الخراب الذي أحدثه غزونا وعن أي فوضى نخلّفها وراءنا عندما نرحل. ومن غير الواضح أيضاً إذا كان من ستحتاج إلى مساعدتهم متوفّرين. عليك أن تبدأ بتذكير حلفائنا بأهمية مساعدتهم، لا للعراق ولنا فحسب، بل لمصلحتهم أيضاً. فلا ضرورة لأن يكون المرء تحت القنبلة أو فوقها ليشعر بتأثيرها.

يتوقّف الكثير على ما إذا كان جيران العراق مستعدين للتعاون في الحدّ من الأسلحة وتهدئة التوتّرات الداخلية، ومنع مثيري الاضطراب من دخول البلد. ويتوقّف مثل هذا التعاون على الثقة، وهي الآن أكثر ندرة من ثلج الصحراء. إذا أرادت إدارتك إنشاء هيكل أمني مستقرّ في المنطقة، فسيتعيّن عليك بناء الجسور مع كثير ممن في داخل العراق وخارجه ممن عرّفناهم سابقاً بأنّهم أعداء أو أشرار: إيران وسوريا والمليشيات الشيعية والمشايخ السنة والأعضاء السابقون في حزب صدام حسين؛ ويا لها من لائحة. غير أنّ المرونة لا تقع على عاتقك فقط، لأنّ كلاً من هذه الكيانات وصفتنا أيضاً - وبعضها بعضاً في الغالب - بأنّنا أشرار. المشاعر السيئة موجودة لدى الجميع. وعلى الدبلوماسية ألاّ تقوم في هذه الحالة على تقديم خدمات إلى بعضنا بعضاً، بل على الاتفاق على أنّ اشتعال العراق لا يخدم مصلحة أحد باستثناء عدوّ الجميع، أي القاعدة. وكما بيّنت المبادرات السابقة، من الصعب مدّ اليد للقادة السنّة والشيعة في الوقت نفسه دون أن نتعرّض للاستغلال. وفي هذا التاريخ المتأخّر، هناك حاجة إلى لمسة سيميائي لإنشاء إطار عمل متعدّد الجنسيات ومتعدّد الأديان لدعم الاستقرار في عراق فيدرالي. غير أنّه الهدف الصحيح الذي تنشده وأفضل فرصة تمتلكها.

تنتهي الحروب الأهلية في العادة بطريقة من ثلاث: أن يهزم طرف الطرف الآخر، أو أن تتدخّل قوة خارجية لفرض السلام، أو أن ينهك الطرفان نفسيهما بالعنف. النتيجة الأولى غير محتملة في العراق؛ ولم تنجح الثانية؛ وقد تستغرق الثالثة عقداً أو أكثر.

دفع الأميركيون ثمناً باهظاً للأخطاء في العراق، لكننا لم ندفع بالتساوي. من المرهق القتال في عمل عسكري جيّد التخطيط وناجح، ومن المؤلم جداً أن تشاهد أحد رفاقك

يسقط في حرب أفسدها القادة السياسيون. لقد خلّفت لنا طبيعة هذا النزاع الاستثنائي آلاف القبور التي حفرت حديثاً، وعدة آلاف من الرجال والنساء المشوّهين بدنياً وعقلياً. لقد شعر سلفك بالألم الشديد وصلّى مع الضحايا وأحبّائهم لكنّه كان مقيّداً بمنطقه الخاطئ فلم يصف الغزو كما ينبغي: هجوم على الإرهاب أدى إلى تقويته؛ وعرض للقوة الأميركية كشف عن حدود تلك القوة؛ وحملة شنّت باسم الديمقراطية فأضعفت اسم الديمقراطية؛ وضربة ضدّ التطرّف خدمت جدول أعمال الراديكاليين في إيران؛ والأهم من ذلك أنّه مأساة إنسانية رهيبة.

عليك أن تضمن أن يلقى جنودنا العائدون أفضل رعاية صحية، وحزمة كاملة من منافع المحاربين القدامى. وعليك أن تقترح أيضاً إقامة نصبين: واحد في أميركا والآخر في العراق، لتكريم الجرحى والقتلى، من العسكريين والمدنيين على السواء. أجرِ الترتيبات اللازمة لكي يتلو القادة الروحيون صلواتهم بالإنكليزية والعربية. اجمع الشعبين معاً في الذكرى والحزن. ادعُ لكي يحلّ التواضع محل الكبرياء، وانتبه إلى النصيحة التي قدّمها أحد نقباء الجيش المغفلي الاسم وهو يحاول أن يستخلص معنى من جولته في العراق:

> إذا كان بوسعنا أن نتعلّم شيئا من العراق، فيجب أن يكون عدم القدرة على فرض فكرة جديدة على مجتمع ما... لقد أصبح "تسليم الموقوفين خارج نطاق القانون"، وخليج غوانتانامو، وأبو غريب اسما مختزلا لأميركا (أو إدارة أميركية) التي فقدت الإيمان بقوة فكرتها. ويبدو أن نفاقهم انكشف، فتعرض الأشخاص الذين اعتنقوا الفكرة الأميركية وعملوا بشكل تدريجي على نشرها في أكثر مناطق العالم تغليا للهزيمة أمام جيل جديد من المتطرّفين... أن ما يقدّم لنا بعض الأمل هو الخواء المطلق لهذا البديل للفكرة الأميركية. لكنهم قد يظلّون طافين ما دام بوسعهم التصويب على العدو الخارجي، لحرف الملامة عن إفلاسهم الأخلاقي والمادي. وإذا ما تمكنا من إعادة التأكيد على فكرتنا وتقديمها للناس كخيار حقيقي، فإنني على يقين من أنّنا سنتغلب على النكسة الحالية. غير أن ممارسة أي قدر من العنف باسم الحرية لن يكون قادرا على إحلالها.

في أثناء الحملة الانتخابية، اتفقت في الرأي مع المرشّحين الآخرين على أنّ إيران

تشكّل أكبر تهديد جدي للمصالح الأميركية، إذا وضعنا القاعدة جانباً. ويستند هذا التقييم إلى حدّ كبير إلى الخوف من أن تتحدّى إيران الضغط الدولي، وتنتهك التزاماتها أمام الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وتصنع أسلحة نووية. وربما تنخرط إيران المسلّحة بأسلحة نووية في الابتزاز الدبلوماسي، أو تنقل تكنولوجياتها إلى مجموعة إرهابية ما، أو تطلق شرارة سباق تسلّح إقليمي، أو تحاول تدمير إسرائيل.

عندما سُئِلتم ما الذي تنوون عمله حيال ذلك، اتخذت أنت وأخصامك مواقف متماثلة: كنتم واضحين بشأن الأسلوب، وغامضين نوعاً ما بشأن كيفية تحقيق ذلك. وأملتم جميعاً أن يدفع ائتلاف من الدبلوماسية والعقوبات إيران إلى التراجع، لكنّكم قلتم إنّ إيران النووية غير مقبولة، وإنّ كل الخيارات مفتوحة؛ وذلك رمز شفّاف للتهديد بالقوة.

تساءل العالم منذ غزو العراق إذا ما كان السيّد بوش سيحاول فرض تغيير النظام في إيران، أو أنّه سيطلق على الأرجح صواريخ لتدمير المنشآت النووية الإيرانية الناشئة. وقد ذكّرني هذا الاحتمال لماذا يجب أن تسمّى واشنطن عاصمة الشائعات في العالم. في السنة الماضية، أُخْبِرت سراً من أناس زعموا بدورهم أنّهم أقسموا على المحافظة على السرية، بأنّ القرار بمهاجمة إيران اتخذ بالفعل. وأبلغت همساً بأنّ الرئيس لن يغادر منصبه دون أن "يسوّي" برنامج إيران النووي. لماذا؟ حكم التاريخ.

لقد كان بنيامين نتنياهو واحداً من كثيرين أشاروا بتخوّف إلى الارتباط بين طموحات إيران النووية المزعومة وتهديدات الرئيس محمود أحمدي نجاد الذي شكّك في المحرقة وحقّ إسرائيل في الوجود. فقد أعلن نتنياهو، "أنّها سنة 1938 وإيران هي ألمانيا. وإيران تسابق لتسليح نفسها بقنابل ذرية".

وفقاً لهذا المنطق، أحمدي نجاد هتلر آخر، وستحلّ اللعنة إلى الأبد على من يخفق في اتخاذ ما يلزم لوقفه. كما أنّ من يوحون بأنّه يمكن إقناع أحمدي نجاد بالحجّة، أو أنّه لا يعني حقاً ما يقول، أو أنّ أبناء بلده سيوقفونه عند حدّه، يشبهون من تعلّلوا بالأماني ورفضوا التصديق بأنّ النازيين سيتصرّفون وفق معتقداتهم المعلنة. وفي حين ظهرت شهوة هتلر إلى السلطة في القومية المسعورة، والعنصرية، وبوصلة أخلاقية حمقاء، فإنّه

يقال إنّ أحمدي نجاد ينظر إلى نفسه بأنّه شخصية ألفية اختارها القدر لتقود إيران في الصراع النهائي مع إسرائيل.

إنّ قبولك هذا التشبيه أم لا أمر مهمّ لأنّه سيؤثّر على خياراتك. فإذا كان قادة إيران يشبهون النازيين حقاً، فإنه يجب إيقافهم بأي ثمن. وإذا كانوا منقسمين، يمكن التأثير عليهم بالمزيج الصحيح من الجزر والعصي. لننظر في كيفية تشكّل مسرح الأحداث الحالي من أجل الاطلاع على المشهد.

كانت الاستراتيجية الأميركية في خمسينيات القرن العشرين تقوم على إقامة مواقع متقدّمة لمساندة مقاومة الشيوعية، لاسيما في مواقع حساسة مثل الخليج. بدت إيران الموجودة عند بوابة الاتحاد السوفياتي والغنية بالنفط، ملائمة جداً لمثل هذا الدور. لكن كما هو الحال في العراق، كان السكان المحليون يقرؤون من سيناريو مختلف، وهو هذه المرة مسرحية لعبت فيها بريطانيا الإمبريالية دور الشرير ثانية. فمنذ أوائل القرن العشرين، اعتمد البريطانيون على نفط الخليج لتزويد أسطولهم الكبير بالوقود؛ وفي أواسط القرن تمرّدت إيران مطالبة بتأميم شركة النفط الإنكليزية الإيرانية. لم يرق ذلك للبريطانيين فلجؤوا إلى مساعدة أميركا. رفض ترومان التدخّل، لكنّ خليفته، دوايت أيزنهاور، كان أكثر تقبّلاً. فوّض أيزنهاور السي آي إيه للإطاحة برئيس وزراء إيران المنتخب، وتنصيب الشاه محمد رضا بهلوي مكانه. ووفقاً للتاريخ الرسمي للسي آي إيه، "كان يوماً حبذا لو لم ينتهِ. فقد حمل معه إحساساً بالإثارة والرضا والفرح من المشكوك فيه أن يدانيه أي يوم آخر". وافق بهلوي ممتثلاً على تقديم امتياز نفطي جديد يفيد الشركات البريطانية والأميركية على السواء، ثم شرع في برنامج تحديثي يرمي إلى جعل أرضه حصناً داعماً للعالم الحرّ؛ وذلك لا يعني أن يكون شعبه حراً.

كان الشاه من القادة الذين يساوون بين سيادته والصالح العالم. ولتحصين بلده ضدّ الشيوعية، كان عليه المحافظة على موقعه فوق عرش الطاووس. ولضمان ذلك، أنشأ جهاز استخبارات وشبكة أمنية وحشيين لسحق المعارضة. وقد خانه إحساسه بحقّه في الحكم، بحيث أصبح لديه كثيرٌ من الأعداء الحاقدين وقليلٌ من الحلفاء الموالين. وقاد أحد هؤلاء

الأعداء، آية الله الخميني، حركة دينية من المنفى أغضبت الشاه أولاً، ثم أزعجته، ثمّ استفزّته، ثم كنسته هو وحاشيته المؤيّدة للغرب.

تسلّم الخميني السلطة في سنة 1979، وكان من القادة الذين يساوون بين رؤيته للحقيقة والصالح المطلق. لم يجد المصلحون العلمانيون والليبراليون الذين واجهوا الشاه ورحّبوا بهزيمته مكاناً لهم في الجمهورية الإسلامية المعلنة. أنشأ الخميني حكومة من قسمين. الأول يضمّ رئيساً منتخباً وبرلماناً ذا سلطة محدودة على الموازنة والخدمات العامة. والثاني يتكوّن من مجموعة من المجالس الدينية المسؤولة أمام القائد الأعلى، وهو الخميني نفسه. وقد مارس الخميني وخليفته، آية الله علي خامنئي، السيطرة منذ ذلك الحين على أمن إيران؛ الداخلي والدولي.

تتحدّد السياسة الخارجية الإيرانية تحت حكم آيات الله بمعاداتها الأميركية دون هوادة. فيما أنّنا نصّبنا الشاه ودعمناه، ونظراً لسياستنا الشرق أوسطية، فإنّ إيران تعتبرنا ورثة كل الخطايا التي ارتكبها البريطانيون، ومتواطئين في كل الخطايا التي ارتكبوها، ومسهّلين لكل الخطايا التي ترتكبها إسرائيل. ومما زاد الطين بلّة أنّ إدارة ريغان وقفت في الثمانينيات إلى جانب العراق في حربه العدوانية على إيران، وهي حرب كلّفت أكثر من مليون قتيل. وفي سنة 1989، أسقطت بحريتنا، في أثناء عملها في حراسة الخليج، طائرة مدنية إيرانية عن طريق الخطأ وقتل كل من كان على متنها.

عندما تحدّى الرئيس أحمدي نجاد الرئيس بوش للمشاركة في مناظرة، كما يفعل بين الحين والآخر، كانت هذه هي القضايا التي يريد التحدّث عنها: الشاه، وحرب الثمانينيات، وإسقاط الطائرة، والمعاملة الإسرائيلية للفلسطينيين. وفي القضايا النووية، يرى أنّ لبلده الحقّ في إعادة معالجة الوقود النووي، شرط أن يكون للأغراض المدنية وأن يخضع لتفتيش الوكالة الدولية للطاقة الذرية. وعندما نعترض قائلين إنّ إيران قد غشّت في الماضي ولا يمكن الوثوق بها، يردّ بأنّنا منافقون، بالنظر إلى ترسانتنا النووية وقرار إسرائيل تطوير الأسلحة النووية خارج آلية عمل الوكالة الدولية للطاقة الذرية. أما بالنسبة إلى من يمثّل الشرّ، فإنّ أحمدي نجاد يشير إلى أنّ إيران الحديثة لم تحتلّ أرض أحد،

خلافاً لأميركا وإسرائيل.

انتُخب الرئيس الإيراني بسبب وعود أطلقها لصالح الفقراء، ولأنّه كان عمدة شهيراً وكفوءاً لطهران. وربما يكون ميله إلى إثارة الخلافات الدولية طريقة لصرف الأنظار عن فشله في تلبية التوقّعات التي أشار إليها في حملته الانتخابية. وقد تتوقّف آماله في إعادة انتخابه على (في حزيران/يونيو من السنة الأولى لعهدك) على نجاحه في تصوير نفسه مدافعاً عن إيران في وجه الذين يتنمّرون عليها. وقد تأثّرت شعبيّته بسبب حملته المفرطة الحماسة لاتخاذ إجراءات صارمة ضدّ "مروّجي الانحلال الخلقي"، مثل أصحاب محلات الحلاقة والفتيات اللواتي يقدن الدرّاجات. ومما يساعده أنّ كل الإيرانيين يؤمنون بأنّ لبلدهم الحقّ في صنع أسلحة نووية.

عندما ينظر الشعب الإيراني إلى تاريخه، فإنّه يذكر بوضوح فترات العظمة، سواء أكانت إمبراطورية (في زمن قورش وداريوس) أو فكرية (تطوّر الإسلام الشيعي). واليوم تنظر إيران إلى نفسها كقوّة صاعدة. وتعزّزت هذه النظرة بإيرادات النفط، والهدية التي قدّمتها إدارة بوش بغزو العراق، إذ وضع ذلك جارة إيران في أيدي الغالبية الشيعية الصديقة لإيران نسبياً للمرة الأولى منذ قرون.

منذ ثورة 1979 وما تلاها من أزمة الرهائن، بحث الأميركيون دون نجاح يذكر عن قادة إيرانيين يمكننا أن نمارس معهم الدبلوماسية المثمرة. وأملت عندما كنت وزيرة للخارجية أن تكون اللحظة قد حانت. ففي سنة 1997 انتخب الإيرانيون رئيساً إصلاحياً، محمد خاتمي، أذهل العالم (وفاجأنا) بالدعوة إلى الحوار والتعبير عن احترام التقاليد والمثُل الأميركية. لقد شهدنا معتدلين زائفين يومئون إلى بلدنا من قبل، لكن خاتمي الدمث بدا صادقاً. وشعرنا بأنّه فتح الباب لتحسين الروابط وأنّه ينتظر ردّنا.

تتاح للرئيس ووزيرة الخارجية فرص قليلة لصنع التاريخ عن طريق تحويل العلاقات المهمّة نحو الأفضل. وعلى الرغم من أنّني كنت أعرف أنّ هناك عناصر من المؤسسة الأمنية الإيرانية معادين ولا يرجى إصلاحهم، فقد أثار اهتمامي احتمال تحقيق اختراق ولم أكن أرى أي سبب موضوعي يبيّن لماذا يجب أن يكون بلدانا عدوّين. فلدينا عدة أعداء

مشتركين، بمن فيهم صدام حسين، وطالبان، ومهرّبو المخدّرات (الذين شنّت ضدّهم قوات الأمن الإيرانية هجوماً حازماً). وأعترف أيضاً بإعجابي بثقافة إيران وشعبها. ففي الأمم المتحدة، كنت أمرّ بانتظام بجانب كلمات قصيدة للفيلسوف الفارسي في القرن الثالث عشر سعدي شيرازي. توحي تلك الكلمات، المكتوبة على جدار قرب قاعة الأمم، بأنّ الألم الذي يحسّ به في أي مكان يؤثّر على الجميع لأنّ "للعرق البشري جوهراً واحداً".

وقد أدليت مرتين، تفصل بينهما سنتان، بخطابين رئيسيين عن إيران. وتضمّن كل خطاب عرضاً على طهران بالجلوس لبحث كل القضايا، دون شروط. وأرسلنا رسائل مماثلة سراً عبر سفارة بلد ثالث. وخاب أملي لعدم قبول دعواتنا. إذا كان خاتمي صادقاً، فإنّه لا يمتلك النفوذ لانتشال إيران من حفرة معاداة أميركا. ولا يزال الردّ الإيراني الخاص علينا قائماً: "الحكومة الأميركية لم تصل بعد إلى الجهوزية اللازمة لإجراء حوار رسمي".

لقد كانت تلك فرصة ضائعة. وبعد أن غادرت منصبي، أخبرني وسطاء أنّ بعض المسؤولين الإيرانيين على الأقل شعروا بالندم لأنّهم لم يوافقوا على عرضنا. والدرس الذي تستقيه هو أنّ إيران تتحدّث بأكثر من صوت واحد. فكما لم يكن لإعلانات خاتمي سوى أهمية دبلوماسية صغيرة، فمن المحتمل أن يكون أحمدي نجاد لا يتحدّث إلاّ باسمه. وهو لا يتحدّث عن كل إيران بالتأكيد، ولا يعكس حنكة الشعب الإيراني وذكاءه.

أبرز ما في الصف الذي أعلّمه في جورج تاون الفرصة التي تتاح للطلاب بتولّي أدوار كبار المسؤولين الحكوميين والنظر فيما يمكن أن يفعلوه في وقت الأزمة. وأبرز ما فيه أنّني أعيّن نفسي رئيسة للولايات المتحدة. وكانت الأزمة الأكثر شهرة إيران. كنت أطلب من الطلاب تقديم الحجج المؤيّدة والمعارضة للضربة العسكرية بموجب سيناريوهات متعدّدة، بما في ذلك إغراق سفينة حربية أميركية في الخليج أو شنّ هجمات على إسرائيل أو على الولايات المتحدة بواسطة إرهابيين تدعمهم إيران. ونبحث إذا كان الردّ الأفضل على برنامج إيران النووي السعي إلى فرض عقوبات اقتصادية أو إطلاق الصواريخ الجوّالة. وتكون المناقشات حيوية حيث غالباً ما يختلف المثّلون الأميركيون

والإيرانيون فيما بينهم. وباعتباري رئيسة مفترضة، كنت أعجب بالاختلاف الكبير الذي يمكن أن يحدثه مناظر ماهر. في إحدى عطلات نهاية الأسبوع، كان الطالب الذي أدّى دور وزير الدفاع يوم السبت واثقاً ومقنعاً، وبدا أنّ لديه الأجوبة؛ وبدا طالب ثانٍ يؤدّي الدور نفسه يوم الأحد ضعيفاً وباهتاً، وغير راغب في استنتاج أي شيء من المعلومات التي لديه. كان بوسع الطالب الأول قيادة مجموعتنا إلى أي مكان؛ والثاني غير قادر على القيادة. لكن من كان أقرب إلى الصواب؟

تأدية الأدوار أمر مسلّ لأنّ الضرر الوحيد الذي يخاطَر به هو الحصول على علامة رديئة، وهي في هذه الأيام التخّصمية ب. غير أنّ الرهانات الموضوعة على الطاولة في غرفة الأوضاع في البيت الأبيض تتعلّق بالحياة والموت. ثمة فرص كبيرة بأن يدرج احتمال استخدام القوة ضدّ إيران كخيار طوال رئاستك، لاسيما إذا رفضت طهران الخضوع للضغط الدولي والتخلّي عن حقّها بتخصيب اليورانيوم.

بصرف النظر عما قلته في حملتك الانتخابية، عليك أن تعرف عن اللجوء إلى العمل العسكري. فكثير من الأشخاص غاضبون منا بالفعل أو لا يثقون بنا بحيث تكون الآثار السلبية للضربة الأميركية كبيرة؛ ما لم تكن دفاعاً عن النفس.

أولاً، يمكن أن ننسى التسوية مع الشعب الإيراني، وكثير منه يكره حكومته ويفضّل أن تكون لديه علاقات أفضل معنا. ثانياً، يمكن ألاّ نحصل سوى على قليل من الدعم الدبلوماسي، إذا حصلنا على شيء، ما لم نستطع أن نثبت أنّ إيران في طور صنع أسلحة نووية بالفعل؛ وسيكون معيار الإثبات عالياً بالنظر إلى فشل استخباراتنا الشهير في العراق. ثالثاً، إذا هاجمنا إيران فإنّنا نتخلّى عن العراق. وسيطرد العراقيون الشيعة قواتنا وربما دبلوماسيينا أيضاً. رابعاً، الأهداف المتوقّعة في إيران كثيرة، وبعضها في مناطق مكتظة؛ ومن المرجّح أن يؤدّي العمل العسكري إلى مقتل الكثير من الأبرياء. خامساً، ربما تنتقم إيران بتنظيم هجمات إرهابية ضدّنا. وبما أنّ المنطقة ستتذكر ضربتنا العسكرية قروناً من الزمن، فإنّ بوسعنا أن نتوقّع استمرار الأعمال الانتقامية طيلة الألفية.

ربما يكون استخدام القوّة ضرورياً في النهاية، مع ذلك عليك تحديث خطط الطوارئ باستمرار. وعليك أن تكون مستعداً لاحتمال وقوع حوادث عرَضية في الخليج. فالمسطّح المائي صغير، والسفن الحربية كبيرة، والتوتّرات عالية، والأخطاء تقع. وإذا ارتكب الأميركيون خطأ، فلن تستطيع إقناع إيران البتة، وستجد صعوبة في إقناع أي أحد آخر، بأنّنا لم نكن ننوي إثارة القتال. وإذا كانت إيران مخطئة، فستواجه ضغوطاً داخلية هائلة للردّ بقسوة، وخاصة إذا أزهقت حياة أميركيين.

من المصادر المحتملة للحوادث البروز الظاهر للحرس الثوري الإيراني كقوة مستقلّة وحازمة. أنشئ الحرس الثوري الإيراني في أعقاب ثورة 1979 للقضاء على خصوم النظام الجديد. ومع أنّ الحرس تابع للقائد الأعلى من الناحية التقنية، فقد بدأ يتصرّف من تلقاء نفسه، وأظهر أنّه متطرّف إيديولوجياً وعدواني إلى حدّ التهوّر، وجشع. وعلى غرار الجيش في أماكن مثل الصين وباكستان، يجمع الحرس الثوري الإيراني بين مهامه الأمنية ونهم لاحتكار العقود الحكومية، وميل إلى تهريب الممنوعات، واستعداد لبيع الأسلحة إلى كل من يريدها، سواء أوافق المسؤولون المدنيون أم لم يوافقوا. واتّهم أيضاً بتدريب قوات على تنفيذ هجمات ضدّ القوات الأميركية في العراق وأفغانستان. وإذا ما انحاز إلى أحمدي نجاد (وهو عضو سابق) وعمد إلى تدمير مراكز القوة المناوئة أو ترهيبها، فثمة احتمال لأن تتخلّى إيران عن تظاهرها بالعمل مع المجتمع الدولي. بل إنّ استفزازات الحرس الثوري تماثل الأنشطة النووية على الأقل في احتمال أن تؤدي إلى مواجهة عسكرية بين بلدينا.

ستشغل إيران حيزاً كبيراً من اهتمامك بطريقة أو بأخرى. وأتوقع ألاّ تسعى إيران إلى مواجهة في أثناء رئاستك، إذا تحلّيت بالصبر والمرونة الكافية. وعلى الرغم من أنّ إيران أقوى الآن مما كانت عليه سابقاً، فإنّها تفتقر إلى الموارد لكي تكون أكثر من قوة إقليمية. ربما يولّد النفط معظم الدخل الإيراني، لكنّه مورد متراجع لأنّ الطلبات المحلية المتزايدة تقلّل من الإمدادات. فإيران بحاجة الآن إلى استيراد 40 بالمئة من البنزين، نظراً لنقص القدرة على التكرير، وقد بدأت في عهد أحمدي نجاد تقنين توزيع الوقود. كما أنّ

حاجة البلد إلى المساعدة التقنية تجعلها معتمدة على النية الحسنة للآخرين.

هناك أيضاً حدود اجتماعية ودبلوماسية وعسكرية للقوة الإيرانية. ولا بدّ من حدوث ظروف استثنائية جداً لكي يتمكن بلد فارسي من السيطرة على منطقة تتكوّن من دولة يهودية ودولة تركية وباقي الدول عربية. بل إنّ على حلفاء إيران في العراق ولبنان توخّي الحذر لكي لا يبدوا دمى لطهران.

ربما لا تهمّ هذه القيود، كما يعتقد بعضهم، إذا كانت إيران مدفوعة بمهمة تستند إلى الدين لتدمير إسرائيل وإيصال التاريخ الإنساني إلى نهاية ملتهبة. اليقظة مطلوبة بالتأكيد، لكن علينا أن نضع أحمدي نجاد في إطاره الصحيح. ربما يتصرّف كأن برنامج بلده النووي هو ابنه الأول، لكنه ليس له دور في تصوّره. فالتزام إيران بالطاقة النووية يرجع إلى الشاه والبرنامج الأميركي السخي "ذرات من أجل السلام". كما أنّ أحمدي نجاد لا يمتلك سلطة تقرير سياسات إيران النووية، وتلك مسؤولية تعود إلى القائد الأعلى آية الله خامنئي ومستشاريه. ويوصف خامنئي بأنّه متطرّف شديد الحذر، ومن المرجّح أن يسلك مساراً بين الإذعان الواضح للضغوط الخارجية وإثارة أزمة عالمية. إنّ تطبيق العقوبات الاقتصادية الدولية على إيران لن يجعها تذعن على الأرجح، لكنّه سيجعل قادتها راغبين في الموافقة على تسوية معدّة بعناية.

يتوقّف الكثير على ما إذا كانت القيادة الجماعية الإيرانية تريد حماية المكاسب التي حقّقتها أو إذا كانت مصمّمة على اتباع استراتيجية أكثر عدوانية؛ انطلاقاً من طموحاتها أو استيائها أو إيديولوجيتها أو خوفها. يمكن أن تبدّد إدارتك المخاوف بطمأنة الحكومة بأنّ نوايانا سلمية؛ وأنّنا نقبل وجود مصالح مشروعة لإيران تريد حمايتها؛ وأن ليس لدينا أي خطط لاستخدام القوة في محاولة لتغيير حكومتها. وعلينا أيضاً أن نكون مستعدين للتحادث مع القادة الإيرانيين في كل المواضيع، من شكاويهم منّا إلى خوفنا من ارتباطاتهم بالعنف في الشرق الأوسط، وأنشطة الحرس الثوري الإيراني والقضية النووية. ويجب أن تكون اتصالاتنا متكرّرة وروتينية وسرية. الموضوعات الكبيرة المعلن عنها ترفع التوقّعات جداً، وتدفع الجانبين إلى محاولة تسجيل نقاط سهلة أمام الجماهير

المحلية. عند التوصّل إلى استراتيجيتك، تذكّر أنّ الاتفاق على الخلاف النووي يكون أكثر احتمالاً إذا كان بوسع الجانبين القول إنّهما حافظا على مواقفهما. إنّ موقفنا الرئيسي هو أنّ على إيران ألاّ تصنع أسلحة نووية. وإذا تمكنا من تأمين هذا الهدف، يجب أن يكون أي ترتيب يسمح لإيران بالحفاظ على ماء الوجه مقبولاً.

من الأمور التي تقلب الأوضاع رأساً على عقب قيام إيران بطرد مفتشي الوكالة الدولية للطاقة النووية، أو ضبطها ثانية وهي تقوم بأنشطة سرية ذات صلة بالأسلحة النووية. ومنها أيضاً إذا ثبت أنّ إيران تدير هجمات إرهابية ضدّ الولايات المتحدة أو تموّلها. بصرف النظر عن السيناريو، فإنّ موقفنا سيكون أقوى إذا عملنا مع حلفائنا في كل خطوة نخطوها، وإذا أدركت البلدان الرئيسية الأخرى أنّنا منحنا إيران كل الفرص لحل خلافاتنا دون اللجوء إلى العنف. ومن المهم أن يُشرح أساس أي إجراء نتخذه صراحة وبشكل صحيح؛ فيكفي عراق واحد. ومن المفيد أيضاً أن ينظر إلينا على أنّنا نشطون في السعي للتوصّل إلى نهاية مرضية لأكثر النزاعات إثارة للغضب؛ بين العرب والإسرائيليين في الشرق الأوسط.

الفصل الثالث عشر
الشرق الأوسط:
القدرة على الاختيار

"من الأمور المهمة في التوراة 'لا تقتل'. من ذا الذي يعطي شيئاً... فيعيش كل البشر بسلام ولا يشتهون أرض جارهم ويسود السلام العالم أجمع؟ من ذا الذي يعطي ليحقّق كل ذلك؟"

هذه الأسئلة المدوّنة في كتاب مدرسي للسنة الثامنة في يشيفا فلاتبوش في بروكلين تعكس الحنين العميق والإنساني لطفل، لكن ماذا يحدث بعد أن يكبر؟ بعد عشرين سنة، دخل مؤلّف هذه الكلمات، باروخ غولدشتاين، مسجداً في الخليل وقتل تسعة وعشرين فلسطينياً برشاشه فيما كانوا يصلون. وعندما سُئل جنرال إسرائيلي كيف يمكن أن يقع مثل هذا الحادث، ردّ أنّه لا توجد قوة في العالم قادرة على وقف قاتل مصمّم أو إرهابي بالنظر إلى تقارب الأحياء التي يعيش فيها العرب والإسرائيليون. ما من قوة في العالم.

عندما تتولّى منصبك، سيبدو السعي إلى سلام في الشرق الأوسط أمراً وهمياً مخصّصاً للحالمين. عندما كنت في الحكومة، قارناه بالأرجوحة الدوّارة أو قطار الملاهي؛ أي بآلة دائمة الحركة لكنّها تعود إلى حيث بدأت باستمرار. وبدا هذا المسعى في السنوات الأخيرة أشبه بالزحلوقة المائية للأطفال، حيث ينزلق المشاركون في اتجاه واحد (إلى أسفل) ينتهي ببركة يحاول فيها الجميع إيجاد أحد صغير يغطّسونه لكن لا يعرف أحد منهم السباحة.

لا يمكن اتهام الرئيس بوش بالافتقار إلى رؤية شاملة للشرق الأوسط. لكنّ عيبها أنّها تعتمد على أن يصبح العراق نموذجاً للديمقراطية، وبالتالي حرمان الإرهابيين من الدعم، وتمكين المعتدلين العرب. وفي هذا السيناريو، الهدوء في القدس يلي بشكل طبيعي بعد تحرير بغداد.

كان بوش عازماً على عدم تكرار الأخطاء نفسها التي اتهم بيل كلينتون بارتكابها: الإفراط في تقدير ياسر عرفات، والضغط على إسرائيل لاتخاذ مواقف مقايضة يقبلها الفلسطينيون. ففي النهاية فشلت استراتيجية فريق كلينتون، كما يقول المنتقدون، ولم تبلغ ذروتها في السلام بل في الإحباط وخيبة الأمل. من الواضح أنّ عرفات كان يقوم بدور مزدوج، فيثرثر عن أغصان الزيتون فيما يحضّر طوال الوقت لاستغلال نفوذه في الشارع.

لقد تدخّل كلينتون وبذل أفضل ما بوسعه ولم ينجح. كانت خطة بوش التراجع والسماح لإسرائيل بأن تفعل ما عليها لحماية نفسها. المأزق في الشرق الأوسط هو أنّ اتباع نهج مناقض للذي اتبعه كلينتون مصيره الفشل التام. فقد فسّر العرب موقف بوش بأنّه غير مبالٍ، وأنّ دعمة غير المشروط لأرييل شارون موقف عدائي. وبدلاً من أن يؤدّي ذلك إلى إكراه الفلسطينيين على الاعتدال، فإنّهم تحوّلوا أكثر نحو التطرّف، وتراجع النفوذ الأميركي. ومن الصعب رؤية فائدة ذلك بالنسبة إلينا أو لإسرائيل.

في منتصف الفترة الثانية، بدّل فريق بوش اتجاهه محاولاً تصحيح الضرر الذي أحدثه. وأمضت وزيرة الخارجية رايس مزيداً من الوقت في الشرق الأوسط في محاولة فرض النظام على الأحداث. لكن المشكلة أنّه كلما انهارت عملية السلام، ازدادت صعوبة البداية ثانية. فالدبلوماسية ليست مفتاح نور يمكن إضاءته وإطفاؤه، بل تتطلّب تياراً منتظماً من الاتصالات والمباحثات والاستقصاءات والتجارب. وإذا ما قوطع لا بدّ من حدث مثير يعيد إطلاق الزخم باتجاه السلام، وبخلاف ذلك فإنّ كل طرف سيعدّ للمستقبل دون سلام. ويعني ذلك بالنسبة إلى الإسرائيليين استخدام القوة لمنع الهجمات وردعها والردّ عليها. أما بالنسبة إلى الفلسطينيين، فإنّه يعني القتال فيما بينهم على قيادة الكفاح ثم توجيه الكفاح ضدّ إسرائيل. ويعني بالنسبة إلى القادة العرب زيادة المشاعر المعادية لإسرائيل وأميركا لدى مواطنيهم؛ مما يطيح بالآمال بالاستقرار.

بداية الحكمة في الشرق الأوسط أن تفهم أنّ كيفية الفشل مهمّة إذا لم تحقّق النجاح. فثمة اختلاف صارخ بين شرق أوسط يقرّ فيه باحتمال التوصّل إلى سلام،

وشرق أوسط تتلاشى فيه الآمال. في الحالة الأولى ينظر إلى الذين يسعون إلى التسوية باهتمام على الأقل؛ أما في الثانية، فإنّ المحاربين فقط هم الذين يقودون الساحة.

أنت لا تملك سلطة اتخاذ القرار عن القادة العرب والإسرائيليين بطبيعة الحال. وثمة احتمالات كبيرة بأن تستمرّ بعض أشكال العنف بصرف النظر عن المهارة التي تظهرها. غير أن أمامك فرصة استعادة سمعة أميركا كوسيط نزيه وبلد يهتمّ بحياة جميع من في المنطقة ورفاههم. وذلك موقف أفضل من موقفنا اليوم.

في أثناء حملتك الانتخابية، أوضحت صراحة التزامك بحقّ إسرائيل في الوجود ضمن حدود آمنة، وحقّها في الدفاع عن نفسها ضدّ كل التهديدات. وامتدحت إسرائيل باعتبارها الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، وأشرت إليها بأنّها حليف استراتيجي في محاربة الإرهاب. وقلت إنّ إسرائيل وأميركا تتشاركان القيم نفسها، وذكرت زياراتك للأماكن المقدّسة في القدس وحولها. وتعهّدت بأن تقف أميركا إلى جانب إسرائيل ما دامت الشمس تشرق.

كل ذلك جيد، فقد قلت الشيء نفسه تقريباً وعنيته. لكن اعلم أنّ كل كلمة مما قلت سُمعت في الشرق الأوسط بوضوح كما في أميركا. وصرف المعلّقون العرب النظر عنك بالفعل بأنّك سجين آخر لما يسمّونه "اللوبي الإسرائيلي". كما أنّ وعودك لم تضمن لك ثقة إسرائيل أو أكثر مؤيّديها صراحة. وستراقب عن كثب لمعرفة إذا ما كنت تتحدّث كرئيس بشكل مختلف عما تتحدّث كمرشّح.

لضمان التواصل الجيد عليك المحافظة على الحوار مع قادة الطائفة اليهودية الأميركية. لا يمكنك أن تجتمع مع كل منهم على حدة، لذا احرص على الدعوة بشكل منتظم إلى مؤتمر كل شهرين؛ أو بوتيرة أسرع إذا اقتضت الأحداث ذلك. فكّر في ذلك كضمان سياسي. ستتقلّص حاجة الأشخاص الذين انتقدوك بصورة مباشرة إلى انتقادك بصورة غير مباشرة، وقد يجد من يرفعون الهاتف عازمين على إلقاء المحاضرات عليك أنفسهم غاضبين من تعليقات زملائهم القادة، وبأنّ يوبّخ كل منهم الآخر بدلاً من ذلك.

يجب بالطبع أن تصحب كل دعوة لقادة اليهود دعوة لممثّلي العرب الأميركيين. لن يؤدّي أي من هذه اللقاءات إلى المكافئ السياسي للماء الرائق والمراعي الخضراء. مع ذلك، يجدر بك الحرص على هذه الاتصالات لأنّها ستظهر للجميع أنك تتفهّم عمق مشاعرهم.

إنّ متابعة السلام تتطلّب شريكاً وخطة على السواء. والأول أكثر أهمية من الثانية، لأنّ الخطة لن تعدو أن تكون أكثر من قطعة ورق بدون شريك. لم يكن ياسر عرفات محاوراً مثالياً، لكن كان بوسعه تمثيل الشعب الفلسطيني على الأقل. كان يعرف كيف يلجم الفئوية ويقلّل من العنف بين الفلسطينيين. وقد رفع من شأن قضيّته الوطنية لتشغل البند الأول في جدول الأعمال العربي دون الاعتماد على الحماسة الدينية. وكان بوسعه صنع السلام لو تجرّأ على ذلك، لكنّه آثر ألاّ يجرؤ.

اليوم لا توجد شخصية مماثلة للتفاوض معها. الرئيس الفلسطيني محمود عباس من دعاة التسوية الشجعان، لكنّه يفتقر إلى سحر عرفات السياسي. للتفاوض عن شعب ما، يجب أن يمتلك القائد الشرعية والقدرة على احترام الالتزامات. وعلى الرغم من أنّ عباس منتخب كما ينبغي، فإنّه لا يستطيع التحدّث باسم حماس، ولم يظهر أيضاً القدرة على السيطرة على الفئات المتشدّدة داخل حزبه. لقد أصبحت الحركة الفلسطينية تشبه نظاماً شمسياً فقد نجمه؛ ليس هناك جاذبية، بل اصطدامات فحسب؛ الاصطدام بين الديني (حماس) والعلماني (فتح عباس). وللمنفيين الفلسطينيين جداول أعمال مختلفة عن جداول أعمال الشعب المقيم داخل أراضي السلطة الفلسطينية، في حين أنّ غزة والضفة الغربية تشبهان بلدين صغيرين منفصلين، وكلاهما يفتقر إلى الأداء الجيد.

في غضون ذلك، انهار جهاز عرفات الأمني المعقّد، المصمّم للحؤول دون أن يراكم أحد المرؤوسين قوة كبيرة، إذ تتقاتل الفئات المختلفة فيما بينها، وتجوب العصابات المسلّحة الأحياء. وسط هذا الالتباس، تطوّرت ثقافة فرعية تمجّد التفجيرات الانتحارية. ويختار الشبان صوراً فوتوغرافية لهم يأملون أن تعلّق ذات يوم على الجدران عندما يستشهدون. ويتحدّث بعض الآباء صراحة، وأحياناً بحماسة، عن التضحية بأبنائهم، أقل

مما يتحدّثون عن التضحية بأنفسهم. وذلك مشهد كئيب ومحزن.

أما الإسرائيليون فإنّهم تخلّوا تقريباً عن المفاوضات الجادّة لأنّهم لا يؤمنون بأنّ الفلسطينيين الذين يريدون السلام حقاً قادرون على التغلّب على الذين لا يوافقون على الشروط التي تقبلها إسرائيل، أو يريدون التغلّب عليهم. تحوّلت إسرائيل، تحت قيادة شارون، إلى التدابير الأحادية؛ أي الانسحاب من غزة، وبناء الجدار الأمني، واستهداف المسؤولين عن الهجمات. ويفتقر خلفاء شارون، المثقلون بالضعف السياسي، إلى الاتجاه الواضح. لا يزال معظم الإسرائيليين راغبين في السلام، ولا يرون بديلاً له قابلاً للحياة، وسيدعمون التدابير التي تشجّعه؛ لكنّهم فقدوا الإحساس بالجرأة فيما يتعلّق بكيفية تحقيقه. إنّهم مثل المسافرين، الذين وصلوا قبل بلوغهم مقصدهم، إلى نهر لا يستطيعون الالتفاف حوله أو عبوره. وهم بحاجة إلى ظهور شخص بينهم يفرق الماء، لكن لا يوجد أحد في الوقت الحالي.

أدّت الحرب بين إسرائيل ولبنان في صيف 2006 إلى سقوط أكثر من ألف ومئتي قتيل، وتسبّبت بأضرار تزيد على ملياري دولار، وعمّقت الغضب العربي تجاه إسرائيل. وأحيت أيضاً ذكريات الغزو السابق.

في سنة 1982، هاجمت إسرائيل لبنان بغية طرد منظمة التحرير الفلسطينية وإقامة حكومة في بيروت توقّع معها معاهدة سلام وتصبح - وفقاً لتعبير أرييل شارون - "جزءاً من العالم الحرّ". ولهذه الغاية تحالفت مع ميليشيا مسيحية نظمها مؤسسها على غرار شبيبة هتلر النازية. كان الغزو نفسه وحشياً، فقتل آلاف من المدنيين اللبنانيين وجرح عشرات الآلاف أو أجبروا على النزوح. وبعد فترة من القتال الشديد، نجحت إسرائيل في إخراج قيادة منظمة التحرير الفلسطينية لكنّها فشلت في تحويل السياسة اللبنانية، بل أصبحت أشدّ تعقيداً ما دفع إلى نشر قوات متعدّدة الجنسيات تضمّ قوات أميركية. وفي إحدى المراحل، فوّض الرئيس ريغان السفن الحربية الأميركية بقصف مواقع المسلمين دعماً للجيش الوطني اللبناني العاجز. وأظهرت وسائل الإعلام في العالم العربي قذائف كتب عليها "صنع في أميركا" تقتل المسلمين لمصلحة الحكومة المسيحية المتحالفة مع

إسرائيل الغازية. وفي مراحل لاحقة، قام الجنود الإسرائيليون بالحراسة فيما تسلّلت ميليشيا مسيحية إلى مخيّمين للاجئين في بيروت وارتكبت مجزرة في حقّ المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين.

وكإثبات آخر على أنّ النوايا نادراً ما تتوافق مع النتائج في الشرق الأوسط، استحدث الإسرائيليون أيضاً عدوّاً جديداً دونما حاجة على حدودهم الشمالية. لم يكن اللبنانيون الشيعة، الذين لم يكونوا على وفاق مع منظمة التحرير الفلسطينية على العموم، الهدف المقصود للغزو الإسرائيلي. مع ذلك فإنّهم أصبحوا ضحية العنف لأنّهم يعيشون في مسار الغزو ويفتقرون إلى الموارد اللازمة للفرار. وقد تفجّر الغضب الشيعي في حركة سياسية فتية، حزب الله، أنشأت ميليشيا لمقاومة الاحتلال الإسرائيلي اللاحق. كان حزب الله مخلصاً ومنضبطاً، وذا روابط وثيقة بأتباع طائفته في إيران، فنظّم صفوفه لتقديم الخدمات الاجتماعية ومنح صوتاً للشيعة الذين كانوا عالقين منذ مدة طويلة في أسفل درجات السياسة والمجتمع اللبناني. وعندما انسحبت القوات الإسرائيلية في سنة 2000، طوعاً، ادّعى حزب الله الفضل في إجبارهم على الخروج.

لبنان أرض للناجين الذين لم يكن بقاؤهم مضموناً البتة. إنّه صغير، بحجم كونتيكت تقريباً، هو ذو شعب منقسم وفقاً للدين والعائلة والإيديولوجية السياسية والمكانة الاقتصادية. المسيحيون منقسمون في ثلاثة اتجاهات على الأقل، فيما يضمّ المسلمون السنّة والشيعة والدروز، والأخيرون طائفة يبلغ عمرها ألف سنة تؤمن بالتقمّص الفوري وتبجّل النبي شعيب.

شاهدت كوزيرة للخارجية ميراث الحرب الأهلية اللبنانية التي عصفت بالبلد في السبعينيات والثمانينيات؛ بل إنّ أجزاء من بيروت كانت لا تزال مخرّبة عندما زرتها في سنة 1997. سار موكبنا الصغير عبر شوارع المدينة - كان حرّاسنا متوتّرين وأصابعهم على الزناد - إلى السفارة الأميركية القائمة على ربوة محاطة بنقاط التفتيش وعرض رهيب للأسلحة الثقيلة. انتهت الحرب الأهلية لأنّ القوات السورية تدخّلت لإنهائها؛ ثم تجاهلت الخروج. كان الرئيس السوري حافظ الأسد يزعم أنّ لبنان تابع لبلده. وقد خضع

السياسيون اللبنانيون طوال التسعينيات إلى ضغوط شديدة لتنفيذ ما يطلبه الأسد. وكان تدخّله الدائم يعني أنّه عندما توجّهت إلى موعدي المقرّر مع رئيس الوزراء اللبناني، رفيق الحريري، شعرت وكأنني فتاة ذاهبة إلى موعد مع صبي يرفضه والداي. وكان علي أنا والحريري أن نخرج إلى الشرفة، بعيداً عن مدى أجهزة التنصّت السورية؛ حسبما أملنا. أبلغت رئيس الوزراء بأنّنا ندعم السيادة اللبنانية، وسرّ بالموافقة على طلبه - بعد فترة وجيزة - على رفع حظر سفر الأميركيين إلى بلده.

كان الحريري المجتهد رجل أعمال ثرياً أصبح يعرف باسم "السيد لبنان" لأنّه لم يسمح لأحد بالتآمّر عليه. وفي شباط/فبراير 2005 أصبح يعرف بالشهيد، بعد أن قُتل بسيارة متفجّرة قد يكون عملاء سوريا من زرعها وقد لا يكونون. كانت الخلافات الفئوية داخل لبنان مكبوتة ما دامت سوريا تسيطر عليه. وقد أجبر الاضطراب الذي نتج عن مقتل الحريري دمشق على سحب قواتها؛ وتلك أخبار طيّبة، لكنّها أثارت أسئلة جديدة أيضاً، لأنّ لبنان لم يجد وصفة بعد للوصول إلى الاستقرار الاجتماعي والسياسي.

اليوم يشهد البلد انقساماً خطيراً ثانية. يوجد حزب الله وحلفاؤه في جانب، وفي الجانب الآخر ائتلاف يضمّ السنّة والدروز ومعظم المسيحيين. يميل الدخلاء إلى الافتراض بأنّ لبنان منحاز بطرق تتوافق مع إحساسهم بالخطأ والصواب. ربما تسهل الأمور عليك كرئيس لو كان أحد الجانبين في لبنان يمتلك كل الفضائل. لكن العديدين ممن نربطهم بالاعتدال السياسي لديهم سمعة تتسم بالفساد. أما حزب الله، الذي نربطه محقين بالإرهاب، فإنّ سمعته نزيهة نسبياً. ويوجد الانقسام نفسه بين الفلسطينيين، حيث خاضت حماس (إرهابية أيضاً) حملتها الانتخابية بناء على برنامج للإصلاح السياسي في حين بدّدت فتح الكثير من الفرص التي منحت لها. طالما قدّم الأميركيون التزاماً لفظياً بالحكم الصالح في الشرق الأوسط، في حين قدّموا المال، لأسباب سياسية، إلى الذين لا يمارسونه. إذا أردنا ألاّ نعتبر منافقين، فإنّ علينا العمل بجدّ لتحديد المعتدلين (وهناك بعضهم) الذين يهتمّون بمساعدة مواطنيهم أكثر مما يهتمّون بإغناء أنفسهم. وعلينا أيضاً التوقّف، عند بحث المجموعات السياسية العربية، عن المساواة بين "العلماني"

و"المعتدل". فتلك صورة نمطية، وغالباً ما لا تكون دقيقة على غرار معظم الصور النمطية. فلا يهم، بالنسبة إلى صانع السياسة، لماذا يؤمن شخص ما بشيء ما بقدر أهمية ما يؤمن به. ويمكن التعبير عن الحجّة المؤيّدة للتسوية العربية الإسرائيلية بعبارات دينية لا تقل قوة عن العبارات السياسية، ومن المرجّح أن يبرز خطاب الحرب على لسان الوطني بقدر ما يبرز ممن لا يدين بالولاء إلا لله.

انتهت حرب 2006 بنشر قوة موسّعة من الأمم المتحدة لحفظ السلام على طول الحدود بين إسرائيل ولبنان. ودعا مجلس الأمن أيضاً الحكومة اللبنانية إلى نزع سلاح ميليشيا حزب الله، لكنّها تفتقر إلى القدرة على القيام بذلك. ربما تكون الحدود هادئة الآن بسبب وجود قوات الأمم المتحدة، لكن بغياب أي تغيير سياسي، فإنّ ثمة احتمالاً كبيراً لوقوع جولات جديدة أوسع من القتال. وكما هي الحال دائماً في الشرق الأوسط، يمكن تعريف السلام بأنّه فترة من الهدوء بين حربين.

الدولة اليهودية قائمة منذ فترة وجيزة في تاريخ المنطقة؛ مجرّد ستين سنة. وتقوم شرعيتها على ثلاث دعائم: الأولى دينية (حقّ اليهود بدولة في وطنهم التاريخي)، والثانية أخلاقية (المحرقة)، والثالثة قانونية (اعتراف الأمم المتحدة).

تقوم رؤية غالبية العرب والإيرانيين على أنّ ما وعد به الله إبراهيم لا يبرّر مطالبة إسرائيل بأرض عربية أو إسلامية. والقرآن يكرّم ابن إبراهيم الأول، إسماعيل (الجدّ الأعلى للعرب) بقدر ما يكرّم ابنه الثاني، إسحاق، الذي أصبح المتحدّرون منه أسباط إسرائيل. ويكرّر القرآن الإشارة أيضاً إلى حادثة العجل الذهبي، التي توثّق عدم التزام اليهود بميثاقهم مع الله. أما بالنسبة إلى المحرقة، فقد أشار العرب منذ مدة طويلة إلى أنّ الأوروبيين المسيحيين هم الذين ارتكبوها. وسألوا أين العدالة في طرد العرب للتكفير عن الأعمال الوحشية الأوروبية؟ وهم يرون أنّ إسرائيل اكتسبت اعترافاً دولياً بسبب محاباة الغرب الإمبريالي. وهكذا فإنّ كثيراً من العرب لا يقبلون الشرعية الأخلاقية لإسرائيل، ولا يوافقون على إمكانية إيجاد طريقة عادلة لكي يعيش الإسرائيليون والفلسطينيون معاً. وذلك خطر دائم لإسرائيل، مع أنّ معظم المجموعات العربية، بما فيها منظمة التحرير

الفلسطينية، قالت إنّها تقبل بحقّ إسرائيل في الوجود؛ كمسألة قانونية وعملية.

على الرغم من أن إسرائيل أقوى من جيرانها بكثير الآن، فإنّ التجربة تحذّر من أنّ مثل هذه العلاقات تتطوّر. من الاحتمالات المثيرة للقلق أنّ الدول العربية ستستخدم شبح إيران القوية للحصول على مزيد من الأسلحة المتقدّمة. وإذا كانت الولايات المتحدة تتوخّى العناية فيما تبيعه، فإنّ الآخرين (بمن فيهم روسيا والصين وحتى فرنسا) قد يكونون أقل تمييزاً. كما أنّ عدد الفلسطينيين بين نهر الأردن والبحر المتوسّط يرتفع بسرعة أكبر بكثير من ارتفاع أعداد اليهود. وإذا لم تثبّت الحدود الدائمة، فقد تجد إسرائيل نفسها مكتسحة.

إذا استنتج الإسرائيليون من خيباتهم السابقة أنّ حلم السلام قد مات بالفعل، فقد يحاولون أن يفرضوا شروطهم على التعايش بقوة أشدّ. وقد أسرّ لي بنيامين نتنياهو، في أحد اجتماعاتنا المبكّرة، عندما كان كل منا في منصبه، أنّ "الإسرائيليين يعرفون أنّ غياب السلام قد يدفعهم إلى القتال. لكنّهم يعتقدون بأنّهم سيقاتلون على أي حال وأنّهم يفضّلون قتال سلطة فلسطينية ضعيفة على قتال دولة فلسطينية أقوى تحظى باعتراف دولي". مع أنّ آراء نتنياهو ربما اعتراها بعض الاعتدال بعد ذلك، فإنّ لديه أفكاراً غير واقعية البتة بشأن الترتيبات التي قد يقبل بها الفلسطينيون. لقد كان يرى عملية السلام بمثابة شِرك، لأنّها تؤدّي إلى تنازلات في الأرض والأمن تضعف الميزة العسكرية الإسرائيلية.

هذا النمط من التفكير خطير على إسرائيل لأنّه يقود إلى الاستنتاج بأنّ الأمن لا يأتي إلاّ عبر عرض التشدّد العسكري والاقتصادي والدبلوماسي. وتقوم هذه النظرية على ما يبدو على أنّه يمكن ترهيب الفلسطينيين لدفعهم إلى التخلّي عن أهدافهم السياسية. لن يحدث ذلك البتة. وإذا ما تخلّى الإسرائيليون عن آمالهم بالسلام، فسيقلّ أصدقاؤهم مع الوقت ويكثر أعداؤهم. وليس هذا الطريق الذي يريدون سلوكه.

ربما يثبت أنّ من المستحيل إنهاء الاختلاف بين المواقف العربية والإسرائيلية، لكن يمكن التضييق فيما بينها، ولن يُخسر الكثير في محاولة القيام بذلك. إنّ القول بأنّ عملية

السلام أضعفت إسرائيل ما هو إلاّ لغو وثرثرة. هل تكون إسرائيل أكثر أمناً لو استمرّت في احتلال سيناء، أو استمرّت حالة الحرب بينها وبين الأردن؟ وهل تكون بمأمن أكثر لو بقيت قواتها في رام الله، أو لو لم يُعرض على الفلسطينيين سبيل سلمي إلى الدولة؟ هل كان ضعف أمنها لو أنّها بدلاً من الانسحاب بصورة أحادية من غزة، فعلت ذلك كجزء من مفاوضات يحسب لمصلحة الفلسطينيين المعتدلين؟

يدعو قرار مجلس الأمن الدولي رقم 242، الذي اعتُمد في أعقاب انتصار إسرائيل في حرب 1967، كل الدول في المنطقة إلى العيش بسلام ضمن حدود آمنة ومعترف بها وإلى انسحاب إسرائيل من أراضٍ احتلّت في الحرب*. وقد وضع هذا القرار، الذي رفضه العرب في البداية، مبدأ الأرض مقابل السلام.

لا عجب أنّ إسرائيل شدّدت منذ ذلك الحين على النصّ الذي يذكر الحدود الآمنة؛ وركّز العرب على عودة الأرض. وتقول إسرائيل بأنّ الانسحاب مطلوب من بعض الأراضي المحتلة لا كلها. ويقول العرب بأنّ النصّ يطالب بانسحاب كامل.

أكّد القرار أيضاً على ضرورة التوصّل إلى "تسوية عادلة لمشكلة اللاجئين"، دون أن يحدّد ماهيّتها. ويقول الفلسطينيون إنّ القانون الدولي يمنحهم "حقّ العودة" إلى ديارهم التي كانوا يقيمون فيها قبل حربي 1948 و1967. وينكر الإسرائيليون ذلك الادّعاء، الذي إذا قبلوا به، يشكّك في شرعية أعمالهم السابقة، ويحرم اليهود، إذا ما نفّذ، من وضعية الغالبية ضمن إسرائيل.

إنّ وجهات النظر المتعارضة تجعل من الصعب، من الناحية الدبلوماسية، حصر النقاشات بالمستقبل، حيث يمكن أن يكسب تعداد المصالح المشتركة. فالماضي يملي على الإسرائيليين عدم الثقة في حسن نية الآخرين، ويقاتل العرب لاسترجاع ما يشعرون بأنّه أخذ منهم، مثلما فعل صلاح الدين في استرجاع القدس من الصليبيين.

يخشى الإسرائيليون من أنّهم سيعيدون الأرض مقابل وعد بالسلام ليجدوا نفسهم محاطين بالمقاومة والإرهاب. وكما يحذّر المزمور، "أنعم من الزبدة فمه، وقلبه قتّال".

ويتردّد الفلسطينيون، فتح وحماس على السواء، في الإذعان للسيادة الإسرائيلية

فوق أي فدان مما يعتبرونه أرض العرب، أو التوقيع على تنازل عن حقوق العائلات في العودة إلى بيوتها الأصلية. بل إنّ احتمال أن يصبح ياسر عرفات جورج واشنطن الفلسطيني لم يقنعه باتخاذ هذه الخطوات، وخشي بدلاً من ذلك أن ينظر إليه كخائن مثل يهوذا الإسخريوطي أو يغتال مثل أنور السادات.

في الأيام الأخيرة من رئاسة كلينتون، بدا أنّ المفاوضين الإسرائيليين والفلسطينيين اقتربوا من الاتفاق بشأن كل القضايا، بما في ذلك تقسيم القدس، والترتيبات الحدودية، وإعادة تعريف حقّ العودة. غير أنّ الاقتراب في الظاهر لا يعني أنّ النجاح قابل للتحقيق، بل أنّ من الممكن الاقتراب فحسب.

الاعتراف بذلك يخالف تفاؤلي المعتاد، لكن لا بدّ من خيال جامح لتصوّر قبول أي فلسطيني باتفاق يعرض أقلّ مما رفضه عرفات؛ أو تصوّر أي قائد إسرائيلي يقبل أي اتفاق يقدّم المزيد.

من المفهوم أنّ ائتلاف الفوضى الفلسطينية والمخاوف الإسرائيلية والإحباطات العربية سينتج مثل هذا اليأس من أن يرى كل جانب حسنات في التسوية والسلام؛ دون حاجة إلى الدفع والوكز من الولايات المتحدة. ومن المحتمل أيضاً أن يعود عرفات إلى الأرض مثل هاري بوتر. لقد تعلّمنا في الشرق الأوسط أنّ الضعيف يخشى التسوية كثيراً، وأنّ القوي لا يجد حاجة إليها. وثمة تردّد لدى كل الأطراف في الموافقة على تسوية نهائية لا تصل إلى الأهداف التاريخية. غير أنّ الاتفاق - حتى لو كان مؤلماً الآن - يتيح لكل فريق الحلم بمستقبل يسود فيه. وأي صيغة يفهم منها إقامة حدود دائمة في الأرض المقدّسة وسيادة دائمة على القدس لا يمكن أن تساعد إلاّ في إخماد هذه الأحلام؛ وكم من شخص مات في الشرق الأوسط لكي تعيش الأوهام؟

نصيحتي لك أن تركب دوّامة الأحداث المتعاقبة منذ بداية إدارتك. ربما لا تستطيع دفع الأحداث قدماً، لكنّ المتفرّجين لا يصنعون التاريخ، كما أنّ مساعي السلام يمكن أن ترفع الآمال وتنقذ الأرواح حتى إذا فشلت. يرى بعضهم أنّ بيل كلينتون أخطأ عندما رفع التوقّعات كثيراً؛ وذلك هراء، كما أنّه ليس المشكلة اليوم على أي حال. إنّ مهمّتك هي إلهام

الناس في المنطقة باستئناف التفكير بشأن احتمالات السلام ومقارنة ذلك بالوقائع التي شهدوها في السنوات الماضية.

ثمة أكثر من خيار واحد للبدء. مبادرة السلام العربية، التي أعلن عنها السعوديون في سنة 2002 وأعادت جامعة الدول العربية مباركتها في سنة 2007، ليست جديدة أو محدّدة أو متعاونة بشكل خاص. غير أنّها تعد بدعم عربي شامل للسلام الحقيقي والعلاقات الطبيعية مع إسرائيل. وفي المقابل، على إسرائيل الانسحاب إلى حدود ما قبل 1967، وحلّ مشكلة اللاجئين بطرق غير واضحة. وهي كاقتراح تعكس نقطة الانطلاق العربية، لكنّها تعزل حماس وتتيح فرصة كبيرة لإجراء مباحثات عربية إسرائيلية مباشرة.

ثمة احتمال ثانٍ - يمكن إدراجه في الأول - وهو استئناف المفاوضات بين إسرائيل وسوريا. وذلك أمر منطقي لأنّ سوريا، خلافاً للفلسطينيين، لديها حكومة وطنية قائمة تستطيع إسرائيل التفاوض معها. والمشاكل أسهل لأنّها لا تشمل القدس وحقّ العودة. كما أنّ المفاوضات الإسرائيلية السورية يمكن أن تدفع إيران جانباً وتقرّب سوريا من أشقائها العرب. وربما يكون لذلك نتائج مفيدة في لبنان، حيث ستخسر ميليشيا حزب الله سبب وجودها إذا عقد سلام مع إسرائيل. غير أنّ هناك نقطتي ضعف في هذه الاستراتيجية. أولاً، يجب أن تحمّل سوريا مسؤولية مقتل رفيق الحريري أو تبرّأ منها؛ ولا يمكن التوصّل إلى اتفاق سلام إلى أن تتضح هذه المسألة. ثانياً، من المرجّح ألاّ توقّع سوريا اتفاقاً إلى أن يكون الفلسطينيون مستعدّين للتوقيع أيضاً، لا لأنّ سوريا تهتمّ لأمر الفلسطينيين بل لأنّها تهتمّ بموقف الرأي العام العربي.

عليك التأكيد على منطق السلام أياً يكن النهج الذي تتبعه. فليس أمام العرب واليهود من خيار سوى العيش جنباً إلى جنب. لكن الخيار الذي يملكونه بالفعل هو هل يعيشون بسلام نسبي أو إرهاب دائم؟ لقد اتضحت الشروط العامّة للسلام عبر عمل بيل كلينتون الدؤوب: دولة فلسطينية عاصمتها القدس تضمّ غزة ومعظم الضفة الغربية؛ وتسوية بشأن اللاجئين؛ وإعادة مرتفعات الجولان بمعظمها أو بأكملها؛ وقبول العرب بانتهاء النزاع وحقّ إسرائيل في الوجود ضمن حدود آمنة. إذا لم يكن السلام الرسمي وفقاً لهذه

الخطوط ممكناً قريباً، يبقى الخيار المطروح: هل من المنطقي السعي نحو إيجاد تسوية؟ الجواب هو نعم. هناك خطوات لا ترقى إلى السلام، مثل وقف إطلاق النار، يمكن أن تنشئ شيئاً من الثقة؛ وكما أنّ الدعاء قد يجدي نفعاً حتى إذا لم يُستجب على الفور، فإنّ المحادثات فحسب قد تقود إلى اتجاه مقبول مع الوقت. وقد رأينا البديل على أي حال.

لدي اقتراح قد يكون أقلّ جنوناً عما يبدو عليه. معظم المقالات أو الكتب التي تتحدّث بأمل عن الوضع الإنساني تبرّر إيمانها بقوة التعليم. لكنّ التعليم لا يؤدّي عمله اليوم. فلدنيا مزيد من المدارس وتكنولوجيا معلومات جيدة، ومع ذلك فإنّ التعليم يتراجع أمام الجهل. ومن أسباب تحوّل العديد من البالغين إلى متعصّبين أنّهم يعلّمون كأطفال تاريخاً مشوّهاً بالهواجس الضيّقة. وعندما يكبرون وسط أقرانهم، لا يكون لديهم حافز اجتماعي للتشكيك في ما تعلّموه. بل على العكس، غالباً ما يكون الأشخاص الأكثر تكريماً هم الأكثر تشدّداً في تكرار شعارات المعتقد الثقافي: الأرض أرضنا. والقوة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها هؤلاء الأشخاص. لقد عانينا، وعليهم أن يعانوا أيضاً. والله إلى جانبنا.

إنّ بعد النظر نادر في العالم العربي، لكنّه لا يقتصر عليه. فلدينا ميل في الشرق والغرب إلى البحث عن معلومات تؤكّد افتراضاتنا بدلاً من أن تختبرها. وننشد الذخيرة الخطابية بشدّة تفوق بحثنا عن الحقيقة الموضوعية. المشكلة أكبر من رئاستك، ومع ذلك فإنّني أميل إلى الاعتقاد بأنّ عليك تقديم الحجة من أجل اتباع نهج نقدي أكثر، والشرق الأوسط هو المختبر الواضح. إذا كان بوسع أحمدي نجاد رعاية ندوة عن الأكاذيب المتعلّقة بالمحرقة، يمكنك على الأقل أن تشارك في رعاية حوار مفتوح عن أبعاد الحقيقة في الشرق الأوسط. ولا أقصد بذلك بحثاً حول طاولة مستديرة يشارك فيه علماء مثاليون. إنّني أتصوّر منتدى ترعاه شراكة من مؤسسات غربية وفارسية وعربية وإسرائيلية يعرض مجموعة من الأفكار - غير الخاضعة للرقابة، وبإتاحة مقدار واسع من الوقت للأسئلة والردود - تمتدّ من آراء أكثر الأحزاب محافظة في إسرائيل والقادة الروحيين في المنطقة

بأكملها، إلى الشركات والمهنيين المعنيين وإلى ممثّلين عن المجموعات الراديكالية غير الإرهابية وإليك.

لمَ لا تنتهز الفرصة؟ في النهاية كم منا بذل جهداً صادقاً لفهم الآراء المعارضة - أو حتى الآراء المختلفة - عن الشرق الأوسط؟ لقد ذكرت سابقاً وجهات النظر المتنوّعة التي يسبغها العراقيون والفلسطينيون والإسرائيليون وغيرهم على أفكار الخطأ والصواب في المنطقة. وإذا كان يراد تقليل التباعد فيما بينها، يجب أولاً بذل جهد كبير لاستبعاد الأباطيل الواضحة، وتحدّي الأفكار النمطية، وتفحّص الأسباب التي يفكّر فيها الأشخاص في أثناء ذلك. ربما نعجب بما نسمع، أو نجزع منه، لكنّنا سنحسن معلوماتنا على الأقل.

لذا لنستخدم تكنولوجيا المعلومات الحديثة لكي نضع الكراهية وانعدام الكفاءة والتعصّب الأعمى تحت الأضواء الكاشفة. لنستمع إلى القادة الفلسطينيين وهم يبحثون نوع البلد الذي يريدون إقامته، وربما يشرحون ما الذي كانوا يقومون به إذا أخذنا مليارات الدولارات من المعونة التي تلقّوها بالفعل. لنمكّن الفلسطينيين العاديين من التعلّم مباشرة من رجال الأعمال الأميركيين والأوروبيين والآسيويين عن المساعدة التي ستتوفّر لإنشاء المدارس والمستشفيات والمطارات والموانئ واستحداث فرص العمل في غزة بالإضافة إلى الضفة الغربية؛ متى عادت عملية السلام إلى مسارها وقامت حكومة مسؤولة. لنسمع عائلات من قتلوا نتيجة الإرهاب وغيره من أشكال العنف، وأفكارهم عن كيف يمكن وقف النزاع. لنحلّل المشاكل بحيث يفهم الجميع أن ليس بوسع إسرائيل تحقيق الأمن الدائم بقتل أعدائها وسجنهم ومحاصرتهم، وأن ليس بوسع الفلسطينيين إنشاء حياة قابلة للنجاح لأنفسهم عبر الإرهاب؛ لأنّ الفلسطينيين لا يستسلمون والإسرائيليين لا يخافون. والأهمّ من ذلك، لنسمع من الذين سئموا في كل الأطراف ولا يزالون يؤمنون بوجود طريقة أفضل.

لقد تعرّض غازي حمد، الناطق الرسمي باسم حماس، للسجن سابقاً بسبب أنشطته من قبل إسرائيل والسلطة الفلسطينية على السواء. وهو ليس صديقاً للدولة اليهودية، ومع

ذلك يقول إنّ على الفلسطينيين أن ينظروا إلى أبعد من إسرائيل؛ إلى أنفسهم عند تحديد الملوم على معاناتهم. وسأل لماذا يصرّ بعض زملائه على خرق وقف إطلاق النار وقصف إسرائيل لا لشيء إلاّ لإثارة هجمات مضادّة تقتل المدنيين. وأشار إلى أنّ الفلسطينيين الذين احتفلوا بانسحاب إسرائيل من غزة بدّدوا الفرصة: "لقد أصبنا جميعاً بجرثومة الغباء... عندما تسير في شوارع غزة، لا يمكنك إلاّ أن تغلق عينيك مما تراه هناك: فوضى لا يمكن تصوّرها، وشرطة مهملة، وشبّان يحملون السلاح ويتبخترون، وأسر تتلقّى العزاء بممن فقدت في وسط الطريق. لا أنكر أنّ الاحتلال ارتكب مجازر لا يمكن تبريرها. لكنّني أدعم التفاوض على ما يمكن إصلاحه".

لننظر أيضاً في كلمات الكاتب الإسرائيلي ديفيد غروسمان، الذي قُتل ابنه أوري البالغ عشرين سنة بقذيفة مضادّة للدبابات في أثناء الحرب مع لبنان:

> الغالبية العظمى من المواطنين الإسرائيليين يدركون بالفعل - بعضهم دون حماسة - كيف سيكون حل النزاع. لذا يدرك معظمنا أنّ الأرض ستقسَم، وأنّ دولة فلسطينية ستقام. فلماذا والحال كذلك... لا تزال القيادة السياسية تعكس مواقف المتطرفين لا غالبية الرأي العام؟ في النهاية سيكون موقفنا أفضل بكثير إذا توصلنا إلى ذلك الاتفاق الوطني بمفردنا، قبل أن تجبرنا الظروف على ذلك: الضغط الخارجي أو انتفاضة جديدة أو حرب أخرى. إذا فعلنا ذلك سنوفّر على أنفسنا سنوات من سفك الدماء والهدر. سنوات من غلط رهيب.

إذاً هذه هي الرسالة التي عليك أن تردّدها مراراً وتكراراً من البيت الأبيض: لا يمكن التوصّل إلى أي حلّ في الشرق الأوسط دون تعديل بعض الأحلام على الأقل؛ وما من قوة في العالم تستطيع إيقاف إرهابي قوي العزيمة؛ لكنّ الفتح ليس الحلم الوحيد، والعزيمة ليست حكراً على الإرهابيين. العنف خيار في النهاية، وعندما يكون لدى الناس القدرة على الاختيار، تصبح لديهم القدرة على التغيير.

الفصل الرابع عشر
عزل القاعدة

في الصباح الباكر من كل يوم في السنوات الأربع القادمة، سيدخل مدير الاستخبارات القومية مكتبك حاملاً وثيقة في يده. وسيقدّم لك خيار القراءة أو الاستماع. ستكون الأخبار مقلقة أياً يكن الخيار. تقدّم مخبر "لا تعرف مصداقيّته" طالباً الحصول على المال، وزاعماً أنّه يعرف عن مؤامرة لتفجير طائرات فوق المحيط الأطلسي. وأفاد مصدر ذو ثقة أكبر أنّ خلية للقاعدة، ربما في جنوب آسيا، ربما تعدّ لضربة مذهلة في أوروبا أو الولايات المتحدة، أو ربما إفريقيا، في وقت ما في السنوات الثلاث القادمة. وتلقّت السفارات الأميركية في خمسة بلدان تهديدات موقّعة من منظّمات مختلفة ليس لها وجود؛ وفقاً للسي آي إيه. واعترف أخيراً سجين منذ مدة طويلة في باكستان كاشفاً عن الموقع الدقيق لأسامة بن لادن... يوم الاثنين في الثانية بعد الظهر قبل أربع سنوات. وثمة تقارير بأنّ القاعدة ربما حصلت على أسلحة كيميائية أو صنعتها، لكن يمكن أن تكون مجرّد شائعة أو تفاخر تافه. وتمّ إنشاء موقع على الإنترنت مخصّص لقتلك؛ وقد اختفى الليلة الماضية دون أي معلومات عمن أنشأه. ينتهي الإطلاع، وينهض مدير الاستخبارات القومية عن مقعده، ثم يبتسم ابتسامة فاترة، ويتمنّى لك صباحاً طيّباً. وتشعر بأنّك تريد أن ترمي حجراً.

يفترض رجال استخباراتنا المحترفون الآن - بعد أن تعرّضوا لمحنة التحقيقات المطوّلة بعد 11/9 - أنّ كل ما يبلغونه للرئيس قد يصبح خبراً في النهاية. وذلك لا يمنحهم الحافز لكي يكونوا أكثر تمييزاً بشأن المعلومات التي يشركونك فيها، بل عليهم تقديم المزيد. ونظراً لحذرهم من التعرّض للوم بشأن فهم خطر ما أو استبعاد احتمال، فإنّهم يقدّمون لك كل البيانات التي يجب أن تهتمّ بها، ونادراً ما تكون معلومات استخبارية محدّدة في الوقت الملائم لكي تتصرّف وفقاً لها. وعلى الرغم من المساعي البطولية، فإنّهم لم يحدّدوا بدقّة كافية موقع من تبقى من قادة القاعدة، ولا يعرفون تماماً كيف يتواصل كبار

الإرهابيين معاً. لذا ستبقى دائماً متوتّر الأعصاب، لا تعرف على وجه اليقين كيف تمنع حدوث مأساة، لكنّك تعرف أنّك ستتحمّل المسؤولية أمام الرأي العامّ - وأمام ضميرك - إذا ما حدث الأسوأ.

لقد تلقّى سلفك كثيراً من الانتقاد؛ وهو يستحقّه. غير أنّه منذ الهجمات على البرجين التوأمين والبنتاغون، لم نتعرّض إلى أي كارثة ذات صلة بالإرهاب على الأراضي الأميركية؛ وذلك إنجاز جدير بالإعجاب. وإذا ما تمّت المحافظة على السجلّ حتى يوم التنصيب، فسيبرز بوضوح بين العناصر الإيجابية لميراث السيد بوش. وينعكس هذا السجلّ أيضاً على وطنية الجالية الإسلامية الأميركية، ويقظة رجال الاستخبارات والشرطة، والبيروقراطيات الدبلوماسية والدفاعية التي جهدت للمحافظة على سلامتنا.

ستتحمّل مسؤولية حماية شعبنا من الهجمات الإرهابية منذ أداء اليمين. من العقبات التي قد تواجهك القناعة والرضا. فهناك بعض الأشخاص بيننا ممن يؤمنون بأنّ مفهوم المواجهة العالمية للإرهاب من اختراع كارل روف ليخيف الناخبين ويدفعهم إلى تأييد رئيسهم. وهم يتوقّعون أن يتراجع الصخب بشأن الإرهاب، وربما يختفي، ما إن يبدأ الرئيس الحالي بحزم حقائبه. نرجو ذلك. لقد استغلّت القاعدة أخطاء الإدارة، لكن عندما اجتمعت تلك الفئة معاً، كان جورج دبليو يدير فريقاً لكرة السلة. ولم يبتكر الجمهوريون من المحافظين الجدد الأهواء التي تمنح القاعدة الحياة؛ مع ذلك فإنّ المحافظة على اتقاد تلك المشاعر حاجة ملحّة للقاعدة. وأخشى أن يحاول أعداؤنا، في الأيام الأولى من رئاستك، إظهار أنّهم لا يزالون فاعلين وأنّ القتال لا يزال مستمراً.

في المناظرات الباكرة في حملتك الانتخابية، سئلت عن خطتك لهزيمة القاعدة. لم تكن واثقاً في البداية كيف تجمع كل أفكارك في الخمس وأربعين ثانية المخصّصة لك. لكنّك وجدت ضالّتك عندما استقرّ بك الأمر على شعار من ثلاثة أقسام: "حماية الوطن، ونقل القتال إلى حيث يوجد العدوّ، والانتصار في معركة الأفكار". وقد حان الوقت الآن لتقرن الأقوال بالأفعال.

الدفاع الكامل عن الوطن غير ممكن، لكن الأمن غير الكامل أفضل من انعدام الأمن.

ولا يقدّر بثمن التمكّن من وقف أي هجوم قبل أن يلحق الضرر ويوقع قتلى. لقد أعددت بالفعل تدابير لزيادة تفتيش سفن الحاويات، والمعامل الكيميائية، والمطارات المدنية، ومرافق الأبحاث الصيدلانية. وعليك الآن التوجّه إلى الكونغرس بحثاً عن المال اللازم مقابل هذه المبادرات. من المؤسف أنّنا تعاملنا مع الأمن الداخلي، منذ 11/9، كأنّه ضرب آخر من المشاريع السياسية التي تعود بالمنفعة على المحاسيب. تصرف أموال مكافحة الإرهاب وفقاً لصيغة سياسية توزّع الدولارات في المجتمعات بكل دولة؛ بحيث يكون الأمن أشدّ في الغالب في مطارات المدن الصغيرة من المحاور الرئيسية. كما أنّنا وضعنا لائحة بالأهداف الإرهابية المحتملة والتي تضمّ حديقة حيوانات مدلّلة، ومصنعاً للبوشار، وسوقاً لبيع الأشياء المستعملة، وموكباً سنوياً للبغال.

إنّ أموال الدفاع عن الأمن الداخلي لا يمكن أن تهزم القاعدة وحلفاءها، سواء أكانت موزّعة بشكل ملائم أم لا، ولا يستطيع جيشنا ذلك أيضاً. غير أنّ بوسعهما إبطاءها، ويستطيع الجيش أن يسبّب لها الآلام بل ينبغي عليه ذلك. يستطيع أن يفعل ذلك بتدمير الخلايا الإرهابية ومنع إنشاء ملاذات آمنة يعمل فيها الإرهابيون ويستعدّون. وعلى الرغم من أنّ القاعدة أصيبت بأضرار شديدة عقب 11/9، فإنّها أعادت تكوين نفسها كما شهدنا على طول الحدود بين باكستان وأفغانستان. فقد استغلّت القاعدة الغضب الذي تسبّبت به حرب العراق، واستخدمت الإنترنت لنشر رسالتها، ونظّمت شبكة مرنة من الوحدات ذات العقليات المتماثلة. وصار بوسع المقلّدين أن يجتمعوا في أي مكان معاً، بما في ذلك أوروبا والولايات المتحدة والصومال وأجزاء من شمال إفريقيا، والمناطق التي يسيطر عليها السنّة في العراق، وكلّها أماكن تشكّل ملاذات آمنة.

ازدهرت القاعدة بسبب قدرتها على تصوير نفسها بأنّها مدافعة عن الإسلام ضدّ الصليبيين الإمبرياليين والحكومات العربية غير المنتخبة. وتضخّمت قدراتها الهجومية المحدودة باستعداد المجنّدين للموت وكثرة الأهداف المحتملة. من الناحية التكتيكية، لا تشكّل الحاجة إلى الاستيلاء على قطعة أرض عقبة أمام الشبكة. وهي تستمدّ حيويتها من أسطورتها - القدرة على البقاء على الرغم من سنوات من الضغط من أقوى قوة

عسكرية في العالم - ومن آلة إعلامية تعرف كيف تصل إلى جمهورها.

يستفيد الإرهابيون أيضاً من التأثير المعاكس لحرب العراق على القدرة الإكراهية للجيش الأميركي. فعلى الرغم من أنّ الأعداء المحتملين لا يشكّون في قدرتنا على إلحاق الضرر بهم، فقد تعلّموا استخدام جبروتنا ضدّنا بتصوير الدمار وبثّ الصور في العالم أجمع؛ لاسيما عندما يسقط مدنيون بين الضحايا. وعندما يجتمع هذا التكتيك السياسي مع الهجمات الانتحارية والتخريب واختطاف الرهائن، فإنّه ربما لا يكسب المعارك التقليدية، لكن يمكن أن يعقّد قدرتنا على ادعاء الانتصار في ما بدأ مخطّطونا الدفاعيون يسمّونه "حرباً طويلة".

لذا يجب أن يكون العنصر الثالث في برنامجك، معركة الأفكار، واسطة العقد. فإذا ما كشفت القاعدة وعزلت فستتوقّف عن النموّ. وسيقلّل ذلك من الضغط على عسكريينا، ويجعل الدفاع عن الوطن أكثر سهولة.

في أعقاب 11/9، كانت رسالة الرئيس إلى كل البلدان "إما أن تكونوا معنا وإما ضدنا". ربما كانت هذه الرسالة ملائمة لو استمرّ تحديد الرئيس للعدوّ على حاله. فقد كان توحيد معظم العالم ضدّ من فجّر الأبرياء أمراً سهلاً. لكن لم يكن من الحكمة أن يشوّش الرئيس بعد ذلك القضية بالسماح بتحويل تركيزنا عن القاعدة. وسرعان ما أصبحنا نطالب الآخرين بأكثر بكثير من الوقوف معنا ضدّ بن لادن. صرنا نطالبهم بالتغاضي عن أبو غريب، وقبول غوانتانامو، والتصديق على غزو العراق ورؤيتنا للشرق الأوسط. وفي الوقت نفسه كانت القاعدة تقدّم للعالم خياره؛ بين المسلمين الذين يعانون وأميركا المولعة بالحرب. وقد ترك ذلك العديد من الأشخاص في حيرة من أمرهم. فهم لا يريدون الموافقة على تكتيكات القاعدة، لكنّهم لا يريدون الاقتراب منّا كثيراً. لقد حوّلنا الحلفاء إلى متفرّجين.

كانت الحرب الدينية والشهادة والإرهاب جزءاً من قَدَر الإنسانية طوال التاريخ. غير أنّ الفلسفة التي تحرّك القاعدة تطوّرت في نصف القرن الماضي. ربما تعلن عن نفسها بأنّها عودة إلى الإسلام الحقيقي، لكنّها في الواقع ابتعاد راديكالي عنه. ومع أنّها

معادية للغرب، فقد صبّت جام غضبها على القادة السياسيين للعالم العربي: ناصر والسادات في مصر، والأسد في سوريا، والعائلة المالكة السعودية. وكانت غايتها التحريض على حرب دينية تظهر من خلالها أنّها تدافع عن الإسلام. وهكذا توجّه الضربات إلى الغرب لإثارة ردّنا الأخرق بإعمال الجبروت أكثر من الفكر، فيسقط "شهداء" جدد وتبرز أدلّة جديدة على أنّ الإسلام تحت الحصار. وتراهن على أنّ العديدين سيتطوّعون مقابل كل إرهابي يقتل، ويسعون إلى الثأر بسفك دماء جديدة. هكذا يتضاعف الإرهاب: عندما يزيد كل عمل نقوم به المشكلة سوءاً. هذا هو التكاثر الحسابي الذي يجب علينا أن نوقفه.

لن ننجح في ذلك بالاسترضاء؛ بالتراجع عن تأييدنا إسرائيل، على سبيل المثال، أو الإيحاء بأنّ الإرهاب يمكن تبريره. لا يمكن إعاقة الفكرة بأنّ أميركا والغرب مسؤولان عن الإرهاب. غير أنّ بوسعنا إحداث اختلاف بتسهيل مهمة الإرهابيين في إيجاد مجنّدين جدد أو تصعيبها. فالإرهاب لا يتطوّر بشكل طبيعي مثل قرد داروين، بل يصنع من عجينة الظروف والأحداث الطرية.

تكسب القاعدة كلما تصرّفت الولايات المتحدة بطرق يمكن تصويرها بأنّها عدوانية تجاه الإسلام. وذلك يستتبع أنّ القاعدة ستخسر إذا امتنعنا عن القيام بتلك الأعمال. لكن ذلك لن يكون ممكناً دائماً لأنّ علينا الدفاع عن أنفسنا، ولأنّ قسماً كبيراً من العالم متكيّف مع إساءة تفسير ما نقوم به، ولأنّ أداء القاعدة أفضل ما يكون عندما تقوم بدور المتهِم. من المرجّح أن تصاب بالجزع من مقدار تشويه نواياك الطيّبة. تحلَّ بالصبر. فستتغيّر المفاهيم إذا أظهرت السياسات والكلمات أنّك تستمع إلى الآخرين.

من أصعب الأعمال التي عليك القيام بها إزالة الالتباس الذي أحدثه الرئيس بوش بشأن من نقاتل وما الذي نقاتله. لقد كانت إدارته تميل إلى معاملة كل مجموعة غاضبة من المسلمين كجزء من التهديد الإرهابي نفسه؛ فهم متماثلون في معتقداتهم، ومتساوون في أخطائهم، ويشكّلون خطراً علينا. ربما يناسب ذلك تصوّره الأبيض والأسود للعالم، لكن لا يمكن أن تستند سياسات أقوى بلد في العالم إلى الخيال. لقد تصرّف طيلة

سنوات كما لو أنّ أفراد الطاقم الكريه بأكمله - القاعدة وطالبان وأتباع صدام حسين ورجال الدين في إيران وحزب الله وحماس - متآمرون. الأمر ليس كذلك. فأعضاء هذه المجموعة أعداء لدودون في كثير من الحالات، ولديهم معتقدات دينية غير متوافقة ومصالح متضاربة. وفي غمرة استعجاله لتقسيم العالم إلى "نحن" و"هم"، لم يستفد الرئيس من أنّ "الهم" يضمّ فئات يمكن تأليب بعضها على بعض. وبدلاً معاملتهم ككل واحد، كان يجب علينا القيام بكل ما نستطيع للمحافظة على تناقضاتهم.

لم يكن الرئيس بالطبع الوحيد الذي التبس عليه الأمر. فبعد مرور سبع سنوات على 11/9، لا يوجد توافق بين الأميركيين على العموم بشأن من يسمّونه العدوّ أو حتى على طبيعة النضال الذي انخرطنا فيه. عندما كنت في الحكومة، نصحني خبراء مكافحة الإرهاب بعدم ذكر بن لادن بالاسم، أو ربط القاعدة بالإسلام، أو الإشارة إلى تصدّينا للإرهاب بأنّه حرب؛ مع أنّهم اعتبروا "النضال" و"القتال" و"المعركة" كلمات مقبولة. والفكرة أن نتجنّب التصرّف بما يعود على بن لادن بالنفع بتكبيره وجعله عدوّنا الأعظم، وألاّ نمنح الإرهابيين الشعور بالرضا بمقارنتهم بالجنود الذين يخوضون حرباً.

ومنذ ذلك الحين أثار اهتمامي تقلّب نهج بوش بين تصوير بن لادن بأنّه العدوّ الأول أحياناً، وتجاهله أحياناً أخرى بحيث تمضي شهور دون أن يذكره. في تموز/يوليو 2005، قرّرت وزارة الدفاع أنّ فكرة "الحرب العالمية" تجاوزت غرضها وأنّنا في الواقع منخرطون في "نضال عالمي ضدّ التطرّف العنيف". في ذلك الوقت، أوضح رئيس هيئة رؤساء الأركان المشتركة أنّك "إذا أسميتها حرباً فإنّك تفكّر بأنّ الجنود النظاميين هم الحلّ". أمضت وسائل الإعلام عدة أيام وهي تحلّل هذا التطوّر المحنّك في تفكير الإدارة؛ وفي النهاية رفض البيت الأبيض رأي العسكريين وأعلن أنّنا نخوض حرباً في الواقع. والحادثة بأكملها مثال كلاسيكي على الخبرة مقابل السياسة؛ حيث تربح السياسة.

يجدر تذكّر أنّ الولايات المتحدة أصابت نجاحاً محدوداً عندما أعلنت الحرب على أسماء؛ مثل الإرهاب أو الفقر أو المخدّرات أو المرض أو التضخّم. إنّنا نستخدم مثل هذه الصيغ كأداة لحشد التأييد، لا لكي تؤخذ بمعناها الحرفي. وإذا كنّا جادّين بشأن هزيمة

القاعدة، فإنّ علينا أن نكون أكثر دقّة.

عليك كرئيس أن تكون واضحاً بأنّ عدوّنا ليس الإسلام أو أيّاً من فروعه. لا خطر علينا من أناس يختلفون معنا بشأن السياسة العالمية فحسب، ولا من أناس يتقاتلون في بلدهم لأهداف وطنية أو دينية. ربما لا نتفق مع الرجال الذين يعاملون النساء بشكل مختلف عن معاملتنا لهنّ في الغرب، لكنّ ذلك لا يجعلهم أعداءنا. الأعداء الذين يجب أن نقاتلهم هم الأشخاص الذين هاجمونا في 11/9 أو أصبحوا منذ ذلك الحين حلفاء نشيطين للذين هاجمونا. ليس عدوّنا الإرهاب الإسلامي؛ عليك التأكيد على ذلك في كل فرصة، لأنّ الإرهاب ليس ملازماً للإسلام؛ عدوّنا هو عدوّ الإسلام أيضاً.

إنّ هذا التمييز مهم لأنّ القاعدة تفتقر إلى جاذبيّتها إذا ما فصلت عن ارتباطها بالقضايا التي تهمّ المسلمين، مثل القضية الفلسطينية، وحقوق الإنسان، وحرية التعبير السياسي، والعدالة الاجتماعية واحترام دينهم؛ وكلّها يمكن أن يسعى إليها خصوم القاعدة بفعّالية أكبر ونفاق أقلّ مما يسعى إليها مؤيّدوها.

غالباً ما يُلحق المتعصّبون الضرر بأنفسهم عن طريق التمادي، وقد كرّرت القاعدة فعل ذلك. فمع أنّ هدفها هو تعبئة المسلمين، فإنّها أدانت كل الموجودين تقريباً في موقع السلطة في العالم الإسلامي، بمن في ذلك حكومات باكستان والمملكة العربية السعودية ومصر والعراق وسوريا وإيران، وحتى حزب الله وحماس. ونفّذت القاعدة هجمات عديدة أسفرت عن مقتل مدنيين مسلمين غير مسلّحين؛ وهي جرائم يحرّمها القرآن صراحة، بل تثير اشمئزاز حتى المسلمين الذين يشاركون القاعدة أفكارها الاجتماعية المحافظة وكرهها الغرب. وتفتقر القاعدة أيضاً إلى جدول أعمال اقتصادي أو سياسي مفهوم. ويتناقض ذلك مع مجموعات إسلامية متشدّدة تقدّم الخدمات الاجتماعية وانضمّت إلى العملية السياسية في بلدانها أو تحاول الانضمام. ربما يحظى بن لادن بإعجاب بعضهم بسبب هجومه الصريح على السلطات، لكن لا يعني ذلك أنّ العديد من الأشخاص يريدونه أن يدير حياتهم. خلاصة القول إنّنا سنكون أغبياء إذا لم نربح حرب العلاقات العامة - والحرب الحقيقية (أو النضال أو المعركة أو القتال) في نهاية المطاف - ضدّ حفنة

من القتلة الذين يشكّل الإقرار بعد الموت على الإنترنت الوعد الملموس الوحيد الذي يقدّمونه إلى مؤيّديهم.

يلي ذلك أنّ الطريقة الذكية للتصدّي للقاعدة هي القيام بما لم يقم به الرئيس بوش بشكل متسق، أي مهاجمة الشبكة دون هوادة في أقلّ نقاطها منعة. لقد أدين القتلة الذين نفّذوا 11/9 من قبل كل حكومة في بلد ذي غالبية مسلمة، بما في ذلك إيران وحزب الله ومنظمة التحرير الفلسطينية. فما هي رسالتنا؟ القاعدة لا تدافع عن المسلمين، والقاعدة تقتل المسلمين. إنّها لا تمثّل الإسلام، بل تحرّف الإسلام. إنّها لا ترغب في رفع الظلم عن المسلمين، بل ترغب في سجنهم ضمن تصوّرها الفاشي وغير القويم لإرادة الله. لقد حاول الرئيس إثارة المعارضة في وجه القاعدة استناداً إلى رغبتها المعلنة بإعادة الخلافة الإسلامية، لكنّ ذلك ليس موطن الضعف الأبرز للقاعدة. العيب الخلْقي للقاعدة أنّ أدواتها ابتداعيّة ورؤيتها ضيّقتان جداً بحيث تستبعد معظم المسلمين، دون أن نذكر أنفسنا. القاعدة لا تقدّم للعالم خلافة، بل تقدّم له جهنّم.

يجب عليك أن تعيد وضع إطار عمل للاستقرار في الشرق الأوسط الكبير. وهذه المهمّة ملحّة لكن لا يمكن تنفيذها بسرعة، لأنّ الأساس ضعيف جداً. سيحثّك العالمون على تطبيق شتى الصيغ التبسيطية؛ وذلك إغراء عليك مقاومته. من الوهم الاعتقاد بأنّه يمكن تقسيم الشرق الأوسط إلى معتدلين ومتطرّفين، حيث يمثّل الأوائل الخير والأخيرون الشرّ. فثمة مزيد من الأطراف في هذه اللعبة، وتشوب الشوائب زي الجميع، ونحن منهم.

كتبت سابقاً أنّ الحلول العسكرية غير واقعية في المنطقة، لكن لا يزال يبدو أنّ الجميع يستعدّ للقتال. ولذلك فإنّ الوضع الراهن غير مقبول، إذ إنّ منظّم الحرارة مضبوط على العالي. وإذا ما سمحنا بحلّ نزاعات القرن السابع بأسلحة القرن الحادي والعشرين، فإنّنا لن نعمّر طويلاً.

ستشرع في دبلوماسية الشرق الأوسط من منطلق صعب، حيث لا يسمح موقف أميركا الرديء لها بالحديث عن الدعائم الأساسية للأمن مثل القانون وقول الحقيقة وحقوق الإنسان. وستواجه إيران المتجاسرة، وارتفاع التهديد الإرهابي وتكاثر

الانقسامات؛ داخل العراق وبين الفلسطينيين وداخل إسرائيل وبين المسلمين الشيعة والسنّة. ونظراً لأنّ الولايات المتحدة كانت مشغولة أو في موقف غير موات طوال معظم السنوات الثماني الماضية، فربما تجد أنّ موضع كرسي الصدارة قد تغيّر حول طاولة الدبلوماسية، وهو مخصّص للولايات المتحدة منذ مدّة طويلة. وربما تجد أيضاً أنّ غرفة الاجتماعات التي حجزتها نصف فارغة لأنّ الإيرانيين والروس والأوروبيين والسعوديين والمصريين نظّموا اجتماعاتهم في الوقت نفسه. لا تنفر من ذلك. فلا داعي لأن نخاف من جهود الآخرين.

الواقع لن يتغيّر بصرف النظر عمن يتولّى زمام الأمور. فما من أحد يتيح له موقعه أن يملي مستقبل الشرق الأوسط. القوّة شديدة الانتشار. ومن ثم فإنّ الخيار بين المواجهة والتسوية، لكن الناس يعاندون التسوية إلى أن يتوصّلوا إلى عدم وجود خيار آخر لديهم. وستكون مساهمتك تسهيل وصول البلدان والفئات الرئيسية إلى ذلك التفهّم. وعند قيامك بذلك، يجب أن تقرّ أيضاً بأنّ على الولايات المتحدة أن ترضى بأقلّ مما تريد. سيكون في ذلك مخاطرة سياسية بالنسبة إليك، لكن سيكون التراجع عن الأهداف القصوى أشدّ خطراً على الإسرائيليين والعرب والإيرانيين والقادة الآخرين. لذا فإنّ الكثير لا يعتمد على كيفية تكشّف الأحداث بل على طريقة عرضها أيضاً. الكرامة وماء الوجه والاحترام أمور مهمّة في كل منطقة، لكنّها أكثر أهمية في الشرق الأوسط من أي مكان آخر. وعليك كرئيس أن تضمِّن الاتفاقات الغموض الكافي الذي يتيح لمعظم الأطراف ادعاء النصر، والموضوعية الكافية للانتقال نحو الاستقرار. قد يعني ذلك التعايش مع حلول غير كاملة، وعدالة جزئية، وتأجيل بعض القضايا إلى تاريخ لاحق.

لقد استحضر الرئيس بوش صورة للشرق الأوسط كأرض عجائب ديمقراطية يُهزَم فيها الشرّ، ويتقدّم العرب واليهود إلى الانتخابات بقلوب مسرورة وأغمدة فارغة. إنّني أهلّل للصورة لكنّني لا أشهد ذلك على أرض الواقع. ستتشكّل سياسة القوة الشرق الأوسط على المدى القريب إزاء خلفية المصالح الوطنية، والتعصّب الإثني، والحماسة الدينية. وفي هذه البيئة، لن تكون "الحرية" بمعنى الديمقراطية الكلمة الأساسية ذات

الأهمية القصوى، بل "الحريّة" بمعنى الاستقلال؛ حقوق البلدان وشعوبها. وستكون السيادة المبدأ ذا الوزن الراجح.

لنأخذ على سبيل المثال منطق شرق أوسط بعد أربع سنوات من الآن يبدو على الشكل التالي، بفضل مساعيك إلى حدّ ما:

عراق اتحادي أعرج ذو حكومة وطنية صورية، وحكومات إقليمية فاعلة. والجيش العراقي مقسّم على نحو ذلك، مع وجود قوة مركزية في بغداد وثلاثة مكوّنات إقليمية تستوعب الميليشيات السابقة. وقد ارتفع إنتاج النفط الذي توزّع عائداته بشكل متساوٍ. ويسود معظم العراق السلام، على الرغم من اندلاع القتال بين الحين والآخر، لأنّ المجموعات الشبيهة بالقاعدة فقدت رواجها، والبلدان المجاورة تعمل للمحافظة على الهدوء. وتعقد في بغداد اجتماعات منتظمة لمجموعة الاتصال الدبلوماسي، وهي تضمّ ممثّلين عن العراق وإيران وسوريا والأردن وروسيا والمملكة العربية السعودية وتركيا والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي.

إيران التي تحرّرت من عقوبات الأمم المتحدة تكرّر تعهّدها بعدم صنع أسلحة نووية، لكنّها تواصل تخصيب مقدار صغير من اليورانيوم للاستخدام في معامل توليد الطاقة النووية السلمية، وتخضع لتفتيش الوكالة الدولية للطاقة الذرية، وتقيم علاقات وثيقة مع المناطق التي يسيطر عليها الشيعة من العراق لكنّها لم تذكِ العنف الطائفي، ويرجع ذلك إلى حدّ ما إلى كبح جماح الحرس الثوري الإيراني. وتحافظ طهران على روابطها بحزب الله، مع أنّها خفّضت شحنات الأسلحة إليه ولا تحاول زعزعة استقرار الحكومة اللبنانية التي لا تزال هشّة، ولا يزال حزب الله مشاركاً مشاغباً فيها. لم ينجح الرئيس أحمدي نجاد في تأمين إعادة انتخابه لأنّ برنامجه الاقتصادي المعيب خذل ناخبيه. ولا يزال القادة الإيرانيون - وهم الآن مزيج براغماتي من المسؤولين الفاسدين والدينيين - يطلقون على أميركا اسم "الشيطان الأكبر"، لكن بوتيرة منخفضة.

لدى الفلسطينيين حكومة وحدة وطنية مكوّنة من عناصر منفصلة عن حماس وجيل جديد من الإصلاحيين في فتح، بعضهم أطلق سراحه حديثاً من السجون الإسرائيلية.

بعد حملة امتدت سنة من المقاومة غير العنيفة - على نحو تعاليم غاندي ومارتن لوثر كنغ جونيور - بلغ الفلسطينيون عتبة تحقيق ما عجز عن تحقيقه عقد من الإرهاب: إنشاء دولة فلسطينية معترف بها دولياً. وتتواصل المفاوضات مع إسرائيل الأكثر تفاؤلاً، ويبدو أنّ الجانبين عازمان على العمل بنصيحة إسحاق رابين: اسعوا إلى السلام كأنّه لا يوجد إرهاب، وحاربوا الإرهاب كأنّه لا توجد مفاوضات.

اعترف ضابط سوري سابق بجريمة اغتيال رئيس الوزراء اللبناني، وأقسم أنّه تصرّف من تلقاء نفسه. ووجدته محكمة دولية مذنباً وحكمت عليه بالسجن مدى الحياة. انتقلت عائلته التي أصابها الثراء فجأة إلى فرنسا. فُتح الطريق الآن أمام المحادثات، فبدأت سوريا وإسرائيل المفاوضات بشأن مبادلة الأرض بالسلام، مع تفهّم لأنّ الاتفاق النهائي يتوقّف على التوصّل إلى تسوية أيضاً بين إسرائيل والفلسطينيين. ولا تزال قوة الأمم المتحدة تحرس الحدود بين لبنان وإسرائيل.

في غضون ذلك، انتقل القادة في كل أنحاء العالم العربي من الرغبة في استرضاء رجال الدين الرجعيين اجتماعياً والعنيفين سياسياً إلى مطالبتهم بالهدوء أو الخروج. وعلى المستوى الفكري، ثمة منافسة للمطالبة بأحقيّة الماضي. فيشير قادة التيار السائد من مصر إلى قطر إلى قم إلى أنّ الثقافة الإسلامية كانت الأكثر تقدّماً قبل ألف سنة. ويرون بأنّ ذلك العصر الذهبي كان يتميّز بالتعطّش إلى المعرفة عن كل ما خلق الله - التاريخ، والطبّ، والعلوم، والرياضيات، وعلم الفلك، والأدب - وذلك مسعى مناقض لمسعى البن لادنية. فعندما يضرب الإرهابيون باسم محمّد (صلعم)، يستشهد هؤلاء القادة بالسلطات الدينية لإدانة الإرهابيين لا كقتلة فحسب، بل كمجدّفين وغير مؤمنين.

لا يزال هذا الاتجاه متقطّعاً ولم يحصل على الإجماع بعد. يتحدّث بعض القادة عن الحداثة بشجاعة، ويسير بعضهم على البيض. ولا تزال الدعوات إلى الحرب تحثّ الشبّان، حتى وهم يتطلّعون إلى إيجاد مكان في الاقتصاد العالمي. الاختلاف بين 2004 و2012 مثلاً هو اختلاف في الاتجاه. لقد أخذ الإصلاحيون ينظرون حولهم لمعرفة عددهم. وهذا الاتجاه عالمي، يشمل المسلمين في كل قارّة، ويبرز فيه صوت إندونيسيا،

التي تضمّ أكبر غالبية إسلامية في العالم. وترسّخ الرأي بأنّ التفكير التقدّمي ليس خيانة للشريعة الإسلامية بل عودة إليها. كما ساهم نموّ وسائل الإعلام المستقلّة كثيراً في تعرية الكبرياء المنحرفة لعقلية المحاربين باسم الدين. وأخذ الفكر الديني السيئ يتراجع أمام القوة الوحيدة التي تستطيع هزيمته: الفكر الديني الصالح. وبدأت الغالبية الإسلامية تستردّ دينها ممن سرقوه.

في أثناء تقدّم عملية السلام الإقليمية، تراجع التواجد العسكري الأميركي بحدّة في المنطقة، وتقدّمت جهود الإصلاح العربية، وبدأت العديد من المجموعات الإسلامية المتشدّدة بنبذ العنف لتنتظم سياسياً، وأخذت القاعدة بالتلاشي. ومثلما ولّد العمل العسكري الأميركي والإسرائيلي ردّ فعل عنيفاً، فإنّ هجمات القاعدة في المملكة العربية السعودية والأردن وباكستان وسوريا ومصر أفقدت هذه المنظمة مزاعمها الأخلاقية. وتضرّرت الشبكة، التي كانت عصية على الاختراق ذات يوم، من العديد من المتدرّبين السابقين الذين وافقوا على تبادل المعلومات مقابل الحصانة. واستردّت أسوأ المجموعات الإرهابية في الجزائر، الجماعة السلفية للدعوة والقتال، اسمها بعد أن غيّرته إلى القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي في الذكرى الخامسة لهجمات 11/9. بل إنّ قرار تلفزيون الجزيرة عدم بثّ أحدث رسالة مسجّلة لبن لادن لأنّها "عديمة الأهمية الإخبارية" لم يكد يذكر في الأخبار. لم تمت القاعدة، ولا يزال الإرهاب حياً، لكن المدّ انحسر؛ وأصبح الأميركيون أكثر أمناً وكذلك الجميع.

أخيراً، أصبح أعداء الولايات المتحدة يجدون صعوبة كبيرة في إثبات حجّتهم. فحكومتنا تلتزم بمعاهدات جنيف التزاماً تاماً؛ وثمة مبعوث أميركي متفرّغ للسلام في الشرق الأوسط؛ وصدّق مجلس الشيوخ على حظر التجارب النووية؛ وألغى البنتاغون خططاً لتطوير جيل جديد من الأسلحة النووية؛ وتجدّد نشاط أحلافنا؛ كما أنّنا نقود المساعي لمعالجة مشاكل البيئة والطاقة والأوبئة والفقر؛ ويبدو أنّ رئيس الولايات المتحدة، وهو منهك قليلاً لكنّه يتمتّع بالشعبية والاحترام، يتّجه إلى تحقيق فوز كاسح في الانتخابات الرئاسية.

القسم الثالث

الفصل الخامس عشر
فوق اللجّة الهادرة

توحي الوسيلة الأكثر استخداماً في الخطابة السياسية الأميركية - وكتابة المذكّرات - أنّ أمّتنا وصلت إلى مفترق طرق، وأنّ الرئيس المقبل يواجه أكثر القرارات حسماً من أي قرار آخر منذ فالي فورج أو غتيسبيرغ أو غزو النورماندي. إنّ طبيعتنا تدعونا إلى إضفاء الإثارة المشهدية على الحاضر، وادّعاء القدرة على توقّع المستقبل مثل مسافر فروست* في الغابة، واختيار درب من اثنين. والحقيقة أنّ زماننا ليس فريداً جداً، وخياراتنا ليست مميّزة. بدلاً من أن تجد أنّك تسير على درب ضيّق، ستجدّ نفسك، مثل الرؤساء السابقين، تجتاز طريقاً متعدّد التقاطعات، كثير منها غير واضح المعالم، وترجع إلى خريطة يبدو أنّها رسمت في وقت بعيد.

أما بالنسبة إلى الاتجاه، فستواجه ضغوطاً شديدة لكي تحدّد مقصداً واحداً وتلتزم به. وذلك على الرغم من أنّ العديد من الشخصيات السياسية والأكاديمية البارزة حاولت إيضاح رسالة أميركا في القرن الحادي والعشرين. وجمع بعضهم لائحة ببرامج ومؤسسات جديدة يجب أن تقترحها الولايات المتحدة: مثل إصلاح الأمم المتحدة، وحلف شمال الأطلسي العالمي، وخطة مارشال جديدة، وتجديد المؤسّسات المالية الدولية، وإعادة توجيه إذاعة أوروبا الحرّة. هذه المحاولات للإعداد للمستقبل جديرة بالثناء وقد تكون مفيدة لك، لكنّها أيضاً محاولات لاستعادة الماضي بطريقة غريبة.

عندما يقدّم الأميركيون هندسة للقرن الحادي والعشرين، فإنّهم ينصتون إلى أواسط القرن الماضي. إنّنا نحنّ إلى استعادة العالم كما كان عندما كانت أميركا في أوج مجدها: انتصرت في الحرب، وأظهرت قدرة اقتصادية وعسكرية لا مثيل لها، وشرعت ببناء مؤسسات جديدة لتعزيز الازدهار والمحافظة على السلام.

يمكن فهم لماذا تستهوينا مثل هذه الذكرى، ويجب أن يتضح بشكل مماثل لماذا لا تستهوي الآخرين. إذا عدنا إلى سنة 1947، فسنرى اليابان وألمانيا تحت الاحتلال،

وأوروبا الغربية مدمّرة، وأوروبا الشرقية تحت سيطرة الاتحاد السوفياتي، والصين وسط حرب أهلية مستعرة، ومعظم إفريقيا وقسم كبير من آسيا وكثير من العرب يتململون تحت حكم الاستعمار. ربما نرغب في العودة إلى حقبة ترومان وأيزنهاور، لكنّ للعالم أحلاماً أخرى.

إنّ ما يدفعنا إلى الإعجاب بجيل ما بعد الحرب في أميركا هو أنّ قادته لم يكونوا يحنّون إلى الماضي. وخلافاً للرجال المنغلقين والرجعيين الذين أداروا بلدنا بعد الحرب العالمية الأولى، أقرّوا بأنّ العالم تغيّر وأنّ هذه التغيّرات يجب أن تنعكس في سياسات بلدنا. ولم يحاولوا إعادة إنتاج أميركا التي بدأت تخبو، ولم يتوقّعوا أن يقف الآخرون دون حراك. عرفوا أنّ نمط حياتهم تغيّر بفعل دمار الحرب، وصدمة المحرقة، وولادة الحقبة النووية، وارتفاع شبح الشيوعية، وانتشار الأفكار المعدية بشأن الاستقلال والحريّة. رأوا أنّ النظام القديم يجب أن يتراجع أمام شيء جديد. لكن هل كانت لديهم معرفة واضحة بالاتجاه الذي يسلكونه؟ لا، حتماً.

وفقاً لدين أتشيسون، كانت تلك فترة غموض كبير بالنسبة إلى من عاشها:

> لم يكن المستقبل غامضا فحسب، وهو موقف شائع جدا، بل الحاضر ملبدا ايضا. كنا جميعا نواجه صعوبة غير مالوفة في تحديد قدرات من يعيشون على هذا الكوكب معنا ونواياهم. وكان الغموض يلف اهمية الاحداث. كنا نتلمس طريقنا في تفسيرها، واحيانا نعكس توجهاتنا استنادا الى اراء سابقة، ونتردد كثيرا قبل ان نستوعب ما اصبح الآن واضحا.

يذكر ترومان بمحبة لا لأنّ لديه موهبة خاصة في تصوّر المستقبل، بل لأنّه أسبغ سمات قيّمة على عمله كرئيس للسلطة التنفيذية، وهي خصائص كان معظم الرؤساء الأميركيين الجيدين يمتلكونها بدرجات متفاوتة: التفاؤل، والمرونة، والقدرة على التكيّف مع المعلومات الجديدة، والاستعداد لتحمّل المسؤولية، والفراسة في الحكم على الآخرين، والصبر في الإنصات، والقدرة على بثّ روح التعاون بين الأميركيين وبين بلدنا والعالم.

كثير من التحدّيات التي ستواجهها كرئيس لا يمكن الاستعداد لها بإطلاق مؤسسات جديدة أو التقرير مسبقاً بتخصيص مزيد من الأموال لقضية أو أخرى. ستحدث الكوارث

بالتأكيد، سواء تسبّب بها البشر أم الطبيعة، لكن السؤال متى وكيف؟ وستقاس رئاستك بحسن استعدادك وفريقك لما هو غير متوقّع، ومقدار صبرك، وهل تتعلّم باستمرار في أثناء توليك منصبك.

ذكرت سابقاً أنّ الرغبة في مضاهاة شهرة هنري كيسنجر أضرّت ببعض مستشاري الأمن القومي؛ وقد يكون توق الرئيس إلى أن ينقش وجهه على سفح جبل أو على ورقة العشرة دولارات مضرّاً بالقدر نفسه. وقيل عن فرانكلين روزفلت إنّه على الرغم من ثقته الكبيرة بنفسه، فإنّه لم يشعر قطّ "بأنّ السماء أرسلته لتحقيق رسالة إلهية. بل شعر بأنّه منح 'فرصة كبرى' ليفعل شيئاً حيال المشاكل التي تكتنف البلاد".

من البديهي ألاّ يأتي أحد إلى الرئاسة وهو يمتلك مؤهّلات كاملة. ربما لا ترغب في سماع ذلك، لكن من غير المرجّح أن تكون انتصاراتك نهائية بقدر ما ستكون زائلة، ومن المرجّح أن تكون تراكمية لا مثيرة ومذهلة. ربما يعتقد بعضهم أنّك تمتلك قدرات خارقة، لكنّ أعاجيبك - إن كانت موجودة - ستكون من النوع الذي ينمو من مصادر عضوية. وبهذا المعنى، يمكن أن يقارن الرئيس بالبستاني الذي يرعى ويسقي، ويشذّب ويعشّب، ويكافح الحشرات، ويقوم بألف عمل يومي صغير ولديه صورة كبيرة واضحة في ذهنه. يمكنك أن تراقب، وتوجّه، وتستخدم أدوات البستاني بطرق إبداعية، لكن لا يمكنك أن تنتج شيئاً غير موجود بالفعل.

ستتولّى السلطة في وقت فقدت فيه أميركا نفوذها فيما كسبه الآخرون. للمرة الأولى في التاريخ، ثمة حاجة إلى قيادتنا في العالم لكنّ الكثير من الأماكن لا تريدها. ستقاوم أي خطط تضعها لتنظيم العالم؛ وذلك أمر مفهوم. فنظراً للأحداث التي وقعت في الثماني سنوات الماضية، لا يسعنا أن نملي على الآخرين ما يجب أن يفكرّوا به ويشعروا به ويخشوه؛ علينا كبح اندفاعنا إلى التأنيب. ومسؤوليّتك الأولى أقرب إلى الوطن؛ أن تهتمّ بما نفعل وما نمثّل، وما هي المعايير التي نحدّدها لأنفسنا.

الميزة الملازمة للديمقراطية هي قدرتها على تصحيح أخطائها. وما لم يكن هناك شيء يعوق الديمقراطية، فإنّ الناخبين والمشرّعين ووسائل الإعلام والمحاكم ستميل في الاتجاه

الآخر إذا تمادت السلطة التنفيذية كثيراً. ويمكن أن يتمادى هذا الثقل الموازن أيضاً، لكنّه مع الوقت والحس السليم والحظ الجيد يستقرّ عادة في المكان الصحيح.

إذا كنت تريد أن تفي بوعدك بتلميع سمعة أميركا، فستحسن صنيعاً إذا بدأت باقتراح أولي: النجاح يتأتّى من توحيد الأصدقاء وتفرقة الأعداء. ويتطلّب هذا الهدف التشاور الدائم مع شركائنا التاريخيين، واحترام القوى الصاعدة، ومعرفة كيفية مقاربة الثقافات غير المألوفة، والدقة في تحديد من نساند ومن نواجه، والعزيمة في التشارك مع الآخرين لمعالجة مشاكل العالم. ستحتاج مثل، فرانكلين روزفلت، إلى إتقان فنّ التواصل مع الجماهير من كل المشارب، وإظهار التعاطف دون استغلال، وإيضاح الطريق إلى الأمام، ودعوة المستمعين إلى سلوكه. عليك أن تقرّ دون أسى أنّ دورنا في العالم دينامي. لن نحترم البتة إذا كنّا نمسك دائماً بالباب وندعو الآخرين إلى الدخول قبلنا. مع ذلك لا داعي لأن تكون القيادة متغطرسة أو مجلجلة؛ الأفضل أن تكون مقنعاً بهدوء، وشديداً في الحقّ، ومنصفاً.

إنّني أحضّك كرئيس على التحلّي بالثقة لكي تمدّنا بها. لا نشكّ بأنّ للخوف مكاناً. فقبل الحرب العالمية الثانية، لم يكن العالم يخشى هتلر بالقدر الكافي. وفي زماننا الإرهاب والإبادة وانتشار الأسلحة واليأس والتلوّث والمرض كلها أخطار حقيقية، وهي تتطلّب يقظتنا. ويجدر بنا التدقيق في النظر إلى القاعدة وفروعها، إذ عندما يقول الآخرون إنّهم يريدون قتلنا، سنكون حمقى إذا لم نأخذ كلامهم على محمل الجدّ. مع ذلك فإنّنا أفرطنا في الخوف في السنوات الماضية. لقد قيل لنا أن نخاف علّنا نصبح أقلّ وقاية للدستور، وأقلّ مراعاة للقانون الدولي، وأقل احتراماً لحلفائنا، وأقلّ تمحيصاً في البحث عن الحقائق، وأقل تشدّداً في التشكيك بما يبلغنا به قادتنا؛ وكل ذلك لتجنّب الاتهام بأنّنا نساعد أعداءنا. لم يكن ذلك ما قاله فرانكلين روزفلت عن الخوف.

آمل عندما تقف للمرة الأولى خلف خاتم الرئاسة أن تكون أولى أولوياتك استعادة ثقتنا بعضنا ببعض. تحدّث إلينا كراشدين، شاركنا أفكارك، وأبلغنا عن شكوكك، وسهّل علينا معرفة كيف يقود عمل إلى الآخر. دعنا نعرف كيف يمكن أن نقدّم لك المساعدة.

تحدّانا. إنّنا لا نخشى الحقيقة، وسيكون لدينا الاستعداد لتقديم تضحيات أكبر مما نقدّم عادة. لا أعتقد أنّ من المنصف أن يموت جنودنا فيما لا يطلب منّا أكثر من الوقوف في الصف في المطار. ولا نعتقد أنّنا وجدنا على الأرض لكي نقود السيارات الرباعية الدفع، ونتسكّع، ونشاهد التلفاز، ونتناول الطعام المفضّل فحسب. إنّنا نريد أن نفخر ببلدنا ونودّ أن نقوم بواجبنا.

هل تذكر الفكرة المرتبطة ببطرس الأكبر؟ "لا تخشَ التغيير، واسعَ لكي يكون الغد أفضل من اليوم". هذه الغريزة المبتذلة لتحسين الذات هي الأصل في كل المكاسب التي حقّقتها البشرية. وهي مبتذلة لأنّها تترجم إلى كل شيء من لغة من يمارسون حمية لتخفيف الوزن إلى كلام استثارة همم الكشّافة، لكن في عالم تحتفظ به دورات الطبيعة رهينة لديها، لا يوجد شيء ثوري أكثر من الفكرة بأنّنا قادرون كبشر على تحسين حياتنا بشكل كبير، وأنّ ثمة معنى لقدرتنا على الاختيار. ذلك هو الإيمان الذي جلب "سوزان كونستانت"، و"غادسبيد" و"ديسكوفري" إلى جيمس تاون في سنة 1607؛ وهو الوعد الذي اختُبر في بنكر هيل* في سنة 1775؛ والإيمان الذي جلب الأميركيين رغم اختلافهم إلى مراكز الاقتراع من كي وست إلى أشتويولا وأنكوراج للتصويت لك في صبيحة هذا اليوم الانتخابي.

تلقّت لغة الحرية ضربة في السنوات الأخيرة. فقد مجّد القادة الأميركيون أنفسهم، وقرنوا أعمالهم بالمشيئة الإلهية ما أدّى إلى نتائج كارثية. ربما تساعدنا في إيجاد التوازن الصحيح ثانية. وربما تذكّرنا بأنّ العمل العسكري لا يمكنه أن يدفع قضية الحرية قدُماً ما لم تتغيّر العقول بالفعل للاعتراف بأنّ كرامة الفرد تتوقّف على كرامة الجميع. ذكّرنا أيضاً بأنّ أميركا ليس لديها دعوة، مقدّسة أو خلافها، لنشر الديمقراطية في العالم، لكن لدينا التزام بحماية نظامنا الديمقراطي ومدّ يد العون إلى الذين يطلبون مساعدتنا في بناء الديمقراطية التي تمتدّ جذورها عميقاً وتدوم. في سنة 1861، قال أبراهام لنكولن، في احتفال أقيم في فيلادلفيا بمناسبة ذكرى ميلاد جورج واشنطن، إنّ إعلان الاستقلال لم يمنح الحرية لأميركا فحسب، بل أعطى أيضاً الأمل للعالم "بأن تُرفع

الأثقال في الوقت المناسب عن كواهل كل البشر، وأن يحظوا جميعاً بفرص متكافئة". واختار أن يغتال بدلاً من التنازل عن ذلك المبدأ.

لم يكن رئيسنا السادس عشر العظيم يعاني من قلة النصح. فقد كانت الدروس تلقى عليه - في الصحف والاجتماعات العامة، بل كان يُسخر منه في وجهه - لأنّ الكثيرين اعتقدوا أنّه لا يصلح للمنصب. وبدا أنّ الجميع يفوقونه معرفة في كيفية ربح الحرب وإعادة توحيد الأمة والتعامل مع مسألة العبودية. وتقول القصة إنّه بعد أنّ ألقى وفد من رجال الدين من نيو إنغلند متحمّس لتسقّط الأخطاء خطاباً متعالياً، سألهم لنكولن بهدوء، "أيها السادة، أتذكرون أنّ رجلاً يدعى بلوندين سار قبل عدة سنوات على حبل مشدود فوق شلالات نياغارا"؟ هزّ الرجال رؤوسهم فتابع لنكولن:

> لنفترض أن كل القيم المادية في بلدنا العظيم، من الأطلسي إلى الهادئ - ثروته وازدهاره، ومنجزاته في الحاضر وآماله في المستقبل - يمكن أن تركز وتعطى إلى بلوندين ليحملها في أثناء عبوره الرهيب، وأن المحافظة عليها تتوقف على قدرته على العبور بها إلى الجانب الآخر، ولنفترض أنّ أعز ما لديكم في هذا العالم، وسلامة أسرتكم، وأمن موطنكم، يتوقف أيضا على عبوره.
>
> ولنفترض أنّكم موجودون على الشاطئ فيما هو يعبر، ويتحسس طريقه بعناية ويوازن عصاه بكل ما أوتي من مهارة، ويتقدم على مهل وحذر بخطى ثابتة فوق اللجة الهادرة. ماذا تراكم ستفعلون؟ هل كنتم ستبدؤون بهز الحبل والصياح، "بلوندين! انتصب أكثر قليلا! بلوندين! انحن قليلا، أسرع قليلا، ومِلْ أكثر إلى الجنوب! مل الآن إلى الشمال"! أم كنتم ستقفون عاجزين عن الكلام وأنتم تحبسون أنفاسكم وتدعون الله أن يسدد خطاه ويساعده لعبور هذه المحنة بسلام؟

كلنا بحاجة إلى تذكير بما ستدركه أنت من بين الآخرين بسرعة ووضوح: الرئيس لا يحمل فحسب آمال قادة الأحزاب في المنفعة السياسية، وتطلّعاته الشخصية إلى مجد دائم، وإنّما آمال الأمة بأسرها وأمم كثيرة خارج حدودنا أيضاً. في السنوات الأربع القادمة، سيطلب منك أن تحمل العبء وتحافظ على توازنك في حين تتلقّى الدفع بإهمال من كل ناحية وصوب. والأهمّ من ذلك أنّه لن ينتظر منك أن تبلغ الجانب الآخر بسلامة بل

أن تختار أيضاً نقطة القفز الصحيحة من بين الاحتمالات العديدة، وبعضها يبدو آمناً لكنّ أرضه تهوي تحت أي ثقل.

لذا بارك الله بك سيدي الرئيس، وحفظك، وسدّد خطاك، وكان في عونك. اعلم أنّني سأدعو لك كل يوم أن تنتصب أكثر قليلاً، وتسرع قليلاً، وأن تميل أكثر إلى الوسط... وأن تحملنا جميعاً إلى برّ الأمان.

الحواشي

الفصل الأول: تفويض بالقيادة

12 "splendid misery" Thomas Jefferson, quoted in The American President, Philip K. Kunhardt, Jr., Philip B. Kunhardt III, and Peter W. Kunhardt, New York: Riverhead Books, 1999, 270.

12 *"the personal embodiment"* William H. Taft, quoted in *The American Presidency*, Clinton Rossiter, New York: New American Library, 1956, 14.

13 *"a remarkable time"* Republican Party platform, Republican National Convention, Philadelphia, Pa., July 31, 2000.

13 *"We will need to work well together"* Colin Powell, testimony before the Committee on Foreign Relations, United States Senate, Washington, D.C., January 17, 2001.

14 *"the last best hope"* Abraham Lincoln, annual message to Congress, Washington, D.C., December 1, 1862.

14 *"provokes more confl icts"* World poll, British Broadcasting Corporation, "World View of US Role Goes from Bad to Worse," January 23, 2007.

15 *"Our national consciousness"* George F. Kennan, *American Diplomacy 1900-1950*, Chicago: Mentor Book, New American Library, University of Chicago Press, 1951, 9.

15 *"We are living in an age of disorder,"* Walter Lippmann, *EssentialLippmann: A Political Philosophy for Liberal Democracy*, Clinton Rossiter and James Lare (eds.), Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1982, 30-31.

16 *"Only the most stubborn and obtuse"* John H. Hallowell, *Main Currents in Modern Political Thought*, New York: Henry Holt and Company, 1953, 618, 622.

16 *"The superiority of our way of life"* Hans J. Morgenthau, *The Purpose of American Politics*, New York: Alfred A. Knopf, 1960, 326.

17 *"pay any price"* John F. Kennedy, inaugural address, Washington, D.C., January 20, 1961.

17 المصدر نفسه. *"to those old allies"*

18 *"genuine peace"* John F. Kennedy, American University, Washington, D.C., June 10, 1963.

18 *"the man who accompanied"* John F. Kennedy, quoted in "State Visits Abroad," selections from John F. Kennedy Library and Museum, www.fi eldmuseum.org.

18 *"to lift your eyes"* John F. Kennedy, remarks in the Rudolph Wilde Platz, Berlin, Germany, June 26, 1963.

23 *"mind its own business internationally"* Pew Research Center, Washington, D.C., statement released February 3, 2006.

24 *The same polls that show a decline in our popularity* Pew Global Attitudes Project, "Global Unease with Major World Powers," Pew Research Center, Washington, D.C., June 27, 2007.

الفصل الثاني: أي نوع من الرؤساء؟

27 *"A president knows"* Theodore Sorensen, quoted in *Bureaucratic Politics and Foreign Policy*, Morton Halperin, Washington, D.C.: Brookings Institution, 1974, 82.

27 *you will one day be described by your biographer* Reference to biography of Washington by Mason Locke Weems, cited by Paul F. Boller, Jr., *Presidential Anecdotes*, New York: Oxford University Press, 1996, 3.

29 *"He kept us out of war"* Woodrow Wilson, 1916 Presidential Campaign Slogans, CB Presidential Research Services, www.presidentsusa.net/1916slogan.html.

29 *"Your boys are not going to be sent"* Franklin Roosevelt, cited in "The Foreign Policy of Franklin Roosevelt to the Entry Into World War II, by Henry J. Brajkovic, Yale-New Haven Teacher's Institute, www.yale.edu/ynhti/curriculum/units/1978/3/78.03.05.x.html.

"We are not about to send American boys" Lyndon Johnson, cited in "The President's Choices in Iraq," ABC News opinion by Casimir Yost, November 29, 2006. 29

U.S. Representative John Marshall Marshall quoted in *The American Presidency*, Clinton Rossiter, New York: New American Library, 1956, 14. 30

"The 'little touch of Harry' " Dean Acheson, *Present at the Creation: My Years in the State Department*, New York: W.W. Norton & Company, 1969, 730. 31

"it is easier to remove tyrants" Harry S Truman, address to closing session of the founding conference of the United Nations, San Francisco, California, June 26, 1945. 32

"Reagan's was an astonishing performance" Henry Kissinger, *Diplomacy*, New York: Simon and Schuster, 1994, 764-65. 32

"the CIA and [its director]" George Shultz, *Turmoil and Triumph: My Years as Secretary of State,* New York: Charles Scribner's Sons, 1993, 84. 32

George W. Bush reportedly told John McCain Bob Woodward, *State of Denial*, New York: Simon and Schuster, 2007, 419. 33

A June 2005 survey See the Discovery channel website, dsc.discovery.com/convergence/greatestamerican/top100.html. 33

"crisis of spirit" Jimmy Carter, televised address, July 15, 1979. 33

"too great for small dreams" Ronald Reagan, quoted in *The American President*, Philip K. Kunhardt, Jr., Philip B. Kunhardt III, and Peter W. Kunhardt, New York: Riverhead Books, 1999, 299. 33

"Mr. Gorbachev, tear down this wall" Ronald Reagan, speech, Berlin, Germany, June 12, 1987. 33

"Insist on yourself" Ralph Waldo Emerson, "Self-Reliance," in *Ralph Waldo Emerson: Selected Prose and Poetry,* Reginald L. Cook (ed.), New York: Holt, Rinehart and Winston, 1950, 187. 34

"experienced politicians of extraordinary temperament" Richard E. Neustadt, *Presidential Power and the Modern Presidents*, New York: The Free Press, 1991, 207. 34

"unselfconscious rootedness" Ibid., 208. 34

"I can understand the theory" Gerald R. Ford, quoted in "Ford Disagreed with Bush About Invading Iraq," by Bob Woodward, *Washington Post,* December 28, 2006. 35

"Why has Jesus Christ" Woodrow Wilson, quoted in *The Presidential Character*, James David Barber, Englewood Cliffs, N.J.: Prentice Hall, 1972, 36. 35

"There is coming a time" Woodrow Wilson, statement, October 19, 1916. 36

"no other nation has rested its claim" Henry Kissinger, op. cit., 46. 36

"We have about 50 percent of the world's wealth" George F. Kennan, Policy Planning Study 23, *Foreign Relations of the United States*, Washington, D.C., U.S. Government Printing Offi ce, 1948. 37

"calling from beyond the stars" George W. Bush, speech to the Republican National Convention, New York, September 1, 2004. 37

"a new world order" George H. W. Bush, address to joint session of Congress, September 11, 1990. 38

"Morally, a failure to respond" George H. W. Bush, remarks at Texas A&M University, College Station, Texas, December 15, 1992. 38

"forward strategy for freedom" George W. Bush, address to the National Endowment for Democracy, Washington, D.C., November 6, 2003. 39

الفصل الثالث: موظفوك يقدّمون العزاء لك

"The choice of a prince's ministers" Niccolò Machiavelli, *The Prince and the Discourses*, New York: Modern Library, 1950, 85. 41

"priority attention be given immediately" Transition Plan for President Elect 41

Michael S. Dukakis, 1988, 78.

As president elect, he was warned Paul F. Boller, Jr., *Presidential Anecdotes*, New York: Oxford University Press, 1996, 135. 42

"Every time I make an appointment" William H. Taft, quoted in *Transition Plan for President Elect Michael S. Dukakis*, 154. 43

"*too many of State's upper-level career personnel"* Franklin D. Roosevelt, quoted in *FDR: My Boss*, Grace Tully, Chicago: Peoples Book Club, 1949, 175. 44

"*sprawling Washington and worldwide bureaucracy,"* Jimmy Carter, quoted in *Running the World*, David Rothkopf, New York: Public Affairs, 2005, 194. 44

Henry Kissinger dismissed it as a backwater Ibid., 118. 44

Newt Gingrich referred to it scathingly "Gingrich Urges Overhaul of State Department," Eric Schmitt, *New York Times*, June 18, 2003. 44

"We're heading hell bent" George Ball, quoted in Rothkopf, op.cit., 98. 45

"No secretary of state is really important" Richard Nixon, quoted in Roderick MacFarquhar, "Mission to Mao," *New York Review of Books*, June 28, 2007. 46

The NSC's offi cial purpose Study prepared by Ferdinand Eberstadt, cited in a handwritten memo entitled "History of the NSC," prepared by Robert Gates during the Carter administration (1977-1981). 46

"Bud always gave me the impression" George Shultz, *Turmoil and Triumph: My Years as Secretary of State,* New York: Charles Scribner's Sons, 1993, 815. 48

I found in my basement a handwritten assessment Handwritten memo entitled "History of the NSC," prepared by Robert Gates during the Carter administration (1977-1981). 49

"The chief embarrassment" Woodrow Wilson, quoted in *The American Presidency*, Clinton Rossiter, New York: New American Library, 1956, 102. 55

"isn't a crime exactly" Finley Peter Dunne, *Mr. Dooley: Now and Forever*, Stanford, Calif.: Academic Reprints, 1954, 207-10. 55

الفصل الرابع: فنّ الإقناع

62 *"It's true hard work never killed"* Ronald Reagan, quoted in *The American President,* Philip K. Kunhardt, Jr., Philip B. Kunhardt III, and Peter W. Kunhardt, New York: Riverhead Books, 1999, 300.

68 *She may adopt the tactful approach* Assessment of Franklin's diplomacy, contained in letter of Thomas Jefferson to Thomas Jefferson Randolph, November 24, 1808.

70 *"No man can tame a tiger"* Franklin Roosevelt, radio address, Washington, D.C., December 29, 1940.

71 *As he told Americans* Philip K. Kunhardt, Jr., op.cit., 195.

72 *"If you have a mother-in-law"* Lyndon Johnson, quoted in *Great Presidential Wit,* Bob Dole (ed.), New York: Simon and Schuster, 2002, 100.

73 *Andrei Gromyko, the longtime Soviet foreign minister.* أعيدت رواية هذه القصة عن غروميكو في دوائر واشنطن على مر السنين. وأتوقّع أن تكون الحادثة قد وقعت، لكنني لم أكن موجودة، لذا لا يمكنني إثباتها. وأول من رواها زبيغنيو بريجنسكي.

75 *"America, in this young century"* George W. Bush, second inaugural address, Washington, D.C., January 20, 2005.

75 *Even Peggy Noonan* "Way Too Much God," Peggy Noonan, *Wall Street Journal,* January 21, 2005.

76 *Truman announced a broader initiative* Harry S Truman, inaugural address, Washington, D.C., January 20, 1949.

77 *According to Donald Rumsfeld* Donald Rumsfeld, "The World According to Rummy," *Washington Post,* October 8, 2006.

الفصل الخامس: خمسون رامية ماهرة

81 *"I for one feel confi dent"* Letter signed Phoebe Ann Moses, *Dear Mr. President: Letters to the Oval Offi ce from the Files of the National Archives*, text by Dwight Young, Washington, D.C.: National Geographic, 2005, 34-35.

Herbert Hoover, quoting his Quaker uncle Philip K. Kunhardt, Jr., Philip B. Kunhardt III, and Peter W. Kunhardt, *The American President,* New York: Riverhead Books, 1999, 283. 81

"Only when our arms are suffi cient" John F. Kennedy, inaugural address, Washington, D.C., January 20, 1961. 83

"Beware the twelve-division strategy," Gen. Eric Shinseki, cited in *In the Company of Soldiers,* Rick Atkinson, New York: Henry Holt & Company, 2005, 302. 83

"The greatest contribution Vietnam is making" Robert S. McNamara, quoted in *On Strategy: A Critical Analysis of the Vietnam War*, Harry G. Summers, Jr., New York: Dell, 1982, 42. 85

"As military professionals we must speak out" Fred Weyand, quoted in ibid., 68-69. 85

"Given the goals of rogue states" National Security Council, *National Security Strategy of the United States of America*, Washington, D.C., September 2002, 15. 87

"We have to deal with this new type of threat" Richard Cheney, quoted in *The One Percent Doctrine: Deep Inside America's Pursuit of Its Enemies Since 9/11*, Ron Suskind, New York: Simon and Schuster Paperbacks, 2006, 62. 87

"Saddam Hussein was dangerous with weapons" George W. Bush, *Meet the Press*, NBC News, February 8, 2004. 87

*In a speech at West Point in 1993*George H. W. Bush, West Point, N.Y., January 5, 1993. 89

It was observed of James Cagney Otis Ferguson, "Cagney: Great Guy," in *American Movie Critics: An Anthology from the Silents Until Now*, Phillip Lopate (ed.), New York: Library of America, 2006, 122. 91

الفصل السادس: احرص على أن تكون مصيباً ثم امضِ قدماً

"Somewhere there must be a book" Warren G. Harding, quoted in Paul F. Boller, Jr., *Presidential Anecdotes*, New York: Oxford University Press, 1996, 230. 99

101 *"frantic... white-water canoeist"* David Broder, *Washington Post*, February 2, 1977.

102 *"If you see ten troubles"* Calvin Coolidge, quoted in *The American President*, Philip K. Kunhardt, Jr., Philip B. Kunhardt III, and Peter W. Kunhardt, New York: Riverhead Books, 1999, 278.

103*he personal command post"* Richard E. Neustadt, *Presidential Power and the Modern Presidents*, New York: The Free Press, 1991, 172.

109 *"What if the Sicilians in terror combine against us"* Thucydides, *The Peloponnesian Wars*, New York: Washington Square Press, 1963, 199.

109 *"although some disapproved"* Euripides, cited in ibid., 200.

110 *"we come not to enslave you"* Ibid., 235.

110 *"Though we are supposed to be the besiegers"* Ibid., 256.

110 *"When [the Athenians] recognized the truth"* Ibid., 308.

الفصل السابع: الأسد ومروّضو الأسود

114*Half of a president's suggestions"* Jonathan Daniels, quoted in *The Purpose of American Politics*, Hans J. Morgenthau, New York: Alfred A. Knopf, 1960, 314.

114 *"The Treasury is so large"* Franklin Roosevelt, quoted in *Presidential Power and the Modern Presidents*, Richard E. Neustadt, New York: The Free Press, 1991, 37.

115*During the Cuban missile crisis* Morton Halperin, *Bureaucratic Politics and Foreign Policy*, Washington, D.C.: Brookings Institution, 1974, 280.

115 *"If the president knows what he wants"* Harry S Truman, quoted in *Diplomacy*, Henry Kissinger, New York: Simon and Schuster, 1994, 425.

119 *"The country has come to feel"* Quotations from Will Rogers, www. quotationspage.com

122 *"our Printers were more discreet"* George Washington, quoted in *Decision-making in the White House*, Theodore C. Sorensen, New York: Columbia University Press, 1963, 55.

122 *"The man who reads nothing at all"* Thomas Jefferson, quoted in *Great Presidential Wit*, Bob Dole (ed.), New York: Simon and Schuster, 2002, 150.

122 *"a sort of assassin"* John Quincy Adams, quoted in ibid., 198.

122 *"Why is it that they have such an itching"* Martin van Buren, quoted in *Presidential Anecdotes*, Paul F. Boller, Jr., New York: Oxford University Press, 1996, 88.

122*"villainous journalists"* Abraham Lincoln, quoted in *The Gettysburg Gospel,* Gabor Boritt, New York: Simon and Schuster, 2006, 57.

122*In Pennsylvania, he procured kind coverage* Ibid., 60.

123*The task of preserving an offi cial record* Grace Tully, *FDR: My Boss*, Chicago: Peoples Book Club, 1949, 91.

123*If you give me a week"* Dwight D. Eisenhower, press conference, Washington, D.C., August 24, 1960.

124"*We make it our business*," Walter Lippmann, "The Job of the Washington Correspondent," *Atlantic Monthly*, January, 1960, 47-49.

124*As soon as this directive became public* James Baker, *Work Hard, Study... and Keep Out of Politics*, New York: G.P. Putnam's Sons, 2006, 193-95.

126*"Nothing has changed"* Caspar Weinberger, statement received third prize in National Council of Teachers' doublespeak competition for 1984, cited in www.csd.uwo.ca/staff/magi/personal/humour/General_Audience/Doublespeak.html.

127*Political scientist Clinton Rossiter* Clinton Rossiter, *The American Presidency,* New York: New American Library, 1956, 53.

الفصل الثامن: أسس جديدة

131 *"There is something astonishing in American courage"* Paul Tillich, *The Courage to Be*, New Haven, Conn.: Yale University Press, 1952, 107-8.

132*"The greatest asset of the Americans"* Victor Vinde, excerpted in *America in Perspective*, Henry Steele Commager (ed.), Chicago: Mentor Books, 1947, 328.

135*the combination of mobility and fecundity*, "UN Predicts Population Explosion," Celia Dugger, *New York Times*, June 28, 2007.

140*"the act, process or policy" Webster's II, New Riverside University Dictionary*, Boston: Riverside Publishing Company, 1984, 534.

140*"No two countries"* Thomas Friedman, *The World Is Flat: A Brief History of the Twenty-fi rst Century*, updated and expanded edition, New York: Farrar, Straus and

Giroux, 2006, 522.

140*"Contrary to popular belief,"* Kevin H. O'Rourke, research paper, "Europe and the Causes of Globalization," Dublin, Trinity College, 2.

141*"It is impossible that old prejudices"* review of *The Victorian Internet: The Remarkable Story of the Telegraph and the Nineteenth Century's Online Pioneers*, author Tom Standage, Berkeley Publishing Group (1998), review is by Kimberly Patch, technology Research News, TRN Bookshelf, http://www.trnmag.com/Bookshelf/The%20Victorian%20Internet.html

142*"Observers in the tail of our ship"* William T. Laurence, "Nagasaki, 9 August 1945," in John Carey (ed.), *Eyewitness to History*, New York: Avon Books, 1987, 637-38.

142*"Within a few seconds"* Marcel Junod, "Visiting Hiroshima," in ibid., 639.

143*"determination to help solve"* Dwight D. Eisenhower, "Atoms for Peace," address to the United Nations General Assembly, New York, N.Y., December 8, 1953.

143*"suits me fi ne"* Ronald Reagan, quoted in *Reagan and Gorbachev*, Strobe Talbott and Michael Mandelbaum, Council on Foreign Relations book, New York: Vintage Books, 1987, 174.

144*"have this cynical environment"* Mohamed ElBaradei, quoted in op-ed by Joseph Cirincione, *Los Angeles Times*, October 17, 2006.

146*"I can't believe"* Ronald Reagan, quoted in *Diplomacy*, Henry Kissinger, New York: Simon and Schuster, 1994, 781.

148*In Nigeria... satisfaction with democracy* Lydia Polgreen, "Africa's Crisis of Democracy," *New York Times*, April 22, 2007.

149*"If we fail, then the whole world"* Winston Churchill, radio broadcast, London, June 18, 1940.

150*Roosevelt, of course, rose from his wheelchair* San Francisco, California, July 16, 1984. استمدّت هذه الصورة من سطر في خطاب ماريو كومو أمام مؤتمر الحزب الديمقراطي في سنة 1984: "منذ أن نهض فرانكلين روزفلت عن كرسيّه المدولب ليرفع ركب أمته".

150*"no vision of a distant millennium"* Franklin Roosevelt, third inaugural address, Washington, D.C., January 20, 1941.

الفصل التاسع: أطواق من حديد

153*"the other great nations"* Tony Blair, speech to joint session of the United States Congress, Washington, D.C., July 17, 2003.

155*"The crimes of the United States"* Harold Pinter, by video, from London to audience in Stockholm, December 7, 2005, quoted in "Art of the Impossible," *The Economist*, October 26, 2006.

157*"missed an opportunity to shut up"* Jacques Chirac, quoted in "France Looks Ahead, and It Doesn't Look Good," Tony Judt, *New York Times*, April 22, 2007.

159*a smaller percentage of Americans now think* Pew Global Attitudes Project, "Global Opinion Trends 2002-2007: A Rising Tide Lifts Mood in the Developing World," Pew Research Center, Washington, D.C., July 24, 2007.

161*In 2000, almost eight out of every ten* Pew Global Attitudes Project, "Global Unease with Major World Powers," Pew Research Center, Washington, D.C., June 27, 2007, 13.

161*"punish France, ignore Germany"* Condoleezza Rice, quoted in "Three Miscreants," Jim Hoagland, *Washington Post*, April 13, 2003.

165*according to reputable studies* Livestock, Environment and Development Initiative, Food and Agriculture Organization of the United Nations, "Livestock's Long Shadow," Rome 2006.

168*economic growth has been uneven* Joy Olson, executive director of the Washington Offi ce on Latin America, testimony before the Committee on Foreign Affairs, Subcommittee on the Western Hemisphere, United States House of Representatives, Washington, D.C., March 28, 2007.

170*"the devil that represents capitalism"* Hugo Chávez, quoted in "For Venezuela, as Distaste for U.S. Grows, So Does Trade," Simon Romero, *New York Times*, August 16, 2007.

173*"According to a recent poll"* Jay Leno, quoted in Week in Review, *New York Times*,

March 18, 2007.

174*The offending candidate's name?* "County G.O.P. Asks Candidate to Withdraw Over Letter Threat," Cindy Chang, *Washington Post*, October 20, 2006.

الفصل العاشر: موقع أميركا في القرن الآسيوي

178*one U.S. diplomat complained* George Shultz, *Turmoil and Triumph: My Years as Secretary of State*, New York: Charles Scribner's Sons, 1993, 183.

181*"all our clothes were given to us"* Ban Ki-moon, quoted in "For New UN Chief, a Past Misstep Leads to Opportunity," Warren Hoge, *New York Times*, December 9, 2006.

181*U.S. efforts to open Korea to trade* Thomas Bender, *A Nation Among Nations: America's Place in World History*, New York: Hill and Wang, 2006, 200-206.

182*"I don't have any anti-American sentiment"* Roh Moo-hyun, quoted in "A Turning Point: Democratic Consolidation in the ROK and Strategic Readjustment in the US-ROK Alliance," Alexandre Y. Mansourov (ed.), Asia-Pacifi c Center for Security Studies, Honolulu, Hawaii, 2005, 209.

187*"praying for the souls"* Kim Il-sung, quoted in *Under the Loving Care of the Fatherly Leader: North Korea and the Kim Dynasty*, Bradley K. Martin, New York: Thomas Dunne Books, 2004, 27.

187*the correlation cannot be accidental* Ibid., 261.

188*"study history only to fi nd the faults"* No Yong-Park, excerpted in *America in Perspective*, Henry Steele Commager (ed.), Chicago: Mentor Books, 1947, 292.

188*In 2007, a survey reported* Pew Global Attitudes Project, "Global Opinion Trends 2002-2007: A Rising Tide Lifts Mood in the Developing World," Pew Research Center, Washington, D.C., July 24, 2007.

191*Now, more people in more countries* Pew Global Attitudes Project, "Global Unease with Major World Powers," Pew Research Center, June 27, 2007, 9, 35.

195*Reportedly, Chinese leaders backed away* Susan L. Shirk, *China: Fragile Superpower*, New York: Oxford University Press, 2007, 193.

196196 *"Keeping U.S. forces deployed"* Ibid., 263.

الفصل الحادي عشر: الكبرياء والتحامل في روسيا وجنوب آسيا

202*"a more democratic, open, transparent Russia"* John Edwards and Jack Kemp, "Russia's Wrong Direction," Task Force Report No. 57, Council on Foreign Relations, New York, March 2006.

202*The czar is credited* B. H. Sumner, *Peter the Great and the Emergence of Russia*, London: English Universities Press Ltd., 1951, 31.

207*"an almost uncontained hyper use of force"* Vladimir Putin, address to Forty-third Munich Conference on Security Policy, Munich, Germany, February 10, 2007.

210*"Give them time"* George F. Kennan, *American Diplomacy* 1900-1950, Chicago: Mentor Books, New American Library, University of Chicago, 1951, 112.

213*A recent survey of Indians* Pew Global Attitudes Project, "Global Unease with Major World Powers," Pew Research Center, Washington, D.C., June 27, 2007, 3.

215*In his memoir* Pervez Musharraf, *In the Line of Fire: A Memoir*, New York: The Free Press, 2006.

217*the chief minister of the North-West Frontier Province told me* Meeting between the author and Akram Khan Durrani, chief minister of Pakistan's North-West Frontier Province, Washington, D.C., July 15, 2005.

218*"The once distant home"* Josef Korbel, *Danger in Kashmir* (rev. ed.), Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1954, 304.

233*In the past fi ve years, we have given Pakistan some $10 billion* Article, "For Every Martyr Who Died, 2,000 Were Born," *FT.com Financial Times*, September 15, 2007.

الفصل الثاني عشر: عراق واحد يكفي

228*"There is no meaning"* Feisal bin Hussein, quoted in *Desert Queen,* Janet Wallach, New York: Anchor Books, 1999, 314.

229*"I am deeply concerned"* Letter from Winston S. Churchill to David Lloyd George, September 1, 1922, included in *Winston S. Churchill*, IV, Companion Volume Part 3, London: Heineman, 1977, 1973-74.

230*In my last book* Madeleine Albright, *The Mighty and the Almighty: Refl ections on*

America, God and World Affairs, New York: HarperCollins, 2006, 172.

235 *"Iraq is not just one war,"* Philip Zelikow, "Plan Delta: Leveraging Power to Protect American Interests in Revolutionary Iraq," private paper quoted with permission, July 17, 2007.

238 *"If Iraq is to teach us anything"* Tom Ricks's Inbox, *Washington Post*, October 8, 2006.

239 *"It's 1938 and Iran is Germany"* Benjamin Netanyahu, quoted in "The Next Act," by Seymour Hersh, *The New Yorker*, November 11, 2006.

240 *"It was a day that should never"* CIA's secret history of the coup in Iran, cited in "How a Plot Convulsed Iran in 1953," James Risen, *New York Times*, April 16, 2000.

244 *"Of one Essence"* The translation from Saadi Shirazi's poem is credited to Iraj Bashiri.

الفصل الثالث عشر: الشرق الأوسط: القدرة على الاختيار

251 *"One of the important things,"* Baruch Goldstein, quoted in "Goldstein's Effect on History Not How It Was Meant to Be." Aaron D. Maslow, *Seattle Post-Intelligencer*, March 10, 1994.

256 *"become part of the free world,"* Ariel Sharon, quoted in *Lebanon: Death of a Nation*, Sandra Mackey, New York: Anchor Books, Doubleday, 1989, 174.

256*modeled by its founder on Hitler's Nazi Youth* Gemayel family, Encyclopedia Britannica Online, 2007, http://www.britannica.com/eb/article-9036339.

260*In response to a 2007 survey question* Pew Global Attitudes Project, "Global Unease with Major World Powers," Pew Research Center, Washington, D.C., June 27, 2007, 56.

263*As the psalmist warns* Psalm 55, verse 21.

268 *"We've all been attacked by the bacteria of stupidity"* Ghazi Hamad, quoted in "From Hamas Figure, an Unusual Self-Criticism," Steven Erlanger, *New York Times,* August 28, 2006.

268 *"The overwhelming majority of Israeli citizens"* David Grossman, address at peace

rally in Tel Aviv, reprinted in *Yedioth Ahronoth,* November 3, 2006.

الفصل الرابع عشر: عزل القاعدة

274*We have also established a list* "Safeguarding Amish County Popcorn," *Indianapolis Star*, July 15, 2006.

278*"if you call it a war"* Richard Myers, quoted in "Washington Recasts Terror War as 'Struggle,'" by Eric Schmitt and Thom Shanker, *New York Times*, July 27, 2005.

الفصل الخامس عشر: فوق اللجّة الهادرة

291*of great obscurity to those who lived through it* Dean Acheson, *Present at the Creation: My Years in the State Department*, New York: W.W.Norton and Company, 1969, 3-4.

292*It was said of FDR* Grace Tully, *FDR: My Boss*, Chicago: People's Book Club, 1949, 65.

295*"that in due time"* Abraham Lincoln, speech in Independence Hall, Philadelphia, Pa.., February 22, 1861.

295*"Gentlemen, do you remember"* Abraham Lincoln, composite derived from citations in *Great Presidential Wit*, by Bob Dole (ed.), New York: Simon and Schuster, 2001, 35-36; and in "Abraham Lincoln's Classroom: Abraham Lincoln and Public Opinion, The Lincoln Institute, www.abrahamlincolnsclassroom.org/Library/newsletter.asp?ID=124&CRLI=172.

---

* في اللغة الإنكليزية لا تستوجب هذه العبارة استخدام ضمير، ومن ثم تصلح للجنسين، أما في العربية فإنّها تشير إلى المذكّر فاقتضى التنويه - المترجم.

* لعبة مزينة مليئة بالحلوى والألعاب يضربها الأطفال بالعصي للحصول على ما بداخلها - المترجم.

* في سنة 1990، استضفت القائد التشيكوسلوفاكي فاكلاف هافل في أول زيارة له إلى واشنطن. عاد هافل من اجتماع مع الرئيس جورج هـ. دبليو بوش ليسأل عن مجموعة من خرائط "ناشيونال جيوغرافيك" شاهدها

في البيت الأبيض. اتصلت بناشيونال جيوغرافيك وأبلغت أنّ المؤسسة ترسل مجموعة من الخرائط إلى البيت الأبيض كل عام. وقد بدأت هذه العادة بعد أن اشتكى فرانكلين روزفلت قبيل ابتداء الحرب العالمية الثانية من أنّه لا يمتلك أي خريطة محترمة. أعجب روزفلت بخرائطه كثيراً فطلب صنع مجموعة أخرى لونستون تشرشل. وفي أعقاب مكالمتي، أرسلت ناشيونال جيوغرافيك خرائط إلى هافل، فأعجب بها كثيراً.

* Berliner بالإنكليزية - المترجم

** بالإنكليزية "up your bottoms"، وكان يقصد "bottoms up"، أي اشربوا الكؤوس دفعة واحدة - المترجم.

* منافسة سنوية أميركية تلفزيونية في الغناء بدأت في سنة 2002 - المترجم.

* اللقب الشعبي بالانكليزية "Please Hold Candle" في حين أنّ الاسم الرسمي "Power Holding Company" - المترجم.

* بالإنكليزية ABC (Anything But Clinton) - المترجم.

* الأخ الكبير Big Brother هي شخصية الدكتاتور الحاكم لدولة أوقيانيا الشمولية الخيالية التي صوَّرها جورج أورويل في روايته 1984 - المترجم.

(· رداً على سؤال في مسح أجري في سنة 2007، "هل يمكن إيجاد طريقة لكي تتعايش حقوق إسرائيل والفلسطينيين معاً؟" أجاب بنعم 16 بالمئة من الفلسطينيين، و17 بالمئة من الأردنيين، و18 بالمئة من المصريين، و21 بالمئة من الكويتيين.

* ما ورد ترجمة للعبارة الإنكليزية "withdrawal from territories occupied in the war" التي تتعمّد عدم تحديد الأراضي - المترجم.

* فالي فورج Valley Forge المكان الذي عسكر فيه جيش واشنطن المنهك في بنسلفانيا في سنة 1777 وكان في ذلك لا يزال يقاتل القوات البريطانية، ويعتبر الأميركيون تلك الفترة انتصاراً للإرادة؛ غتيسبيرغ Gettysburg، معركة في الحرب الأهلية الأميركية وقعت في 1 - 3 تموز/يوليو 1863، كانت بمثابة نقطة انعطاف؛ إن عبارة مسافر فروست تشير إلى المسافر في قصيدة روبرت فروست "الطريق الذي لم يسلك" Road Not Taken - المترجم.

* كونستانت وغادسبيد وديسكوفري أسماء السفن الإنكليزية الثلاث التي أقامت أول مستوطنة إنكليزية دائمة في أميركا الشمالية، جميس تاون؛ وبنكر هيل معركة انتصرت فيها القوات البريطانية على قوات الثوار الأميركيين لكنّها تكبّدت خسائر فادحة – المترجم.



مادلين أولبرايت
مُذكّرة إلى الرئيس المُنتخَب
كيف يمكننا استعادة سمعة أميركا ودورها القيادي